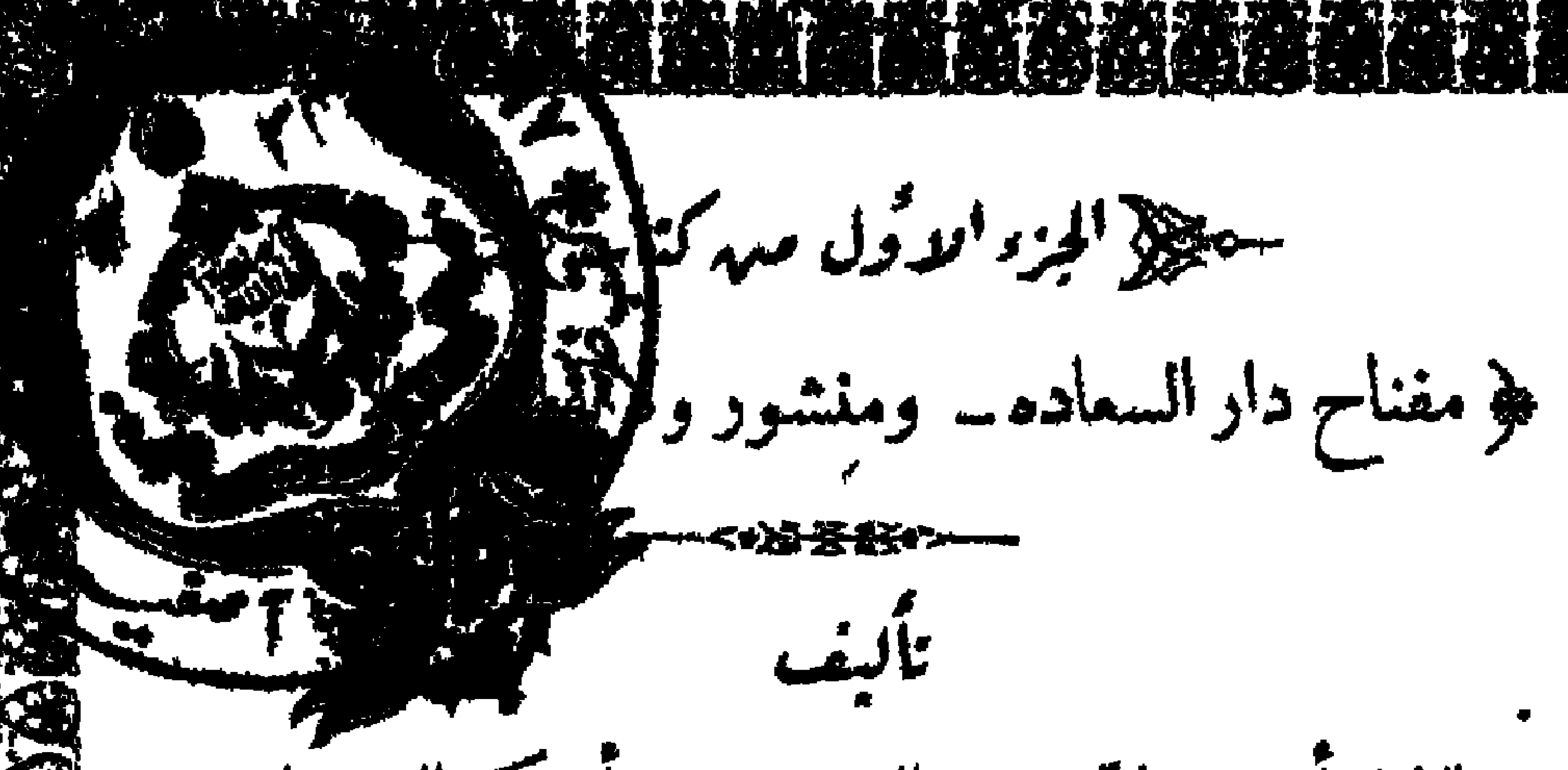
فهرس الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعاده

صحيفه

صحيفه

صحيفه

﴿ تم فهرس الجزء الاول من كتاب المفتاح ﴾



الجزء الاول من كتاب

مفتاح دار السعاده ومنشور و...

تأليف

الامام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزيه قدس الله روحه الزكيه

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزيه الدمشقي المتوفي سنة ٧٥١ .. كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسلة يقتبس من مجموعها معرفة العلم وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفال والزجر ومعرفة أصول نافعة جامعة مما تكمل به النفوس البشرية الى غير ذلك من الفوائد

صحح هذا الاصل على نسختين أولاهما وردت لنا من صاحب الفضيلة علامة العراق على الاطلاق آلوسى زاده السيد محمود شكرى افندى حفظه الله تعالى وعليها علامة المقابلة بخطه . وثانيهما أحضرناها من دار السعادة العلية

الطبعة الأولى

(على نفقة احمد ناجي الجمالى ومحمد أمين الخانجى وأخيه)
سنة ١٣٢٣ هجرية

« طبعت بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر » لصاحبها محمد اسماعيل »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى سهل لعباده المتقين الى مرضاته سبيلا • وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا • واتخذهم عبيداً له فاقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا • وكتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا • والحمد لله الذى أقام فى أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا • واختصّ هذه الامة بانه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذ لهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا • يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الاذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هدياً وأقومهم قيلا • فكم من قتيل لابليس قدأحيوه • ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه • ومن مبتدع فى دين الله بشهب الحق قد رموه • جهاداً فى الله وابتغاء مرضاته • وبياناً لحججه على العالمين وبيناته • وطلباً للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته • فحاربوا فى الله من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم • الذين عقدوا ألوية البدعة واطلعوا اعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا فى الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا • *أحمده وهو المحمود على كل ماقدره وقضاه • وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه • واستهديه سبل الذين أنعم عليهم ممن اختاره لقبول الحق وارتضاه • واشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه • وأستغفره من الذنوب التى تحول بين القلب وهداه • وأعوذ بالله من شر نفسى وسيآت عملى استعاذة عبد فارّ الى ربه بذنوبه وخطاياه • وأعتصم به من الاهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه نزيلا • وأشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له شهادة أشهدبها مع الشاهدين • واحملها عن الجاحدين • وأدخرها عند الله عدّة ليوم الدين • وأشهد ان الحلال ماحلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من فى القبور • وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذى لاينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحي • أرسله رحمة للعالمين • ومحجة للسالكين

وحجة على العباد أجمعين • أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به الى أقوم الطرق • وأوضح السبل • وافترض على العباد • وتعظيمه وتوقيره وتبجيله • والقيام بحقوقه وسد اليه جميع الطرق فلم يفتح لاحد الا من طريقه • فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به من العمي • وأرشد به من الغي • وفتح به أعينا عميا • وآذانا صما وقلوبا غلفا • فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله لا يرده عنه راد • داعيا الى الله لا يصده عنه صاد • الى ان أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته سير الشمس فى الاقطار • وبلغ دينه مابلغ الليل والنهار • فلما أكمل الله به الدين • وأتم به النعمة على عباده المؤمنين • استأثر به ونقله الى الرفيق الاعلى من كرامته • والمحل الارفع الاسنى من أعلى جناته • ففارق الامة وقد تركها على المحجة البيضاء التى لايزيغ عنها الا من كان من الهالكين • فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين • صلاة دائمة بدوام السموات والارضين • مقيمة عليهم أبداً لاتروم انتقالا عنهم ولا تحويلا

(أما بعد) فان الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لماله فى ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن معرفتها والالسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود اليها على أحسن أحواله فأراد سبحانه ان يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم اليها فى الدار الآخرة فان الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا فى دار النعيم لم يعرفوا قدرها * وأيضافانه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فاهبطهم الى الارض وعرضهم بذلك لافضل الثواب الذى لم يكن لينال بدون الامر والنهي * وأيضا فانه سبحانه أراد ان يتخذ منهم أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه تخلى بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه مالم يكن لينال بدون ذلك أصلا فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا الا على الوجه الذى قدره وقضاه من إهباطه الى الارض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها * وأيضا فانه سبحانه له الاسماء الحسنى فمن أسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث الصبور ولابد من ظهور آثار هذه الاسماء • فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته داراً يظهر عليهم فيها أثر اسمائه الحسنى فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز

من يشاء ويذل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطي ويمنع ويبسط الى غيرذلك من ظهور اثر أسمائه وصفاته * وأيضا فانه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذى يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارا تجرى عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم الى دار يتم عليهم فيها ذلك * وأيضافانه سبحانه أنزلهم الى دار يكون ايمانهم فيها بالغيب والايمان بالغيب هو الايمان النافع وأما الايمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا الا ايمانها فى الدنيا فلو خلقوا فى دار النعيم لم ينالوا درجة الايمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم فى دار النعيم لذة وكرامة غير هذه * وأيضافان الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض والارض فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والكريم واللئيم فعلم سبحانه أن فى ظهره من لا يصلح لمساكنته فى داره فأنزله الى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته فى داره وجعل الخبيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء • قال الله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون) فلما علم سبحانه أن فى ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التى هم لها أهل حكمة بالغة ومشيئة نافذة ذلك تقدير العزيز العليم * وأيضا فانه سبحانه لما قال للملائكة (انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أجابهم بقوله (انى أعلم مالا تعلمون) ثم أظهر سبحانه علمه لعباده وللملائكته بما جعله فى الارض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب اليه ويبذل نفسه فى محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا الىّ ويترك شهواته ابتغاء مرضاتى ويبذل دمه ونفسه فى محبتي وأخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدى آناء الليل وأطراف النهار ويعبدنى مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو إذ تعبدونى أنتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتريكم ولا عدو أسلطه عليكم بل عبادتكم لى بمنزلة النفس لاحدهم * وأيضا فانى أريد ان أظهر ماخفى عليكم من شأن عدوى ومحاربته لى وتكبره عن أمرى وسعيه فى خلاف مرضاتى وهذا وهذا كانا كامنين مستترين فى أبى البشر وأبى الجن فأنزلهم دارا أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفردا بعلمه لا يعلمه سواه وظهرت حكمته وتم أمره وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون * وأيضا فانه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون

فى سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التى ينالون بها أعلى الكرامات من محبتـه فكان إنزالهم الى الارض من أعظم النعم عليهم (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فمحبتهم له هى غاية كمالهم ونهاية شرفهـم ولم يمكن تحقيق هـذه المرتبة السنية الا بموافقـة رضاه واتباع أمره وترك ارادات النفس وشهواتها التى يكرهها محبوبهم فأنزلهـم داراً امرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيـه فنالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته وهو البر الرحيم * وأيضاً فانه سبحانه لما خلق خلقه أطواراً وأصنافا وسبق فى حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثـير من مخلوقاته جعـل عبوديته أفضـل درجاتهم أعنى العبودية الاختيارية التى يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطراراً * وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل الى النبى صلى الله عليه وسـلم يخيره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبداً نبيا فنظر الى جـبريل كالمستشير له فأشار اليـه أن تواضع فقال بل أن أكون عبداً نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته في اشرف مقاماته فى مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدى فقال فى مقام الأسراء (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) ولم يقل برسوله ولا نبيـه اشارة الى انه قام هـذا المقام الاعظم بكمال عبوديته لربه وقال فى مقام الدعوة (وانه لما قام عبـد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال فى مقام التحدى (وان كنتم فى ريب ممـا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفى الصحيحين فى حديث الشـفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح صلى الله عليه وسلم اذهبوا الى محمد عبدٌ غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر فدل ذلك على انه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له واذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته داراً ينالون فيها هـذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم اليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجـله فكان ذلك من تمـام نعمته عليهم واحسانه اليهم * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يعرّف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكراً وأعظم التذاذاً بما أعطاهم من النعيم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعدّ لهم من العـذاب وانواع الآلام وأشـهدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحهم وتتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بدّ فى ذلك من إنزالهم الى الأرض

وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن اذا رأى عدوه ومحبوبه الذي هو أحب الأشياء اليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سروراً وعظمت لذته وكملت نعمته * وأيضاً فانه سبحانه انما خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ومعلوم ان كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء انما يحصل في دار المحنة والابتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف * وأيضاً فانه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعي الشهوة والفتنة وداعي العقل والعلم فانه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعباده عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه ما يجني عواقب اجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذراً فيها وأشد هروباً وهذا كحال رجل سائر على طريق قد كمنت الأعداء في جنباته وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فاذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد في سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له ما يدفعه ولولا أنه ذاق ألم اغارة عدوه عليه وتبيته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا أهبته ٠٠ فان قيل كان من الممكن ان لا يسلط عليهم العدو ٠٠ قيل قد تقدم انه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق اليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقاً آخر غير بني آدم فان بني آدم قد ركبوا على العقل والشهوة * وأيضا فانه لما كانت محبة الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة انما تحقق بايثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته فبهذا تحقق المحبة ويعلم ثبوتها في القلب اقتضت حكمته سبحانه اخراجهم الى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التي بايثار الحق عليها والاعراض عنها يتحقق حبهم له وايثارهم اياه على غيره ولذلك بتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعي الغي والضلال ومجاهدتها يقوى سلطان المحبة وتثبت شجرتها في القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فان المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هي المحبة الحقيقية النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من

محبوبه فليست محبة صادقة ولا ثبات لها عنـد المعارضات والموانع فان المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ودك لامر ولّى عند انقضائه وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبده على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء * وأيضا فان الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لانهاية بعده وكان ظهور لاسباب التي يحمد عليها من مقتضى كونه محموداً وهى من لوازم حمده تعالى وهى نوعان فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسبباتها ليترتب عليها كمال الحمـد الذى هو أهله فكما أنه سبحانه محمود على احسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا نبه سبحانه على هذا كثيراً كما فى سورة الشعراء حيث يذكر في آخر كل قصة من قصص الرسـل وأممهم (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) فأخـبر سبحانه ان ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الاشياء مواضعها اللائقـة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولاتباعهم ونقمته واهلاكه لاعدائهم الا فى محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة ومصير كل منهم الى ديارهم التى لايليق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) * وأيضا فانه سبحانه اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وابينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف انه قد حبي بالانعام وخص دون غيره بالاكرام ولو تساووا جميعهم فى النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لايرى أحداً الا فى مثل حاله ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجا له من العبد أن يرى غيره فى ضد حاله الذى هو عليها من الكمال والفلاح * وفى الأثر المشهور ان الله سبحانه لما أرى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سوّيت بين عبادك قال اني أحب أن أشكر فاقتضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الاسباب التى يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد * وأيضا فانه سبحانه لاشيء أحب اليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه اليه * ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد انما يتم باسبابه التى تتوقف عليها وحصول هذه الاسباب فى دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين * وأيضا فانه سبحانه له الخلق والأمر والأمر هو شرعه وأمره ودينـه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست

الجنة دار تكليف تجرى عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وانما هي دار نعيم ولذة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته الى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الامر ولوازمه فان الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وقد أرشد سبحانه الى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى) أي مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وان ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الانكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سدى معطلا أيضاً مستقر في الفطر فكيف ينسب الى الرب ماقبحه مستقر في فطركم وعقولكم وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم) نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته اليه ونظائر هذا في القرآن كثيرة *وأيضاً فانه سبحانه يحب من عباده أموراً يتوقف حصولها منهم على حصول الاسباب المقتضية لها ولا تحصل الا في دار الابتلاء والامتحان فانه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصول الملزوم بدون لازمه والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب اليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة اذا وجدها كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع الى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر سر هذا الفرح بتوبة العبد والمقصود ان هذا الفرح المذكور انما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لازمان لهذا الفرح ولا يوجد الملزوم بدون لازمه واذا كان هذا الفرح المذكور انما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله في دار النعيم التي لاذنب فيها ولا مخالفة ممتنع ولما كان هذا الفرح أحب الى الرب سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الاسباب المفضية اليه ليترتب عليها المسبب الذي هو محبوب له *وأيضا فان الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء

وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤه وصفاته فان الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وانما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم • وعلى هذا حمل غير واحد ماجاء من أثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) • قالوا وأما نفي دخولها بالأعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا فالمراد به نفي أصل الدخول • وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول فالمقتضية هى باء السببية الدالة على أن الاعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الاسباب لمسبباتها والباء التى نفي بها الدخول هى باء المعاوضة والمقابلة التى في نحو قولهم اشتريت هذا بهذا فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وانه لولا تغمد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وان تناهي موجباً بمجرده لدخول الجنة ولا عوضاً لها فان أعماله وان وقعت منه على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه فهي لاتقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ولا تعادلها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها فى مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لكانت رحمته خيراً له من عمله كما فى السنن من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم والمقصود ان حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وانزالهم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا انزالهم الى دار العمل والمجاهدة * وأيضاً فانه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الارض كما أخبر سبحانه فى كتابه بقوله (انى جاعل فى الارض خليفة) وقوله (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) وقال (ويستخلفكم فى الارض) فأراد سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف الي توريثه جنة الخلد وعلم سبحانه بسابق علمه انه

لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس فان النفس مولعة بحب العاجلة وايثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل • وكونه خلق عجولا فعلم سبحانه مافي طبيعته من الضعف والخور • فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذى أعد له عياناً فيكون اليه أشوق وعايه أحرص وله أشد طلباً فان محبة الشيء وطلبه والشوق اليه من لوازم تصوره فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكد يصبر عنه وهذا لان النفس ذوّاقة توّاقة فاذا ذاقت تاقت • ولهذا اذا ذاق العبـد طعم حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئاً أبداً • وفى الصحيح من حديث أبي هريرة رضى الله عنه المرفوع ان الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول مايسألني عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لورأوها فيقولون لورأوها لكانوا أشـد لها طلبا فاقتضت حكمته ان أراها أباهم وأسكنه اياها ثم قص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع اليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كانه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الاول فهو دائم الحنين الى وطنه ولايقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الارض يألفـه الفـتى * وحنينـه أبداً لأول مـنزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى

وحيّ على جنات عدن فانها * منازلك الاولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى * نعود الي أوطاننا ونسـلم

فسرّ هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق فى حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لاتنال الا بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضية اليها ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلها فلا تنال الا بأسباب نصبها مفضية اليها واذا كانت الغايات التي هي دون ذلك لاتنال الا بأسبابها مع ضعفها وانقطاعها كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه فى الدنيا فكيف يتوهم حصول أعلى الغايات وأشرف المقامات بلاسبب يفضى اليه ولم يكن تحصيل تلك الأسباب الا فى دار المجاهدة والحرث فكان اسكان آدم وذريتـه هذه الدار التى ينالون فيها الاسباب الموصلة الى أعلى المقامات من اتمام انعامه عليهم وسرها أيضا أنه سبحانه جعـل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كمالهم فأنزلهم دارا أخرج منهم الانبياء وبعث منهم الرسـل واتخذ منهم من اتخذ خليلا وكلم موسى تكليما واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيداً وخاصة يحبهم

ويحبونه وكان انزالهم الى الارض من تمام الانعام والاحسان * وأيضاً انه أظهر لخلقه من آثار أسمائه وجريان أحكامها عليهم ما اقتضته حكمته ورحمته وعلمه . وسرها أيضاً أنه تعرف الى خلقه بافعاله وأسمائه وصفاته وماأحدثه في أوليائه وأعدائه من كرامته وانعامه على الاولياء واهانته واشقائه للاعداء ومن اجابته دعواتهم وقضائه حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلائهم وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء وتقليبهم في أنواع الخير والشر فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكهم . وأنه الله الذى لا إله الا هو وأنه العليم الحكيم السميع البصير وأنه الاله الحق وكل ماسواه باطل فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الارض وتنوعت وقامت من كل جانب فعرفه الموفقون من عباده وأقروا بتوحيده ايماناً واذعاناً وجحده المخذولون من خليقته وأشركوا به ظلماً وكفراناً فهلك من هلك عن بينة وحيي من حي عن بينة والله سميع عليم . ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض ورأى آثارها . علم تمام حكمته في اسكان آدم وذريته في هذه الدار الى أجل معلوم فالله سبحانه انما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدما لهم . ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم داراً يتزودون منها الى الدار التي خلقت لهم وانهم لاينالونها الا بالزاد كما قال تعالى في هذه الدار (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم) فهذا شأن الانتقال في الدنيا من بلد الي بلد فكيف الانتقال من الدنيا الى دار القرار . وقال تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فباع المغبونون منازلهم منها بأبخس الحظ وأنقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمناً للجنة فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى (ان الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فهو سبحانه ما أخرج آدم منها الا وهو يريد أن يعيده اليها أكمل اعادة كما قيل على لسان القدر يا آدم لاتجزع من قولي لك اخرج منها فلك خلقتها فاني أنا الغنى عنها وعن كل شئ وأنا الجواد الكريم وأنا لا أتمتع فيها فانى أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن انزل الى دار البذر فاذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيداً فحينئذ فتعال فاستوفه أحوج ما أنت اليه الحبة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة فاني أعلم بمصلحتك منك وأنا العلى الحكيم (فان قيل ماذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها انما يتم اذا قيل ان الجنة التي أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التي أعدت للمتقين والمؤمنين يوم القيامة وحينئذ يظهر سر اهباطه واخراجه منها) ولكن قد قالت طائفة منهم أبومسلم ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهما انها انما كانت جنة في الارض في موضع عال منها لأنها جنة المأوي التى أعدها

الله لعباده المؤمنين يوم القيامة • وذكر منذر بن سعيد هذا القول فى تفسيره عن جماعة فقال وأما قوله لآدم اسكن أنت وزجك الجنة فقالت طائفة أسكن الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة وقال آخرون هي جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه اياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لان الجنة التى تدخل بعد القيامة هي من حيز الآخرة وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقد وصفها الله تعالى لنا فى كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به *قالوا وجدنا الله تبارك وتعالي وصف الجنة التى أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ووصفها بانها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ووصفها بانها دار جزاء ولم يقل انها دار ابتلاء وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بانها ليس فيها حزن وان الداخلين اليها يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار السلام ولم يسلم فيها آدم من الآفات التى تكون فى الدنيا وسماها دار القرار ولم يستقر فيها آدم وقال فيمن يدخلها وماهم منها بمخرجين وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال لا يمسهم فيها نصب وقد ندّ آدم فيها هاربا فاراً عند أصابته المعصية وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب بعينه الذي نفاه الله عنها وأخبر أنه لايسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ماهو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لايسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمعه فيها ابليس الكذب وغره وقاسمه عليه أيضا بعد أن أسمعه اياه • وقد شرب آدم من شرابها الذى سماه فى كتابه شرابا طهوراً أي مطهراً من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يطهر من تلك الآفات • وسماها الله تعالى مقعد صدق وقد كذب ابليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون لم يكن فيه استحالة قط ولاتبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة في أعلى عليين والله تعالي انما قال انى جاعل في الارض خليفة ولم يقل انى جاعله فى جنة المأوى فقالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء والملائكة أتقى لله من أن تقول مالا تعلم وهم القائلون لاعلم لنا الا ماعلمتنا • وفى هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون في الارض والا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق (لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون) والملائكة لاتقول ولا تعمل الا بما تؤمر به لاغير • قال الله تعالى (ويفعلون مايؤمرون) والله تعالى أخبرنا أن ابليس قال لآدم (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى) فان كان قد أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لايبلى فكيف لم يرد

عليه نصيحته ويكذبه في قوله فيقول وكيف تدلني على شئ أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب في وجهه ويسبه لان ابليس لئن كان يكون بهذا الكلام مغويا له انما كان يكون زاريا عليه لانه انما وعده على معصية ربه بما كان فيه لازائدا عليه • ومثل هذا لايخاطب به الا المجانين الذين لا يعقلون لان العوض الذي وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لايبلى ولم يخبر الله آدم اذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن الي قول ابليس ولا قبل نصيحته ولكنه لما كان في غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه في دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا لان من شك في خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ماأمره الله به وهو معتقد للتصديق بخبر ربه فهو عاص • وانما سمى الله آدم عاصياً ولم يسمه كافراً • قالوا فان كان آدم أسكن جنة الخلد وهي دار القدس التى لايدخلها الا طاهر مقدس فكيف توصل اليها ابليس الرجس النجس الملعون المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم وابليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولايدخلها فاسق البتة انما هي دار المتقين وابليس غير تقي فبعد أن قيل له (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) انفسح له أن يرقى الي جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والابعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالي (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فان كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى انزل القرآن بلسانها ماالتكبر • ولعل من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول ان ابليس لم يصل اليها ولكن وسوسته وصلت • فهذا قول يشنه قائله ويشنا كل معتقده وقول الله تعالي حكم بيننا وبينه وقوله تعالي وقاسمهما يرد ما قال لأن المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة ومشافهة ولا تكون الا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا أحدهما ومما يدل على ان وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالي (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى) فاخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه انما وسوس اليه مخاطبة لأنه أوقع ذلك في نفسه بلا مقاولة فمن ادعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتاً قال رؤبة

* وسوس يدعو مخلصا رب الفلق *

وقال الاعشى

تسمع للحلى وسواسا اذا انصرفت * كما استعان بريح عشرق زَجِلُ

قالوا وفى قول ابليس لهما مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة

* ولما كان آدم خارجاً من الجنة وغيرساكن فيها قال الله (ألم انهكما عن تلكما الشجرة) ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال له ابليس لان آدم لم يكن حينئذ فى الجنة ولا مشاهداً للشجرة مع قوله عز وجل (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فقد أخبر سبحانه خبراً محكما غير مشتبه انه لا يصعد اليه الا كلم طيب وعمل صالح وهذا مما قدمنا ذكره أنه لا يلج المقدس المطهر الا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة ابليس مقدسة أو طاهرة أوخيراً بل هى شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل اليه لانها خبيثة غير طيبة كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة ابليس ولا ولجت القدس قال تعالى (كلا ان كتاب الفجار لفى سجين) * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان آدم نام فى جنته وجنة الخلد لا نوم فيها باجماع من المسلمين لان النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار السلام مسلمة من تقلب الاحوال والنائم ميت أو كالميت قالوا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لام حارثة لما قالت له يا رسول الله ان حارثة قتل معك فان كان صار الى الجنة صبرت واحتسبت وان كان صار الى ماسوى ذلك رأيت ماأفعل فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جنة واحدة هي انما هي جنان كثيرة فاخبر صلى الله عليه وسلم ان لله جنات كثيرة فلعل آدم اسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد قالوا وقد جاء فى بعض الاخبار ان جنة آدم كانت بأرض الهند قالوا وهذا وان كان لا يصححه رواة الاخبار ونقلة الآثار فالذى تقبله الالباب ويشهد له ظاهر الكتاب ان جنة آدم ليست جنة الخلد ولا دار البقاء وكيف يجوز ان يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة اني جاعل فى الارض خليفة وكيف أخبر الملائكة أنه يريد أن يجعل فى الارض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ودار الخلود لا يدخلها الا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالاسماء التى تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لاخصوص فيها فاذاقيل للجنة دار الخلد لم يجز أن ينقص مسمى هذا الاسم بحال فهذا بعض ماأحتج به القائلون بهذا المذهب وعلى هذا فاسكان آدم وذريته فى هذه الجنة لا ينافى كونهم في دار الابتلاء والامتحان وحينئذ كانت تلك الوجوه والفوائد التي ذكرتموها ممكنة الحصول فى الجنة (فالجواب) أن يقال هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التى ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولاقول من قال انها جنة الخلد التي وعدها الله المتقين وما احتجوا به ومانقضوا به حجج من قال انها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين

وما احتجوا به وما اجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وابطال الآخر إذ ليس غرضنا ذلك وانما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاخراج آدم من الجنة واسكانه في الارض في دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله سبحانه تأبى ادخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذى أخرج منها به وانه أي فائدة فى ذلك والرد على من أبطل أن يكون له فى ذلك حكمة وانما هو صادر عن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصلا على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق (١) لايحصل غرضاً ولا يزيل مرضاً فسلكنا هذا السبيل ليكون قولهم مردوداً على كل قول من أقوال الامة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولاقوة الابالله فنقول أماماذكرتموه من كون الجنة التي أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وانما هي جنة غيرها فهذا مماقد اختلف فيه الناس والاشهر عند الخاصة والعامة الذى لايخطر بقلوبهم سواه انها جنة الخلد التى أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الاشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة وأبو مالك عن ربعي بن حراش عن حذيفة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الله عز وجل الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون ياأبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أبيكم آدم وذكر الحديث قالوا فهذا يدل على ان الجنة التى أخرج منها آدم هي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها لهم قالوا ويدل عليه أن الله سبحانه (قال يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة) الى قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) عقيب قوله اهبطوا فدل على انهم لم يكونوا أوّلا فى الارض وأيضا فانه سبحانه وصف الجنة التى أسكنها آدم بصفات لا تكون فى الجنة الدنيوية فقال تعالى (إن لك الا تجوع فيها ولاتعرى وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحي) وهذا لا يكون في الدنيا أصلا ولو كان الرجل فى أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له الجوع والظمأ والتعرى والضحي للشمس وأيضاً فانها لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس فى قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فان آدم كان يعلم ان الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى وأيضاً فان قصة آدم فى البقرة ظاهرة جداً فى أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فانه سبحانه قال (وإذ

(١) هكذا فى الاصول ويظهر أن يكون كنى به عن اللسان اه مصححه

قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) • فهذا اهباط آدم وحواء وابليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع • وقيل انه خطاب لهم وللحية وهذا يحتاج الى نقل ثابت إذ لا ذكر للحية فى شئ من قصة آدم وابليس • وقيل خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) • وقيل لآدم وحواء وذريتهما • وهذه الاقوال ضعيفة غير الاول لانها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت ان ابليس داخل فى هذا الخطاب وانه من المهبطين من الجنة • ثم قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الاهباط الثاني لا بد أن يكون غير الاول وهو اهباطه من السماء الى الارض وحينئذ فتكون الجنة التى اهبطوا منها أولا فوق السماء وهي جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الزمخشري الى أن قوله اهبطوا منها جميعاً خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما • قال والدليل عليه قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى) وقال ويدل على ذلك قوله (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وما هو الا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض • وهذا الذى اختاره أضعف الاقوال فى الآية فان العداوة التى ذكرها الله انما هى بين آدم وابليس وذرياتهما كما قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) • وأما آدم وزوجه فان الله سبحانه أخبر فى كتابه انه خلقها منه ليسكن اليها وقال سبحانه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وابليس وذرياتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير اليهم بلفظ الجمع • وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وابليس فى قولهم فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وابليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع انه وجه الكلام • فان قيل فما تصنعون بقوله فى سورة طه • (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) وهذا خطاب لآدم

وحواء • وقد أخبر بعــداوة بعضهم بعضا قيل اما ان يكون الضــمير في قوله اهبطا راجعاً الى آدم وزوجه أو يكون راجعاً الى آدم وابليس ولم يذكر الزوجة لانها تبع له وعلى الثاني فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما آدم وابليس وعلى الاول تكون الآية قد اشتملت على أمرين •أحدهما أمره لآدم وزوجه بالهبوط • والثاني جعله العداوة بين آدم وزوجه وابليس ولا بد أن يكون ابليس داخلا في حكم هـذه العداوة قطعاً كما قال تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك ، وقال لذريته ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية • وأما ذكر الاهباط فتارة يأتي بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية وتارة يأتي بلفظ الافراد لابليس وحــده • كقوله تعالى في سورة الاعراف (قال مامنعك ان لاتسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منهـا فما يكون لك أن تتكبر فيها) فهذا الاهباط لابليس وحده والضمير في قوله منها قيل انه عائد الى الجنة وقيل عائد الى السماء وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجه وابليس إذ مدار القصة عليهم وحيث أتى بلفظ التثنية فاما ان يكون لآدم وزوجه اذ هما اللذان باشرا الاكل من الشجرة وأقدما على المعصية • واما أن يكون لآدم وابليس اذ هما أبوا الثقلين فــذكر حالهما وما آل اليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لاولادهما • والقولان محكيان في ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لابليس وحده• وأيضاً فالذي يوضح ان الضمير في قوله اهبطا منها جميعاً لآدم وابليس ان الله سبحانه لمــا ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً) وهــذا يدل على ان المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجــة تبعاً وهذا لان المقصود اخبار الله تعالى لعباده المكلفين من الجن والانس بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الامر لئلا يقتدوا بهما في ذلك فذكر أبوي الثقلين أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الانس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخــبر انه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الاكلة فعلم ان هذا اقتضاه حكم الزوجية وانها صارت الى ماصار اليه آدم فكان تجريد العناية الى ذكر الابوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها الى ذكر أبي الانس وأمهم والله أعــلم وبالجملة فقوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) ظاهر في الجمع فــلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا •قالوا وأما قولكم انه كيف وسوس له بعد اهباطه منها ومحال أن يصعد اليها بعد قوله تعالى اهبط •فجوابه من وجوه •أحدها انه أخرج

منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها داراً فمن أين لكم انه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضاً كما يدخل الشرط دار من أمروا بابتلائه ومحنته وان لم يكونوا أهلا لسكنى تلك الدار * الثاني انه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما * الثالث انه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يلج الجنة * الرابع انه قد روى انه أراد الدخول عليهما فمنعته الخزنة فدخل في فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك *قالوا ومما يدل على انها جنة الخلد بعينها أنها جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها الا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علماً عليها بالغلبة وان كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذي الثمار والفواكه وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرفا بالالف واللام انصرف الى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين *وأما ان أريد به جنة غيرها فانها تجيء منكرة كقوله (جنتين من أعناب) أو مقيدة بالاضافة كقوله (ولولا اذ دخلت جنتك) أو مقيدة من السياق بما يدل على انها جنة في الارض كقوله (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) الآيات فهذا السياق والتقييد يدل على انها بستان في الارض *قالوا وأيضاً فانه قد اتفق أهل السنة والجماعة على ان الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالي لايدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالي لايدخلني الا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابي أعذب بك من أشاء الحديث وفي السنن عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل الى الجنة فقال اذهب فانظر اليها والى ما أعددت لاهلها قال فذهب فنظر اليها والى ماأعد الله لاهلها الحديث وفى الصحيحين في حديث الاسراء ثم رفعت لي سدرة المنتهى فاذا ورقها مثل آذان الفيلة واذا نبقها مثل قلال هجر واذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ماهذا ياجبريل قال اما النهران الظاهران فالنيل والفرات

وأما الباطنان فنهران في الجنة • وفيه أيضا ثم أدخلت الجنة فاذا جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك وفي صحيح البخارى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا اسير في الجنة اذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قال قلت ماهذا ياجبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر • وفى صحيح مسلم في حديث صلاة الكسوف ان النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتقدم ويتأخر في الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال انه عرضت لي الجنة والنار فقربت مني الجنة حتى لو تناولت منها قطفاً لأخذته فلو أخذته لاكلتم منه مابقيت الدنيا •وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود في قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً فقالوا أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث •وفى الصحيح من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ عنا اخواننا أنا فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله انا أبلغهم عنكم فانزل الله عز وجل (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله) الآية • وفي الموطأ من حديث كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انما نسمة المؤمن طائر يعلق في الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه • وفي البخارى ان ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ان له مرضعاً في الجنة • وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء • والآثار فى هذا الباب أكثر من ان تذكر وأما القول بان الجنة والنار لم تخلقا بعد • فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن قال بقولهم وهم الذين يقولون ان الجنة التي أهبط منها آدم انما كانت جنة بشرقى الارض وهذه الاحاديث وأمثالها ترد قولهم • قالوا وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التي ذكرتموها في الجنة وانها منتفية في الجنة التى أسكنها آدم من اللغو والكذب والنصب والعرى وغير ذلك فهذا كله حق لاننكره نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا انما هو اذا دخلها المؤمنون يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام وهذا لاينفي أن يكون فيها

بين آدم وابليس ماحكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين اليها الى ما أخبر الله عز وجل به فلا تنافي بين الأمرين • قالوا وأما قولكم ان الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه آدم فيها بالنهي عن الشجرة•فجوابه من وجهين *أحدهما أنه انما يمتنع ان تكون دار تكايف اذا دخلها المؤمنون يوم القيامة فحينئذ ينقطع التكايف وأما امتناع وقوع التكليف فيها فى دار الدنيا فلا دليل عليه • الثانى ان التكايف فيها لم يكن بالاعمال التي يكلف بها الناس فى الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وانما كان حجرا عليه في شجرة من جملة أشجارها وهذا لايمتنع وقوعه فى جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فان أردتم بان الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها فى وقت من الاوقات فلا دليل لكم عايه وان أردتم ان غالب التكاليف التي تكون في الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لايدل على مطلوبكم•قالوا وهذا كما انه موجب الادلة وقول سلف الامة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يعرج عليه ولا يلتفت اليه « قال » الاولون الجواب عما ذكرتم من وجهين مجمل ومفصل • اما المجمل فانكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير اليه لامن قرآن ولامن سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعين لا مسندا ولا مقطوعا •ونحن نوجدكم من قال بقولنا • هذا أحد أئمة الاسلام سفيان بن عيينة قال في قوله عز وجل (ان لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى) قال يعنى فى الارض وهذا عبد الله ابن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد ان ذكر خلق الله لآدم وزوجه ان الله سبحانه أخرجه من مشرق جنة عدن الى الارض التي منها أخذ وهذا أبيّ قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يابنى آدم قالوا ان أبانا اشتهى قطفاً من قطف الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا اليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم فى موتاكم •وهذا أبو صالح قد نقل عن ابن عباس فى قوله اهبطوا منها قال هو كما يقال هبط فلان فى أرض كذا وكذا •وهذا وهب بن منبه يذكر ان آدم خلق فى الارض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وانه كان بعدن وان سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذى كان فى وسط الجنة وهو الذى كان يسقيها • وهذا منذر بن سعيد البلوطي اختاره فى تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه فى غير

عن أبي حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله فى هذه المسألة • وهذا أبو مسلم الاصفهاني صاحب التفسير وغيره أحد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه بما هو معروف فى كتابه • وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية ذكر القولين فى تفسيره فى قصة آدم فى البقرة • وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين فى كتاب الملل والنحل له • فقال وكان المنذر بن سعيد القاضي يذهب الى ان الجنة والنار مخلوقتان الا انه كان يقول انها ليست هي التي كان فيها آدم وامرأته وممن حكى القولين أيضاً أبو عيسى الرماني فى تفسيره واختار انها جنة الخلد • ثم قال والمذهب الذى اخترناه قول الحسن وعمرو بن واصل وأكثر أصحابنا وهو قول أبي على وشيخنا أبى بكر وعليه أهل التفسير وممن ذكر القولين أبو القاسم الراغب فى تفسيره فقال واختلف فى الجنة التي أسكنها آدم فقال بعض المتكلمين كان بستانا جعله الله له امتحانا ولم يكن جنة المأوى ثم قال ومن قال لم يكن جنة المأوى لانه لاتكليف فى الجنة وآدم كان مكلفا • قال وقد قيل فى جوابه انها لاتكون دار التكليف فى الآخرة ولايمتنع ان تكون فى وقت دار تكليف دون وقت كما ان الانسان يكون فى وقت مكلفا دون وقت • وممن ذكر الخلاف فى المسئلة أبو عبد الله بن الخطيب الرازي فى تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثاً وهو التوقف قال لامكان الجميع وعدم الوصول الى القطع كما سيأتى حكاية كلامه ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو انها لم تكن جنة الخلد انما كانت حيث شاء الله من الارض وقالوا كانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان ابليس فيها ثم أخرج قال ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها • وممن ذكر القولين أيضاً أبو الحسن الماوردي فقال فى تفسيره واختلف فى الجنة التى أسكناها على قولين • أحدهما انها جنة الخلد • الثانى انها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين • أحدهما انها فى السماء لانه أهبطهما منها وهذا قول الحسن • الثانى انها فى الارض لانه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيي وكان ذلك بعد ان أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه وقال ابن الخطيب في تفسيره اختلفوا فى ان الجنة المذكورة في هذه الآية هل كانت في الارض أو في السماء وبتقدير انها كانت في السماء فهل هي الجنة التى هي دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الاصبهانى هذه الجنة فى الارض وحملا الاهباط على الانتقال من بقعة الى بقعة كما في قوله تعالى اهبطوا مصرا • القول الثانى وهو قول الجبائى ان تلك

كانت في السماء السابعة قال والدليل عليه قوله اهبطوا ثم ان الاهباط الاول كان من السماء السابعة الى السماء الاولى والاهباط الثانى كان من السماء الى الارض • والقول الثالث وهو قول جمهور أصحابنا ان هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه هو ان الالف واللام في لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلابد من صرفها الى المعهود السابق والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها قال• والقول الرابع ان الكل ممكن والادلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع •قالوا ونحن لا نقلد هؤلاء ولا نعتمد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه كفاية * وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على ما ذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق * أما استدلالكم بحديث أبي هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم منها الا خطيئة أبيكم فهذا الحديث لا يدل على ان الجنة التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أخرج منها بعينها فان الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) وقال تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) وقال تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة) وقال تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) الى قوله (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لاقوة الا بالله) فان الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من آدم ان يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بانه لا يحسن منه ان يقدم على ذلك وقد أخرج نفسه وذريته من الجنة التى أسكنه الله اياها بذنبه وخطيئته هذا الذي دل عليه الحديث • وأما كون الجنة التي أخرج منها هى بعينها التي طلبوا منه ان يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بشئ من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير الى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مدارنا الا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه• قالوا وأما استدلالكم بالهبوط وانه نزول من علو الى سفل •فجوابه من وجهين • أحدهما ان الهبوط قد استنقل في النقلة من أرض الى أرض كما يقال هبط فلان بلد كذا وكذا وقال تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) وهذا كثير في نظم العرب ونثرها قال

إن تهبطين بلاد قو * م يرتعون من الطلاح

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا • الثاني أنا لا ننازعكم في ان الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون الجنة التى منها الهبوط فوق السموات فاذا كانت في أعلى الارض أما يصح أن يقال هبط منها كما يهبط الحجر من أعلى الجبل الي أسفله ونحوه • وأما قوله تعالى (ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) فهذا يدل على ان الارض التي أهبطوا اليها لهم فيها مستقر ومتاع الى حين ولا يدل على أنهم لم يكونوا في جنة عالية أعلى من الارض التي أهبطوا اليها تخالف الارض في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله سبحانه فاوت بين بقاع الارض أعظم تفاوت وهذا مشهود بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الارض بما لا يكون الا فيها ثم أهبطوا منها الى الارض التي هي محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا بعينه هو الجواب عن استدلالكم بقوله تعالي (إن لك الا تجوع فيها ولا تعرى) الي آخر ماذكرتموه مع ان هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فانه سبحانه انما قال ذلك عقيب قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) وقوله (ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى) هو صيغة وعد مرتبطة بما قبلها والمعني ان اجتنبت الشجرة التي نهيتك عنها ولم تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاقه لهذا الوعد • قال وأما قولكم انه لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب ابليس فى قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى الي آخره فدعوى لادليل عليها لأنه لادليل لكم على ان الله سبحانه كان قد أعلم آدم حين خلقه ان الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك فقول ابليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فان الخلد في لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم قيد مخلد وحبس مخلد وقد قال تعالى لثمود (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) وكذلك قوله (وملك لا يبلى) يراد به الملك الطويل الثابت • وأيضاً فلا وجه للاعتذار عن قول ابليس مع تحقق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه قد أخبر انه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرهما بان اطمعهما فى خلد الابد والملك الذى لايبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التى سكنها آدم هي جنة الخلد التى وعدها المتقون غير بين* ثم نقول لو كانت الجنة هي جنة الخلد التى لا نزول ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلم يكن لتلك الشجرة اختصاص من بين

سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من ابليس اذ قد علم أن الجنة دار الخلد • فان قلتم لعل آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بان هذه الشجرة وحدها هي شجرة الخلد • قلنا فاقنعوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في ذلك لان قوله كان خداعا وغرورا محضا على كل تقدير فانقلب دليلكم حجة عليكم وبالله التوفيق « قالوا » وأما قولكم ان قصة آدم فى البقرة ظاهرة جدا فى ان جنة آدم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم الى اثباته قولكم انه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولا بد ان يفيد الثاني غير ماأفاد الاول فيكون الهبوط الاول من الجنة والثانى من السماء فهذا فيه خلاف بين أهل التفسير فقالت طائفة هذا القول الذي ذكرتموه وقالت طائفة منهم النقاش وغيره ان الهبوط الثاني انما هو من الجنة الى السماء والهبوط الاول الى الارض وهو آخر الهبوطين فى الوقوع وان كان أولهما فى الذكر وقالت طائفة أتى به على جهة التغليظ والتأكيد كما تقول للرجل اخرج اخرج وهذه الاقوال ضعيفة • فاما القول الاول فيظهر ضعفه من وجوه • أحدها انه مجرد دعوى لادليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير اليه وما كان هذا سبيله لايحمل القرآن عليه • الثاني ان الله سبحانه قد أهبط ابليس لما امتنع من السجود لآدم اهباطا كونيا قدريا لاسبيل له الى التخلف عنه فقال تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) وقال في موضع آخر (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) وفي موضع آخر (اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) وسواء كان الضمير فى قوله منها راجعا الى السماء أو الى الجنة فهذا صريح في اهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد اليها بعد اهباط الله له • وهذا وان كان ممكنا فهو في غاية البعد عن حكمة الله ولا يقتضيه خبره فلا ينبغي أن يصار اليه • وأما الوجوه الاربعة التي ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهي مع أمر الله تعالى بالهبوط مطلقا وطرده ولعنه ودحوره لادليل عليها لامن اللفظ ولا من الخبر الذى يجب المصير اليه وما هي الا احتمالات مجردة وتقديرات لادليل عليها • الثالث ان سياق قصة اهباط الله تعالى لابليس ظاهرة في انه اهباط الى الارض من وجوه • أحدها انه سبحانه نبه على حكمة اهباطه بما قام به من التكبر المقتضي غاية ذله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو اهباطه من فوق السموات الى قرار الارض ولا تقتضي الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال

الملائكة الاكرمين • الثاني انه قال (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين) وكونه رجيما ملعونا ينفي أن يكون في السماء بين المقربين المطهرين • الثالث أنه قال (اخرج منها مذؤماً مدحوراً) وملكوت السموات لا يعلوه المذؤم المدحور أبداً • وأما القول الثاني فهو القول الاول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر في الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذي قبله • وأما القول الثالث وهو انه للتأكيد فان أريد التأكيد اللفظي المجرد فهذا لا يقع في القرآن وان أريد به انه مستلزم للتغليظ والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال اعيد الاهباط مرة ثانية لانه علق عليه حكما غير المعلق على الاهباط الاول فانه علق على الاول عداوة بعضهم بعضاً فقال (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) وهذه جملة حالية وهي اسمية بالضمير وحده عند الاكثرين • والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثاني حكمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعاً والثاني قوله (فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكأنه قيل اهبطوا بهذا الشرط مأخوذاً عليكم هذا العهد وهو انه مهما جاءكم مني هدى فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولا حزن يلحقه ففي الاهباط الاول إيذان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة وفي الاهباط الثاني روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداي ومصيره الى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالاهباط الاول وجبر من اتبع هداه بالاهباط الثاني على عادته سبحانه ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالاخراج من الجنة وجبره بالكلمات التي تلقاها منه فتاب عليه وهداه ومن تدبير حكمته سبحانه ولطفه وبره بعباده وأهل طاعته في كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويذله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بانواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وان ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبره ولطفه وهو أعلم بمصلحة عبده منه ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته باسماء ربه وصفاته لا يكاد يشعر بذلك ولا ينال رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه الا على جسر من الذلة والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل الى الوصول الى المحبوب الا بذلك كما قيل

تذلل لمن تهوى لتحظى بقربه * فكم عزة قد نالها المرء بالذل
اذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن * ذليلا له فاقرا السلام على الوصل

وقال اخر

اخضع وذل لمن تحب فليس فى * شرع الهوى أنف يشال ويقعد

وقال آخر

وما فرحت بالوصل نفس عزيزة * وما العز الا ذلها وانكسارها

• قالوا واذا علم ان ابليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت ان وسوسته له ولزوجه كانت في غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم • قالوا وأما قولكم ان الجنة انما جاءت معرفة باللام وهي تنصرف الى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلا ريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالي آدم لسكناها بقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه عنها معرفا لها بلام التعريف فانصرف الغرف بها الى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهي التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا مايدل على محلها وموضعها بنفى أو اثبات • وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلانها الجنة التى أخبرت بها الرسل لاممهم ووعدها الرحمن عباده بالغيب فحيث ذكرت انصرف الذهن اليها دون غيرها لانها قد صارت معلومة فى القلوب مستقرة فيها ولا ينصرف الذهن الى غيرها ولا يتوجه الخطاب الى سواها وقد جاءت الجنة فى القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان فى بقعة من الارض كقوله تعالى (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) فهذا لاينصرف الذهن فيها الى جنة الخلد ولا الى جنة آدم بحال • قالوا وأما قولكم انه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وانه لم ينازع فى ذلك الا بعض أهل البدع والضلال • واستدلالكم على وجود الجنة الآن فحق لا ننازعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ماذكرتم ولكن أي تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هي جنة آدم بعينها فكأنكم تزعمون أن كل من قال ان جنة آدم هي جنة فى الارض فلا بد له أن يقول ان الجنة والنار لم يخلقا بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فانه يقول ان جنة آدم هي فى الارض وكذلك بالعكس ان كل من قال ان جنة آدم فى الارض فيقول ان الجنة لم تخلق فاما الاول فلا ريب فيه وأما الثانى فوهم لاتلازم بينهما لافى المذهب ولا فى الدليل فأنتم نصبتم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على انكار قولهم ورده وابطاله ولكن لايلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح • قالوا وأما قولكم ان جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التى وجد بعضها من ابليس

عدو الله فهذا انما يكون بعد القيامة اذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق • فجوابه من وجهين • أحدهما أن ظاهر الخبر يقتضي نفيه مطلقا لقوله تعالى (لا لغو فيها ولا تأثيم) ولقوله تعالى (لا تسمع فيها لاغية) فهذا نفي عام لا يجوز تخصيصه الا بمخصص بين والله سبحانه قد حكم بأنها دار الخلد حكما مطلقاً فلا يدخلها الا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر • الثاني انما ذكرتم انما يصار اليه اذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم انها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير الى ماذكرتم فاما اذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الامة عليه فلا يسوغ مخالفة مادلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم • قالوا ومما يدل على أنها ليست جنة الخلد التي وعدها المتقون ان الله سبحانه لما خلق آدم أعلمه أن لعمره أجلا ينتهي اليه وانه لم يخلقه للبقاء • ويدل على هذا ماروا الترمذي في جامعه قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله يارب فقال له ربه يرحمك الله يا آدم اذهب الى أولئك الملائكة الى ملاء منهم جلوس فقل السلام عليكم قالوا وعليك السلام ثم رجع الى ربه فقال ان هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدى ربي يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته فقال أى رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فاذا كل انسان مكتوب عمره بين عينيه فاذا رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال يارب من هذا قال هذا ابنك داود وقد كتبت له عمراً أربعين سنة قال يارب زدفي عمره قال ذاك الذي كتبت له قال أى رب فاني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ما شاء الله ثم اهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت أليس قد كتبت لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم • قالوا فهذا صريح في أن آدم لم يكن مخلوقا في دار الخلد التي لا يموت من دخلها وانما خلق في دار الفناء التي جعل الله لها ولأهلها أجلا معلوما وفيها أسكن • فان قيل فاذا كان آدم قد علم أن له عمرا ينتهي اليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب ابليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعاً في الخلد • فالجواب ما تقدم من الوجهين اما أن يكون المراد

بالخلد المكث الطويل لا أبد الأبد أو يكون عدوه ابليس لما قاسمه وزوجه وغرهما وأطمعهما بدوامهما فى الجنة نسي ماقدر له من عمره • قالوا والمعول عليه فى ذلك قوله تعالى للملائكة (اني جاعل فى الارض خليفة) وهذا الخليفة هو آدم باتفاق الناس ولما تعجبت الملائكة من ذلك وقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذى هو جاعله فى الأرض ليس حاله كما توهموه من الفساد بل أعلمه من علمي مالا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بان علمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها و (قالوا سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم) وهذا يدل على أن هذا الخليفة الذى سبق به اخبار الرب تعالى لملائكته وأظهر تعالى فضله وشرفه وأعلمه بما لم تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول فى الارض لافوق السماء • فان قيل قوله تعالى اني جاعل فى الارض خليفة انما هو بمعنى سأجعله فى الارض فهي مآله ومصيره وهذا لاينافى أن يكون فى جنة الخلد فوق السماء أولا ثم يصير الي الارض للخلافة التى جعلها الله له واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال ولهذا انتصب عنه المفعول • فالجواب أن الله سبحانه أعلم ملائكته بانه يخلقه لخلافة الارض لالسكنى جنة الخلود وخبره الصدق وقوله الحق وقد علمت الملائكة أنه هو آدم فلوكان قد أسكنه دار الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوع المخبر ولم يحتاجوا الى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلمه المتضمن رد قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم انما سألوا هذا السؤال فى حق الخليفة المجعول فى الارض فأما من هو فى دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد فى الارض ولا كان اظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السماء رادا لتوهمهم وجوابا لسؤالهم بل الذى يحصل به جوابهم وضد ما توهموه اظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو فى محل خلافته التى خلق لها وتوهمت الملائكة انه لا يحصل منه هناك الاضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله وأما اسم الفاعل وهو جاعل وان كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا اخبار عما سيفعله الرب تعالى فى المستقبل من جعله الخليفة فى الارض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر فى انه من أول الامر جعله خليفة فى الارض وأما جعله فى السماء أولا ثم جعله خليفة فى الارض ثانياً وان كان مما لا ينافي الاستخلاف المذكور فهو مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضي ظاهره خلافه فلا يصار اليه الا بدليل يوجب المصير اليه وحوله ندندن • قالوا وأيضاً فمن المعلوم الذى لا يخالف فيه مسلم ان الله سبحانه خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الارض بلا ريب كما روى الترمذي فى جامعه من حديث عوف عن

قسامة بن زهير عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فجاء منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقد رواه الامام أحمد في مسنده من طرق عدة وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب وأخبر انه خلقه من سلالة من طين وأخبر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الذي له صلصلة مالم يطبخ فاذا طبخ فهو فخار • وقيل فيه هو المتغير الرائحة من قولهم صلّ اذا أنتن والحمأ الطين الاسود المتغير والمسنون قيل المصبوب من سننت الماء اذا صببته وقيل المنتن المسن من قولهم سننت الحجر على الحجر اذا حككته فاذا سال بينهما شيء فهو سنين ولا يكون الا منتنا وهذه كلها أطوار التراب الذي هو مبدؤه الاول كما أخبر عن خلق الذرية من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وهذه أحوال النطفة التي هي مبدأ الذرية ولم يخبر سبحانه انه رفعه من الارض الى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وانما أخبر عن اسجاد الملائكة له وعن ادخاله الجنة وما جرى له مع ابليس بعد خلقه فأخبر سبحانه بالامور الثلاثة في نسق واحد مرتبطا بعضها ببعض • قالوا فأين الدليل الدال على اصعاد مادته واصعاده بعد خلقه الى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه أصلا ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به • قالوا ومن المعلوم أن ما فوق السموات ليس بمكان للطين الارضي المتغير الرائحة الذي قد انتن من تغيره وانما محله هذا الارض التي هي محل المتغيرات والفاسدات وأما ما كان فوق الافلاك فلا يلحقه تغير ولا نتن ولا فساد ولا استحالة • قالوا وهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء • قالوا وقد قال تعالى (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) فأخبر سبحانه أن هذا العطاء في جنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك جنة الخلد • قالوا وأيضا فلا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم في الارض كما تقدم ولم يذكر في قصته أنه نقله الى السماء ولو كان تعالى قد نقله الى السماء لكان هذا أولى بالذكر لأنه من أعظم أنواع النعم عليه وأكبر أسباب تفضيله وتشريفه وأبلغ في بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته وأبلغ في بيان المقصود من عاقبة المعصية وهو الاهبط من السماء التي نقله اليها كما ذكر ذلك في حق ابليس حيث لم يجيء في القرآن ولا في السنة حرف واحد أنه نقله الى السماء ورفعه اليها بعد خلقه في الارض علم أن الجنة التي أدخلها لم تكن هي جنة الخلد التي فوق السموات • قالوا وأيضا فانه

سبحانه قد أخبر في كتابه انه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وأنكر على من زعم ذلك فدل على ان هذا مناف لحكمته ولو كانتا جنة آدم هي جنة الخلد لكانوا قد خلقوا في دار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقوله (أيحسب الانسان ان يترك سدى) قال الشافعي وغيره معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها • قالوا وأيضا فانه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) وجزاء للمتقين بقوله (ولنعم دار المتقين) ودار الثواب بقوله (ثوابا من عند الله) فلم يكن ليسكنها الا من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان • وبالجملة فحكمته تعالى اقتضت انها لا تنال الا بعد الابتلاء والامتحان والصبر والجهاد وانواع الطاعات واذا كان هذا مقتضى حكمته فانه سبحانه لا يفعل الا ما هو مطابق لها • قالوا فاذا جمع ما أخبر الله عز وجل به من انه خالقه من الارض وجعله خليفة في الارض وأن ابليس وسوس له في مكانه الذي أسكنه فيه بعد ان أهبط ابليس من السماء وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل في الارض خليفة وان دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم وأن من دخلها لا يخرج منها أبداً وان من دخلها ينعم لا يبؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن وأن الله سبحانه حرمها على الكافرين وعدو الله ابليس أكفر الكافرين فمحال أن يدخلها أصلا لا دخول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعيم لا دار ابتلاء وامتحان الى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخلد للجنة التي أسكنها آدم اذا جمع ذلك بعضه الى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصرة المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان • قال الآخرون بل الجنة التي أسكنها آدم عند سلف الامة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ومن قال انها كانت جنة في الارض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من اخوانهم المتكلمين المبتدعين فان هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة والكتاب يرد هذا القول وسلف الامة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط وان بعضهم لبعض عدو ثم قال (ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) وهذا يبين انهم لم يكونوا في الارض وانما اهبطوا

الى الارض فانهم لو كانوا فى الارض وانتقلوا منها الى أرض أخرى كما انتقل قوم موسى من أرض الى أرض كان مستقرهم ومتاعهم الى حين فى الارض قبل الهبوط كما هو بعده وهـذا باطل • قالوا وقد قال تعالى فى سورة الاعراف لما قال ابليس (أنا خـير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) يبين اختصاص الجنة التى فى السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الارض فان ابليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير فى قوله منها عائد الى معلوم وان كان غير مذكور فى اللفظ لان العلم به أغنى عن ذكره • قالوا وهذا بخـلاف قوله (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) فانه لم يذكر هنا ماهبطوا منـه وانما ذكر ما اهبطوا اليه بخلاف اهباط ابليس فانه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو الى سفل وبنو اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذى يهبطون اليه ومن هبط من جبل الى واد قيل له اهبط • قالوا وأيضاً فبنو اسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون والذى يسير ويرحل اذا جاء بلدة يقال نزل فيها لان من عادته أن يركب فى مسيره فاذا وصل نزل عن دوابه ويقال نزل العدو بأرض كذا ونزل القفل ونحوه ولفظ النزول كلفظ الهبوط فلا يستعمل نزل وهبط الا اذا كان من علو الى سفل وقال تعالى عقب قوله اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فهذا دليل على انهم لم يكونوا قبل ذلك فى مكان فيـه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح فى انهم انما صاروا اليه بعد الاهباط • قالوا ولو لم يكن فى هذه الا قصة آدم وموسى لكانت كافية فان موسى صلى الله عليه وسلم انما لام آدم عليه السلام لما حصل له ولذريته من الخروج من الجنة من النكد والمشقة فلو كانت بستاناً فى الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض عنه وموسى أعظم قدراً من أن يلومه على أن اخرج نفسه وذريته من بستان فى الأرض • قالوا وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب اليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول وهل أخرجكم منها الا خطيئة أبيكم فان ظهور هذا فى كونها جنة الخلد وانه اعتذر لهم بانه لا يحسن منه أن يستفتحها وقد أخرج منها بخطيئته من أظهر الأدلة • قال الأولون أما قولكم ان من قال انها جنة فى الأرض فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من اخوانهم فقد أوجدنا كم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء • ومشاركة أهل الباطل للمحق فى المسئلة لايدل على بطلانها ولا تكون اضافتها لهم موجبة لبطلانها مما يختص بها فان أردتم انه لم يقل بذلك الا هؤلاء فليس كذلك وان أردتم أن هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يفد

شيئاً • قالوا وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هـذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعـدهم من أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم • قالوا ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خـبر يصح موصولا ولا شاذاً ولا مشهوراً أن النبي صلى الله عليه وسـلم قال ان الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التى هى دار المتقين يوم المعاد • قالوا وهذا القاضي منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف أنها ليست جنة الخلد • فقال ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا ان جنة آدم التى خلقها الله ليست جنـة الخلد وليسوا عند أحـد من العالمين من الشاذين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهـم • وقـد ذكرنا قول ابن عيينة وقـد ذكر ابن مزين فى تفسيره • قال سألت ابن نافع عن الجنة أمخلوقة فقال السكوت عن هذا أفضل • قالوا فلو كان عند ابن نافع أن الجنـة التى أسكنها آدم هى جنة الخلد لم يشك انها مخلوقة ولم يتوقف فى ذلك • وقال ابن قتيبة فى كتابه غريب القرآن فى قوله تعالى (وقلنا اهبطوا منها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أبي صالح هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر فى كتابه غيره فأين اجماع سلف الأمة وأئمتها • قالوا وأما احتجاجكم بقوله تعالى (ولكم فى الأرض مستقر) عقيب قوله اهبطوا فهذا لايدل على انهم كانوا فى جنة الخلد فان أحد الأقوال فى المسئلة انها كانت جنة فى السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردي فى تفسيره وقد تقدم • وأيضا فان قوله (ولكم فى الارض مستقر) يدل على أن لهم مستقرا الى حين فى الارض المنقطعة عن الجنة ولا بد فان الجنة أيضا لها أرض • قال تعالى عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) فدل على أن قوله (ولكم فى الارض مستقر) المراد به الأرض الخالية من تلك الجنة لا كل مايسمى أرضاً وكان مستقرهم الاول فى أرض الجنة ثم صار فى أرض الابتلاء والامتحان ثم يصير مستقر المؤمنين يوم الجزاء أرض الجنة أيضاً فلا تدل الآية على أن جنة آدم هى جنة الخلد • قالوا وهذا هو الجواب بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فان المراد به الارض التى أهبطوا اليها وجعلت مسكناً لهم بدل الجنة • وهذا تفسير المستقر المذكور فى البقرة مع تضمنه ذكر الاخراج منها • قالوا وأما قوله تعالى لابليس (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) • وقولكم ان هذا انما هو فى الجنة التى فى السماء والا فجنة الارض لم يمنع ابليس من التكبر فيها فهو دليل لنا فى المسئلة فان جنة الخلد لاسبيل لابليس الى دخولها والتكبر

فيها أصلا • وقد أخبر تعالى انه وسوس لآدم وزوجه وكذبهما وغرهما وخانهما وتكبر عليهما وحسدهما وهما حينئذ فى الجنة فدل على انها لم تكن جنة الخلد ومحال أن يصعد اليها بعد اهباطه واخراجه منها • قالوا والضمير فى قوله اهبطوا منها إما أن يكون عائداً الى السماء كما هو أحد القولين وعلى هذا فيكون سبحانه قد أهبطه من السماء عقب امتناعه من السجود وأخبر انه ليس له أن يتكبر ثم تكبر وكذب وخان فى الجنة فدل على انها ليست فى السماء •أو يكون عائداً الى الجنة على القول الآخر ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التى كاد فيها آدم وغره وقاسمه كاذبا فى تلك التى أهبط منها بل القرآن يدل على أنها غيرها كما ذكرناه فعلى التقديرين لا تدل الآية على أن الجنة التى جرى لآدم مع ابليس ماجرى فيها هي جنة الخلد • قالوا وأما قولكم ان بنى اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الارض التى يهبطون وهم كانوا يسيرون ويرحلون فلذلك قيل لهم اهبطوا فهذا حق لانازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فان الهبوط يدل على أن تلك الجنة كانت أعلا من الارض التى أهبطوا اليها وأما كونها جنة الخلد فلا • قالوا والفرق بين قوله اهبطوا مصراً وقوله اهبطوا منها فان الأول لنهاية الهبوط وغايته واهبطوا منها متضمن لمبدئه وأوله لا تأثير له فيما نحن فيه فان هبط من كذا الى كذا يتضمن معنى الانتقال من مكان عال الى مكان سافل فأي تأثير لابتداء الغاية ونهايتها فى تعيين محل الهبوط بانه جنة الخلد • قالوا وأما قصة موسى ولومه لآدم على اخراجه من الجنة فلا يدل على أنها جنة الخلد وقولكم لايظن بموسى أنه يلوم آدم على اخراجه نفسه وذريته من بستان فى الارض تشنيع لايفيد شيئا أفترى كان ذلك بستاناً مثل آحاد هذه البساتين المقطوعة الممنوعة التى هي عرضة الآفات والتعب والنصب والظمأ والحرث والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذى يلحق هذه البساتين ولا ريب أن موسى عليه الصلاة والسلام أعلم وأجل من أن يلوم آدم على خروجه واخراج بنيه من بستان هذا شأنه ولكن من قال بهذا وانما كانت جنة لايلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع ساكنها ولا يظمأ ولا يضحى للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشقاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الانسان على التسبب فى خروجه منها • قالوا وأما اعتذار آدم عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هي التى أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لايستلزم أن تكون هي عينها التى أخرج منها بل اذا كانت غيرها كان أبلغ فى الاعتذار فانه اذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها

ثم خرج من غيرها بخطيئة فهذا موقف نظر الفريقين ونهاية اقدام الطائفتين فمن كان فضل علم فى هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه ومن علم منتهى خطوه ومقدار بضاعته فليكل الأمر الى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والازواء عليه وليكن من أهل التلول الذين هم نظارة الحرب اذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال فى حلبة هذا الميدان

اذا تلاقى الفحول فى لجب * فكيف حال الغصيص فى الوسط

هذه معاقد حجج الطائفتين مجتازة ببابك واليك تساق وهذه بضائع تجار العلما ينادى عليها في سوق الكساد لا فى سوق النفاق فمن لم يكن له به شيء من أسباب البيان والتبصرة فلا يعدم من قد استفرغ وسعه وبذل جهده منه التصويب والمعذرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطتين وابخس الحظين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه واذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم ابراهيم فقد ذكرنا فى هذه المسئلة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد فى شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره الا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله سبحانه الاستمداد وعليه التوكل واليه الاستناد فانه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل

فصل

ولما اهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته لانواع المحن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذى عهد اليه والى بنيه وأخبر أنه من تمسك به منهم صار الى رضوانه ودار كرامته • قال تعالى عقب اخراجه منها (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفي الآية الأخرى قال (اهبطا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فلما كسره سبحانه باهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذى عهده اليهم • فقال تعالى (فاما يأتينكم منى هدى) وهذه هي ان الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان • والمعنى أي وقت وأي حين أتاكم منى هدى وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) كما تقول ان زرتنى فمن بشرنى بقدومك فهو حر وجواب الشرط

يكون جملة تامة اما خبراً محضاً كقولك ان زرتني أكرمتك أو خبرا مقروناً بالشرط كهذا أومؤكداً بالقسم او بأن واللام كقوله تعالى (وان اطعتموهم انكم لمشركون) • واما طلباً كقول النبي صلى الله عليه وسلم اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله وقوله واذا لقيتموهم فاصبروا وقوله تعالى (واذا حللتم فاصطادوا فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وأكثر ما يأتي هذا النوع مع اذا التي تفيد تحقيق وقوع الشرط لسر وهو افادته تحقيق الطلب عند تحقيق الشرط فمتى تحقق الشرط فالطلب متحقق فاتى باذا الدالة على تحقيق الشرط فعلم تحقيق الطلب عندها وقد يأتي مع ان قليلا كقوله تعالى (وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم) • واما جملة انشائية كقوله لعبده الكافر ان أسلمت فأنت حر ولامرأته ان فعلت كذا فأنت طالق فهذا انشاء للعتق والطلاق عند وجود الشرط على رأي أو انشاء له حال التعليق ويتأخر نفوذه الى حين وجود الشرط على رأي آخر • وعلى التقديرين فجواب الشرط جملة انشائية • والمقصود ان جواب الشرط في الآية المذكورة جملة شرطية وهي قوله (فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الشرط يقتضي ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذي هو ملزوم علة ومقتضياً للجزاء الذي هو لازم فان كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون دخول الآخر ممتنعاً كدخول الجنة بالاسلام وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهوى وهذه هي عامة شروط القرآن والسنة فانها اسباب وعلل والحكم ينتفي بانتفاء علته وان كان التلازم بينهما من أحد الطرفين كان الشرط ملزوما خاصاً والجزاء لازماً عاما فمتى تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزاء اللازم العام ولا يلزم العكس كما يقال ان كان هذا انساناً فهو حيوان وان كان البيع صحيحاً فالملك ثابت • وهذا غالب ما يأتي في قياس الدلالة حيث يكون الشرط دليلا على الجزاء فيلزم من وجوده وجود الجزاء لأن الجزاء لازمه ووجود الملزوم يستلزم وجود اللازم ولا يلزم من عدمه عدم الجزاء وان وقع هذا الشرط بين علة ومعلول فان كان الحكم معللا بعلل صح ذلك وجاز أن يكون الجزاء أعم من الشرط كقولك ان كان هذا مرتداً فهو حلال الدم فان حل الدم أعم من حله بالردة • الا ان يقال ان حكم العلة المعينة ينتفي بانتفائها وان ثبت الحكم بعلة أخرى فهو حكم آخر وأما حكم العلة المعينة فمحال ان ينفي مع زوالها وحينئذ فيعود التلازم من الطرفين ويلزم من وجود كل واحد من الشرط والجزاء وجود الآخر ومن عدمه عدمه وتمام تحقيق هذا في مسئلة تعليل الحكم الواحد بعلتين والناس فيه

نزاع مشهور وفصل الخطاب فيها ان الحكم الواحد ان كان واحداً بالنوع كحل الدم وثبوت الملك ونقض الطهارة جاز تعليله بالعلل المختلفة وان كان واحدا بالعين كحل الدم بالردة وثبوت الملك بالبيع أوالميراث ونحو ذلك لم يجز تعليله بعلتين مختلفتين وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذه المسئلة والله أعلم •ومن تأمل أدلة الطائفتين وجد كل ما احتج به من رأى تعليل الحكم بعلل مختلفة انما يدل على تعليل الواحد بالنوع بهما وكل من نفى تعليل الحكم بعلتين انما يتم دليله على نفي تعليل الواحد بالعين بهما فالقولان عند التحقيق يرجعان الى شيء واحد • والمقصود ان الله سبحانه جعل اتباع هداه وعهده الذى عهده الى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والحزن والضلال والشقاء وهذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط منتف بانتفائه كما تقدم بيانه ونفي الخوف والحزن عن متبع الهدى نفي لجميع أنواع الشرور فان المكروه الذى ينزل بالعبد متى علم بحصوله فهو خائف منه أن يقع به واذا وقع به فهو حزين على ما أصابه منه فهو دائماً فى خوف وحزن وكل خائف حزين فكل حزين خائف وكل من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب وحصول المكروه • فالأقسام أربعة خوف من فوت المحبوب وحصول المكروه وهذا جماع الشر كله فنفى الله سبحانه ذلك عن متبع هداه الذي أنزله على ألسنة رسله وأتى فى نفي الخوف بالاسم الدال على نفي الثبوت واللزوم فان أهل الجنة لابد لهم من الخوف فى الدنيا وفى البرزخ ويوم القيامة حيث يقول آدم وغيره من الأنبياء نفسي نفسي فأخبر سبحانه انهم وان خافوا فلا خوف عليهم أي لا يلحقهم الخوف الذى خافوا منه وأتى في نفي الحزن بالفعل المضارع الدال على نفي التجدد والحدوث أي لايلحقهم حزن ولا يحدث لهم اذا لم يذكروا ماسلف منهم بل هم فى سرور دائم لا يعرض لهم حزن على مافات • وأما لخوف فلما كان تعلقه بالمستقبل دون الماضى نفى لحوقه لهم جملة أي الذى خافوا منه لاينالهم ولا يلم بهم والله أعلم •فالحزين انما يحزن فى المستقبل على مامضى والخائف انما يخاف فى الحال مما يستقبل فلا خوف عليهم أي لايلحقهم ما خافوا منه ولا يعرض لهم حزن على مافات • وقال فى الآية الأخرى (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) فنفى عن متبع هداه أمرين الضلال والشقاء قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لايضل فى الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) والآية نفت مسمى الضلال والشقاء عن متبع الهدي مطلقاً فاقتضت الآية أنه لايضل في الدنيا ولا يشقى ولا يضل في الآخرة ولا يشقى فيها فان المراتب أربعة •

هدى وشقاوة فى الدنيا وهدى وشقاوة فى الآخرة . لكن ذكر ابن عباس رضي الله عنهما فى كل دار أظهر مرتبتيها فذكر الضلال فى الدنيا اذ هو أظهر لنا وأقرب من ذكر الضلال فى الآخرة . وأيضاً فضلال الدنيا أضل ضلال فى الآخرة وشقاء الآخرة مستلزم للضلال فيها فنبه بكل مرتبة على الاخرى فنبه بنفي ضلال الدنيا على نفي ضلال الآخرة فان العبد يموت على ماعاش عليه ويبعث على مامات عليه . قال الله تعالى فى الآية الاخرى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال فى الآية الاخرى (ومن كان فى هذه أعمي فهو فى الآخرة أعمي وأضل سبيلا) فأخبر أن من كان فى هذه الدار ضالا فهو فى الآخرة أضل وأما نفي شقاء الدنيا فقد يقال انه لما انتفى عنه الضلال فيها وحصل له الهدى والهدى فيه من برد اليقين وطمأنينة القلب وذاق طعم الايمان فوجد حلاوته وفرحة القلب به وسروره والتنعم به ومصير القلب حياً بالايمان مستنيراً به قوياً به قد نال به غذاءه ورواءه وشفاءه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه ما هو من أجل أنواع النعم وأطيب الطيبات وأعظم اللذات . قال الله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فهذا خبر أصدق الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب ايمانه وعمله ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمي الحياة حيث يظنونها التنعم فى أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمال وقهر الاعداء والتفنن بأنواع الشهوات ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان فمن لم تكن عنده لذة الا اللذة التى تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر اذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والاموال والاخوان والمساكن ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه واخيه لاتأخذه فى ذلك لومة لائم حتى ان أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته حتى يلقى قوته من يده ويقول انها لحياة طويلة ان صبرت حتى آكلها ثم يتقدم الى الموت فرحا مسروراً ويقول الآخر مع فقره لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف ويقول الآخر انه لتمر بالقلب اوقات يرقص فيها طربا

• وقال بعض العارفين انه لتمر بي أوقات أقول فيها ان كان أهل الجنة في مثل هذا أنهم لفي عيش طيب ومن تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لما نهاهم عن الوصال فقالوا انك تواصل فقال اني لست كهيئتكم اني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني علم أن هذا طعام الارواح وشرابها وما يفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم الذي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه وغيره اذا تعلق بغباره رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة اليه هباء منثورا بل باطلا وغروراً • وغلط من قال انه كان يأكل ويشرب طعاماً وشراباً يغتذي به بدنه لوجوه • أحدها انه قال أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ولو كان أكلا وشرباً لم يكن وصالا ولا صوماً • الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم ليسوا كهيئته في الوصال فانهم اذا واصلوا تضرروا بذلك وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه اذا واصل لا يتضرر بالوصال فلو كان يأكل ويشرب لكان الجواب وأنا أيضاً لا أواصل بل آكل وأشرب كما تأكلون وتشربون فلما قررهم على قولهم انك تواصل ولم ينكره عليهم دل على انه كان مواصلا وانه لم يكن يأكل أكلا وشرباً يفطر الصائم • الثالث انه لو كان أكلاً وشرباً يفطر الصائم لم يصح الجواب بالفارق بينهم وبينه فانه حينئذ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون في عدم الوصال فكيف يصح الجواب بقوله لست كهيئتكم وهذا أمر يعلمه غالب الناس ان القلب متى حصل له ما يفرحه ويسره من نيل مطلوبه ووصال حبيبه أو ما يغمه ويسوؤه ويحزنه شغل عن الطعام والشراب حتى ان كثيراً من العشاق تمر به الأيام لا يأكل شيئاً ولا تطلب نفسه أكلا • وقد أفصح القائل في هذا المعنى

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به * ومن حديثك في أعقابها حادي
اذا اشتكت من كلال السير أوعدها * روح القدوم فتحيا عند ميعاد

والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل وهو أمر يشهد به الحس والوجد وأما سعادة الآخرة فغيب يعلم بالايمان فذكرها ابن عباس رضي الله عنهما لكونها أهم وهي الغاية المطلوبة وضلال الدنيا أظهر وبالنجاة منه ينجو من كل شر وهو أصل ضلال الآخرة وشقائها فلذلك ذكره وحده والله أعلم

فصل

وهذا الضلال أصل الضلال والسعادة ذكرهما سبحانه كما في كلامه وينبغي ...

لسخط أعدائه ويذكر ضدهما وهما الهدى والفلاح كثيراً ويخبر انهما حظ أوليائه • أما الاول فكقوله تعالى (انالمجرمين فيضلال وسعر) فالضلال الضلال والسعر هوالشقاء والعذاب • وقال تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) • وأما الثاني فكقوله تعالى في أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وكذلك في أول لقمان • وقال في الأنعام (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن وأفرضها قراءة على الأمة وأجمعها لكل مايحتاج اليهالعبد وأعمها نفعاً ذكر فيها الأمرين فأمرنا أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح ثم قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء والضالين وهم أهل الضلال وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء لكن ذكر الوصفين معاً لتكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه • وأيضا فانه ذكر ماهو أظهر الوصفين في كل طائفة فان الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته والضلال في النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم • وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون

فصل

وقوله تعالى (فاما يأتينكم مني هدى) هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) ثمقال (فاما يأتينكم منيهدى) وكلا الخطابين لأبوي الثقلين وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء وهذا مما لاخلاف فيه بين الأمة وان نبينا بعث اليهم كما بعث الىالانس كما لاخلاف بينها ان مسيئهم مستحق للعقاب • وانما اختلف علماء الاسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار وقيل بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم • وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد ابليس وانما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة • وحكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى • و حتج الأولون بوجوه • أحدها هذه الآية فانه سبحانه أخبر ان من تبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذامستلزم لكمالالنعيم • ولا يقالان الآية انما تدلعلى نفي العذاب فقط ولا خلاف أن مؤمنيهم لايعاقبون • لانا نقول لو لم تدل الآية الا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحاً لمؤمني الانس ولما كان فيها الا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف

والحزن • ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها انما أريد به ان من اتبع هدى الله الذى أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء وعبر عن هـذا المعنى المطلوب بنفى الامور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فانه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ماحصل فأخبره سبحانه انه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء • ومعلوم انه لا ينتفى ذلك كله الا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى • الثانى قوله تعالى (وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم اخباراً بقوله ان من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم انما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلا بقوله (ويجركم من عـذاب أليم) بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة • الثالث قوله تعالى فى الحور العين (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) فهذا يدل على أن مؤمني الجن والانس يدخلون الجنة وانه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل على أن مؤمنيهم يتأتى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الانس ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك • الرابع قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعـدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) والجن منهم مؤمن ومنهم كافر كما قال صالحوهم (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) فكما دخل كافرهم فى الآية الثانيـة وجب أن يدخـل مؤمنهم فى الأولى • الخامس قوله عن صالحيهم (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) والرشد هو الهدى والفلاح وهو الذى يهدى اليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد بل لم يحصل له من الرشد الا مجرد العلم • السادس قوله تعالى (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل فى المبشرين ويستحق البشارة • السابع قوله تعالى (والله يدعو الى دار السـلام ويهدى من يشاء الى صراط مسـتقيم) عم

سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفضية اليها فمن هداه اليها فهو ممن دعاه اليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين اليها • الثامن قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا » وهذا عام فى الجن والانس فأخبرهم تعالى ان لكلهم درجات من عمله فاقتضي أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الانس • التاسع قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) وقوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة • أحدها عموم الاسم الموصول فيها • الثاني ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها وهو قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته فاذا كان دخول الجنة مرتباً على الاقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فمن أتي ذلك استحق الجزاء • الثالث انه قال (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) فدل على ان كل من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وانه متناول للفريقين ودلت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة • العاشر انه اذا دخل مسيئهم النار بعدل الله فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى فان رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار • وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرا قط بل ينشئ لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه بل بما يصل اليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها اليه بخلاف أهل النار فانه لا يعذب فيها بغير عمل اصلا • وقد ثبت بنص القرآن واجماع الأمة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فمحسنهم فى الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون • لكن قيل انهم

يكونون فى ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا فى الدنيا يرون بنى آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لا يعلم الا بتوقيف تنقطع الحجة عنده فان ثبتت حجة يجب اتباعها والا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم

﴿ فصل ﴾

ومتابعة هدى الله التى رتب عليها هذه الامور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح فى تصديقه وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله وعلى هذين الأصلين مدار الايمان وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر ويتبعهما أمران آخران وهما نفى شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق وان لا يخمش بها وجه تصديقه ودفع شهوات الغيّ الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال فهنا أربعة أمور • أحدها تصديق الخبر • الثانى بذل الاجتهاد فى رد الشبهات التى توحيها شياطين الجن والانس فى معارضته • الثالث طاعة الامر والرابع مجاهدة النفس فى دفع الشهوات التى تحول بين العبد وبين كمال الطاعة وهذان الأمران أعنى الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقائه فى معاشه ومعاده كما أن الأصلين الاولين وهما تصديق الخبر وطاعة الامر أصل سعادته وفلاحه فى معاشه ومعاده وذلك ان العبد له قوتان قوة الادراك والنظر ومايتبعها من العلم والمعرفة والكلام وقوة الارادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فساداً فى القوة العلمية النظرية مالم يداوها بدفعها والشهوة تؤثر فساداً فى القوة الارادية العملية ما لم يداوها باخراجها قال الله تعالى فى حق نبيه يذكر ما منّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك (والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى) فما ضل دليل على كمال علمه ومعرفته وانه على الحق المبين وما غوى دليل على كمال رشده وانه أبر العالمين فهو الكامل فى علمه وفى عمله وقد وصف صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءه من بعده وأمر باتباعهم على سنتهم فقال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى رواه الترمذى وغيره فالراشد ضد الغاوى والمهدي ضد الضال وقد قال تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) فذكر تعالى الاصلين وهما داء الاولين والآخرين أحدهما الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الامر بخلاف المؤمن فانه وان نال من الدنيا وشهواتها فانه لا يستمتع بنصيبه كله ولا

يذهب طيباته فى حياته الدنيا بل ينال منها ماينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده والثانى الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله (وخضتم كالذى خاضوا) وهذا شأن النفوس الباطلة التى لم تخلق للآخرة لاتزال ساعية فى نيل شهواتها فاذا نالتها فانماهي فى خوض بالباطل الذى لا يجدى عليها الا الضرر العاجل والآجل • ومن تمام حكمة الله تعالى انه يبتلى هذه النفوس بالشقاء والتعب فى تحصيل مراداتها وشهواتها فلا تتفرغ للخوض بالباطل الا قليلا ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعوا الى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان وسواء كان المعنى وخضتم كالحزب الذى خاضوا أو كالفريق الذى خاضوا فان الذى يكون للواحد والجمع ونظيره قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم مايشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) لكن لا يجرى على جمع تصحيح فلا يجئ المسلمون الذى جاؤا وانما يجئ غالباً فى اسم الجمع كالحزب والفريق أوحيث لا يذكر الموصوف وان كان جمعاً كقول الشاعر

وان الذى جاءت تقيح دماؤهم * هم القوم كل القوم ياأم خالد

أوحيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به) ثم قال (أولئك هم المتقون) ونظيره الآية التى نحن فيها وهي قوله (وخضتم كالذى خاضوا) أوكان المعنى على القول الآخر وخضتم خوضاً كالخوض الذى خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك اضرب كالذى ضرب وأحسن كالذى أحسن ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا محذوفاً وحذفه فى مثل ذلك قياس مطرد على القولين فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات وأخبر ان من كانت هذه حالته فقد حبط عمله فى الدنيا والآخرة وهو من الخاسرين ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) فذكروا الأصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين • وايثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات واطعام ذوى الحاجات فهذان الأصلان هما ماهما والله ولى التوفيق

﴿ فصل ﴾

والقلب السليم الذى ينجو من عذاب الله هو القلب الذى قد سلم من هذا وهذا فهو القلب الذى قد سلم لربه وسلم لامره ولم تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبره فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد الا الله ولا يفعل الا ما أمره الله فالله وحده غايته وأمره وشرعه

وسيلته وطريقته لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لا تمر عليه الا وهي مجتازة تعلم انه لا قرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها • وحقيقته انه القلب الذى قد سلم لعبودية ربه حياء وخوفاً وطمعاً ورجاء ففنى بحبه عن حب ماسواه وبخوفه عن خوف ماسواه وبرجائه عن رجاء ماسواه وسلم لامره ولرسوله تصديقاً وطاعة كما تقدم واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فاسلم لربه انقياداً وخضوعاً وذلا وعبودية وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهراً وباطناً من مشكاة رسوله وعرض ماجاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده ومالم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه الى أن يتبين له وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين الى خلافهما

فصل

وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها فى قوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) وفى قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه وقال تعالى اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة (وقال انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن) فحقيقة التلاوة فى هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة وهي تلاوة اللفظ والمعنى فتلاوة اللفظ جزء مسمي التلاوة المطلقة وحقيقة اللفظ انما هى الاتباع يقال اتل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه ومنه قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها) أى تبعها فى الطلوع بعد غيبتها ويقال جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً أى يتبع وسمي تالى الكلام تالياً لانه يتبع بعض الحروف بعضاً لا يخرجها جملة واحدة بل يتبع بعضها بعضاً مرتبة كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى وهذه التلاوة وسيلة وطريقة • والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقاً بخبره وائتماراً بأمره وانتهاء بنهيه وائتماماً به حيث ماقادك انقدت معه فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة فانهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً

فصل

ثم قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه فى معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) أي عن الذكر الذى أنزلته فالذكرهنا مصدرمضاف الى الفاعل كقيامي وقراءتي لا الى المفعول وليس المعنى ومن أعرض عن أن يذكرنى بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره • وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لااضافة المصادر الى معمولاتها • والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه فان القرآن يسمى ذكراً قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال تعالى (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) وقال تعالى (وما هو الا ذكر للعالمين) وقال تعالى (ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز) وقال تعالى انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن) وعلى هذا فاضافته كاضافة الاسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل الى معموله ونظيره فى اضافة اسم الفاعل (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) فان هذه الاضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وانما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم وكذلك جرت أوصافا على أعرف المعارف وهو اسم الله تعالى فى قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لااله الا هو اليه المصير)

فصل

وقوله تعالى (فان له معيشة ضنكا) فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر وجعلوا هذه الآية أحد الادلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال (ونحشره يوم القيامة أعمي قال رب لم حشرتي أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أي تترك فى العذاب كما تركت العمل بآياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى فى حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشياً) فهذا فى البرزخ (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فهذا فى القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق

وكنتم عن آياته تستكبرون) فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به البرزخ الذى أوله يوم القبض والمـوت ونظيره قوله تعالى (ولو ترى اذ يتوفى كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهـذه ا هي فى البرزخ وأولها حين الوفاة فانه معطوف على قوله (يضربون وجوههم وأدبا وهومن القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره وكلاهماواقع وقت الوفاة، الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قوله تعالى(يثبت الله الذين آمنوا بالق الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قال نزلت فى عذاب القبر والاحاديث في عـذ القبر تكاد تبلغ حد التواتر • والمقصود ان الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذ وهو الهدي الذى من اتبعه لايضل ولايشقى فان له معيشـة ضنكا وتكفل لمن عهده أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الا خرة فقال تعالى (من عمل صالحاً ذ كر أو أنثي وهومؤمن فلنحيينه حياةطيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملو فاخبر سبحانه عن فلاح ماتمسك بعهده علماً وعملا في العاجلة بالحياة الطيبة وفى الآ باحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذ بالآخرة وقال سبحانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قر وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) فأخبر سبحانه ان من ابتلاه بقر من الشياطين وضلاله به انما كان بسبب اعراضه وعشوه عن ذكره الذى أنزله على رس فكان عقوبة هذا الاعراض أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطر فلاحه وهو يحسب أنه مهتد حتى اذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وافلا قال (ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وكل من أعرض عن الاهتـ بالوحي الذى هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة • فان قيل فهل لهذا عذر ضلاله اذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (ويحسبون أنهم مهتدون) • قيل عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضـلالهم الاعراض عن الوحي الذى جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن أنه مهتد فانه مفرط باعراضه عن اتباع داعي الهد فاذا ضل فانما أتى من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرس وعجزه عن الوصول اليها فذاك له حكم آخر والوعيد في القرآن انما يتناول الأول و الثاني فان الله لا يعذب أحداً الا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى (وما كنا معذ حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حـ بعد الرسل) • وقال تعالى فى أهل النار (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) • وا

تعالى (أن تقول نفس ياحسرتي على مافرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بهاواستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا كثير في القرآن

فصل

وقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمي قال رب لم حشرتني أعمي وقد كنت بصيراً) اختلف فيه هل هو من عمي البصيرة أو من عمي البصر والذين قالوا هو من عمي البصيرة انما حملهم على ذلك قوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) • وقوله (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين) • وقوله (لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة كقوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) • وقوله (يوم يدعون الى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) • وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) والذين رجحوا أنه من عمي البصر قالوا السياق لايدل الا عليه لقوله (قال رب لم حشرتني أعمي وقد كنت بصيراً) وهو لم يكن بصيراً في كفره قط بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمي عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيراً وكيف يجاب بقوله (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمي البصر وأنه جوزي من جنس عمله فانه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمي الله بصره يوم القيامة وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا فجازاه على عمي بصيرته عمي بصره في الآخرة وعلى تركه ذكره تركه في العذاب وقال تعالى (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما) • وقد قيل في هذه الآية أيضاً انهم عمي وبكم وصم عن الهدى كما قيل في قوله (ونحشره يوم القيامة أعمي) قالوا لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم هو عمي وصمم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمي عن رؤية مايسرهم وسماعه • وهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لايرون شيئاً يسرهم • وقال آخرون هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فاذا قاموا من قبورهم في موقف

قاموا كذلك ثم انهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروى عن الحسن • وقال آخرون هـذا انما يكون اذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الاسماع والابصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى (اخسؤا فيها ولا تكلمون) فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون باجمعهم عمياً بكما صما لايبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ولا يسمع منهم الا الزفير والشهيق • وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا المراد به العمي عن الحجة انما مرادهم أنهم لاحجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمي عنها بل هم عمي عن الهدى كما كانوا فى الدنيا فان العبد يموت على ماعاش عليه ويبعث على مامات عليه وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمي البصر فان الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ويقربما كان يجحده فى الدنيا فليس هو أعمي عن الحق يومئذ (وفصل الخطاب) ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به تارة الحشر الى موقف القيامة كقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم محشورون الي الله حفاة عراة غرلا وكقوله تعالى (واذا الوحوش حشرت) وكقوله تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) ويراد به الضم والجمع الى دار المستقر فحشر المتقين جمعهم وضمهم الي الجنة وحشر الكافرين جمعهم وضمهم الي النار • قال تعالي (يوم نحشر المتقين الي الرحمن وفداً) • وقال تعالي (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الي صراط الجحيم) فهذا الحشر هو بعد حشرهم الي الموقف وهو حشرهم وضمهم الي النار لانه قد أخبر عنهم أنهم (قالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) • ثم قال تعالي (أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وهذا الحشر الثانى وعلى هذا فهم ما بين الحشر الاول من القبور الي الموقف والحشر الثانى من الموقف الى النار فعند الحشر الاول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثانى يحشرون على وجوههم عمياً وبكما وصما فالكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً)

فصل

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته اخراج آدم وذريته من الجنة اعاضهم أفضل منها وهو ماأعطاهم من عهده الذي جعله سبباً موصلا لهم اليه وطريقاً واضحاً بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن اعرض عنه شقي وغوى • ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل اليه أبداً الا من باب

العلم والارادة فالارادة باب الوصول اليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكمال كل انسان انما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه فان مراتب السعادة والفلاح انما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من احداهما اما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالماً بها ولا تنهض همته اليها فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوساً قد أسام نفسه مع الأنعام راعياً مع الهمل واستطاب لقيمات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمر اليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه قد ابت غلبات شوقه الا الهجرة الى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء الا ابن سبيل يرافقه في سبيله • ولما كان كمال الارادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذي لاسعادة له بدونها ولا حياة له الا بها أن تكون ارادته متعلقة بالمراد الذي لايبلي ولا يفوت وعزمات همته مسافرة الى حضرة الحي الذي لايموت ولا سبيل له الى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى الا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعياً وأقامه على هذا الطريق هاديا وجعله واسطة بينه وبين الأنام وداعيا لهم باذنه الى دار السلام وأبى سبحانه أن يفتح لاحد منهم الا على يديه أو يقبل من أحد منهم سعياً الا أن يكون مبتدأ منه ومنتهياً اليه • فالطرق كلها الا طريقه صلى الله عليه وسلم مسدودة والقلوب باسرها الا قلوب أتباعه المنقادة اليه عن الله محبوسة مصدودة فحق على من كان في سعادة نفسه ساعياً وكان قلبه حياً عن الله واعياً أن يجعل على هذين الاصلين مدار أقواله وأعماله وأن يصيرها أخيته التي اليها مفزعه في حياته وطاء له فلاجرم كان وضع هذا الكتاب مؤسساً على هاتين القاعدتين ومقصوداً التعريف بشرف هذين الأصلين (وسميته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والارادة) • اذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها علي حين انقطاعي اليه عند بيته والقائي نفسي ببابه مسكيناً ذليلا وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا فما خاب من أنزل به حوائجه وعلق به آماله وأصبح ببابه مقيما وبحماه نزيلا • ولما كان العلم امام الارادة ومقدما عليها ومفصلا لها ومرشداً لها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة • ثم نتبعه ان شاء الله بعد الفراغ منه كتابا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها واسبابها وموانعها وما يقويها ومايضعفها والاستدلال بسائر طرق الادلة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلقها بالاله الحق الذي لا شيء أحق منه بها بل لاينبغي أن تكون الا له ومن أجله والرد على من انكر ذلك وتبيين فساد قوله عقلا ونقلا

وفطرة وقياساً وذوقا ووجداً فهذا مضمون هذه التحفة وهذه عرائس معانيها الآن تجلى عليك وخود أبكارها البديعة الجمال تزف في حللها وهي تزف اليك فاما شمس منازلها بسعد الاسعد واما خود تزف الى ضرير مقعد فاختر لنفسك احدى الخطتين وانزلها فيما شئت من المنزلتين ولا بد لكل نعمة من حاسد ولكل حق من جاحد ومعاند هذا وانما أودع من المعانى والنفائس رهن عند متأمله ومطالعه له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وله ثمرته ومنفعته ولصاحبه كله ومشقته مع تعرضه لطعن الطاعنين ولاعتراض المناقشين وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدود يعرض على عقول العالمين وإلقائه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين وانياب البغاة المعتدين فلك أيها القارئ صفوه ولمؤلفه كدره وهو الذى تجشم غراسه وتعبه ولك ثمره وها هو قد استهدف لسهام الراشقين واستعذر الى الله من الزلل والخطأ ثم الى عباده المؤمنين • اللهم فعياذاً بك ممن قصر فى العلم والدين باعه وطالت فى الجهل وآذى عبادك ذراعه فهو لجهله يرى الاحسان اساءة والسنة بدعة والعرف نكراً ولظلمه يجزى بالحسنة سيئة كاملة وبالسيئة الواحدة عشرا قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلماً الى مايحبه من الباطل ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولاينكر من المنكر الا ماوافق ارادته أو حالف هواه يستطيل على أولياء الرسول وحزبه باصغريه ويجالس أهل الغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه قد ارتوى من ماء آجن وتضلع واستشرف الى مراتب ورثة الانبياء وتطلع يركض فى ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم فى الجهالة فيظن أنه من السابقين وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل واذا أنزل الورثة منازلهم منها فمنزلته منها أقصى وأبعد منزل

نزلوا بمكة فى قبائل هاشم * ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذاً بك ممن جعل الملامة بضاعته والعذل نصيحته فهو دائما يبدى فى الملامة ويعيد • ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد • بل عياذاً بك من عدو فى صورة ناصح وولى فى مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً وتنفيره وتخذيله إسعافاً وإرفاقاً واذا كانت العين لا تكاد الا على هؤلاء تفتح والميزان بهم يخف ولا يرجح فما احرى اللبيب بأن لايعيرهم من قلبه جزءاً من الالتفات ويسافر فى طريق مقصده بينهم سفره الى الأحياء بين الاموات وما أحسن ماقال القائل

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله * وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم * وليس لهم حتى النشور نشور

اللهم فلك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا

حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل • فلنشرع الآن فى المقصود بحول الله وقوته فنقول

الأصل الأول فى العلم وفضله وشرفه

(وبيان عموم الحاجة اليه وتوقف كمال العبد ونجاته فى معاشه ومعاده عليه)

قال الله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه • أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر • والثانى اقتران شهادتهم بشهادته • والثالث اقترانها بشهادة ملائكته • والرابع أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فان الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين • وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة رأيت رجلا قدم رجلا الى اسمعيل ابن اسحق القاضى فادعى عليه دعوى فسأل المدعي عليه فأنكر فقال للمدعى ألك بينة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فمن شهودى وأما فلان فليس من شهودى قال فيعرفه القاضى قال نعم قال بما ذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه فى كتبه الحديث قال ما علمت إلا خيراً • قال فان النبي صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى ممن عدلته أنت فقال قم فهاته فقد قبلت شهادته • وسيأتى إن شاء الله الكلام على هذا الحديث فى موضعه • الخامس أنه وصفهم بكونهم أولى العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم • السادس انه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلا وشرفاً • السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله والعظيم القدر انما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم • الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده • التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه

إقامة وإنطاقاً وتعلما وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً • العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فاذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الاقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الاجر مثل أجره أيضاً فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية • الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله انه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار • فقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) كما قال تعالى (لايستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم • الوجه الثانى عشر أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) فما ثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي فى غير موضع من كتابه • الوجه الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل اليه من ربه حقاً وجعل هذا ثناء عليهم واستشهاداً بهم • فقال تعالى (ويرى الذين أوتو العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق) • الوجه الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع الى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم • فقال (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء • الوجه الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة فى ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى (أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) • الوجه السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئا • فقال تعالي (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أولا تؤمنوا ان الذين أوتو العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته ان اهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أو لا • الوجه السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثني عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم • فقال تعالي (وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن

به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتو العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) وسواء كان المعنى ان القرآن مستقر فى صدور الذين أوتو العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين • أحدهما أنه آيات بينات • الثاني انه محفوظ مستقر ثابت فى صدور الذين أوتو العلم • أو كان المعني انه آيات بينات فى صدورهم أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت فى صدورهم والقولان متلازمان ليسا بمختلفين • وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله • الوجه الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه ان يسأله مزيد العلم • فقال تعالي (فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليك وحيه وقل رب زدنى علما) وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه • الوجه التاسع عشر انه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والايمان خاصة • فقال تعالي (يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انسزوا فانسزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات والله بما تعملون خبير) وقد أخبر سبحانه فى كتابه برفع الدرجات فى أربعة مواضع • أحدها هذا • والثانى قوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) والثالث قوله تعالى (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) والرابع قوله تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) فهذه أربعة مواضع فى ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الايمان الذى هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها الى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين • الوجه العشرون • أنه سبحانه استشهد باهل العلم والايمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار • فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتو العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) الوجه الحادى والعشرون أنه سبحانه أخبر انهم أهل خشيته بل خصهم من بين الناس بذلك • فقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) وهذا حصر لخشيته في أولى العلم • وقال تعالي (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء

فدل على ان هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين • وقال ابن مسعود رضي الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا • الوجه الثاني والعشرون انه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به ان أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) • وفي القرآن بضعة وأربعون مثلا وكان بعض السلف اذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول لست من العالمين • الوجه الثالث والعشرون انه سبحانه ذكر مناظرة ابراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه فى سورة الانعام (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) قال زيد بن أسلم رضى الله عنه نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة • الوجه الرابع والعشرون انه سبحانه أخبر انه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده انه بكل شئ عليم وعلى كل شئ قدير فقال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وان الله قد أحاط بكل شئ علما) فدل على ان علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والامر • الوجه الخامس والعشرون أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر انه خير مما يجمع الناس فقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وفسر فضل الله بالايمان ورحمته بالقرآن والايمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل • الوجه السادس والعشرون • انه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بانه قد آتاه خيراً كثيراً • فقال تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) قال ابن قتيبة والجمهور الحكمة اصابة الحق والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح • الوجه السابع والعشرون • انه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم • فقال تعالى (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) • الوجه الثامن والعشرون • أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وان يذكروه على اسدائها اليهم فقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الوجه التاسع والعشرون • انه سبحانه لما أخبر ملائكته بانه يريد ان يجعل في الارض خليفة قالوا له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك

السماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) الى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فابى أبليس فلعنه وأخرجه من السماء (وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه) أحدها انه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل في الارض من هم أطوع له منه فقال (انى أعلم مالا تعلمون) فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والايمان من هو خير من الملائكة وظهر من ابليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق آدم واسكانه الارض من الحكم الباهرة • الثاني انه سبحانه لما أراد اظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • جاء في التفسير انهم قالوا لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وافضل من الخليفة الذي يجعله الله في الارض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه • فقالوا (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) • فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) أقروا له بالفضل • الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم (ألم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وانه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والارض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفاً للعلم • الرابع انه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على ان العلم أشرف ما في الانسان وان فضله وشرفه انما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد اظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل الرؤيا ما عجز عنه علماء التعبير فحينئذ قدمه ومكنه وسلم اليه خزائن الأرض وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته إطلقه من الحبس ومكنه في الارض فدل على ان صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من

الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة • وهذا وجه مستقل فى تفضيل العلم مضاف الى ما تقدم فتم به ثلاثون وجهاً • الوجه الحادى والثلاثون أنه سبحانه ذم أهل الجهل فى مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) وقال (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالانعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم • وقال (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال بل هم أعداؤهم على الحقيقة • وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه (فلا تكونن من الجاهلين) • وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) • وقال لاول رسله نوح عليه السلام (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) فهذه حال الجاهلين عنده والاول حال أهل العلم عنده • وأخبر سبحانه عن عقوبته لاعدائه انه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه • فقال تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً) وأمر نبيه بالاعراض عنهم فقال (وأعرض عن الجاهلين) وأثنى على عباده بالاعراض عنهم ومتاركتهم كما فى قوله (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) • وقال تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) • وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فان كل أحد يتبرأ منه وان كان فيه • الوجه الثاني والثلاثون ان العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فان النور يكشف عن حقائق الاشياء ويبين مراتبها والحياة هي المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الاقوال والاعمال فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه وضده الوقاحة والفحش وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح وكالحياء الذى هو المطر الذي به حياة كل شئ • قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) كان ميتاً بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الايمان نوراً يمشى به فى الناس • وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شئ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء

والله ذو الفضل العظيم) • وقال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) • وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم) فأخبر انه روح تحصل به الحياة ونور يحصل به الاضاءة والاشراق فجمع بين الأصلين الحياة والنور • وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) وقال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير) وقال تعالى (ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبينا) وقال تعالى (قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور) وقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) فضرب سبحانه مثلا لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبي بن كعب رضي الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والايمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية (نور على نور) يعني نور الايمان على نور القرآن كما قال بعض السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وان لم يسمع فيها بالأثر فاذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والايمان فى غير موضع من كتابه كقوله (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ففضل الله الايمان ورحمته القرآن • وقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقد تقدمت هذه الآيات • وقال فى آية النور (نور على نور) وهو نور الايمان على نور القرآن . وفى حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب مثلا صراطاً مستقيما وعلى كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه (والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم) والأبواب التى على كنفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد فى حدود

الله حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه رواه الترمذى وهـذا لفظه والامام أحمد ولفظه والداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن فذكر الأصلين وهما داعي القرآن وداعي الايمان • وقال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الايمان ثم علموا من القرآن • وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فجعل الناس أربعة أقسام أهل الايمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى أهل الايمان الذين لايقرؤن القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء والأشقياء قسمان . أحدهما من أوتى قرآناً بلا إيمان فهو منافق . والثانى من لاأوتى قرآناً ولا إيماناً . والمقصود أن القرآن والايمان هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده وانهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة وعلمهما أجل العلوم وأفضلها بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) الوجه الثالث والثلاثون ان الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا أيضاً من شرف العلم انه لا يباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم وفضله • قال الله تعالى (يسألونك ماذا احل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب) ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء . الوجه الرابع والثلاثون ان الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذى كتب له التوراة بيده وكلمه منه اليه انه رحل الى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علماً الى علمه فقال (واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا باذنه وقال (على أن تعلمن مما علمت رشدا) فلم يجئ ممتحناً ولا متعنتاً وانما جاء متعلماً مستزيداً علماً الى علمه • وكفى بهذا فضلا وشرفاً للعلم فان نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقى النصب من سفره فى تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقر له

حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هـذا موضع ذكرها • الوجه الخامس والثلاثون قوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ندب تعالى المؤمنين الى التفقه فى الدين وهو تعلمه وانذار قومهم اذا رجعوا اليهم وهو التعليم . وقد اختلف فى الآية فقيل المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون النفير على هذا نفير تعلم والطائفة تقال على الواحد فما زاد قالوا فهو دليل على قبول خبر الواحد وعلى هـذا حملها الشافعي وجماعة • وقالت طائفة أخرى المعنى وما كان المؤمنون لينفروا الى الجهاد كلهم بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه فى الدين فاذا جاءت الطائفة التى نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام • وعلى هذا فيكون قوله ليتفقهوا ولينذروا للفرقة التى نفرت منها طائفة وهذا قول الأكثرين وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله فانه حيث استعمل انما يفهم منه الجهاد • قال الله تعالى (انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وهذا هو المعروف من هذه اللفظة • وعلى القولين فهو ترغيب فى التفقه فى الدين وتعلمه وتعليمه فان ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه كما سيأتي تقريره فى الوجه الثامن والمائة ان شاء الله تعالى • الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى (والعصر إن الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) قال الشافعي رضي الله عنه لو فكر الناس كلهم فى هذه السورة لكفتهم (وبيان ذلك) ان المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله • احداها معرفة الحق • الثانية عمله به • الثالثة تعليمه من لا يحسنه • الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب الأربعة فى هذه السورة وأقسم سبحانه في هـذه السورة بالعصر ان كل أحد فى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة • وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى • وتواصوا بالحق وصى به بعضهم بعضاً تعليما وارشاداً فهذه مرتبة ثالثة • وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فان الكمال أن يكون الشخص كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكماله باصلاح قوتيه العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالايمان وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات

وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذى جعل كتابه كافياً عن كل ماسواه شافياً من كل داء هادياً الى كل خير • الوجه السابع والثلاثون انه سبحانه ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وقد تقدمت هذه الآية • وقال في يوسف (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) وقال في كليمه موسى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمراً عظيما خصه به على غيره ولا يثبت له الا الأقوياء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعنى تم وكملت قوته • وقال في حق المسيح (ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به • وقال في حق داود (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته • وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم وخص بفهم القضية أحدهما وقد ذكرت الحكمين الداوودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة الى هذا ومن صار الى هذا وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد • وقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله) يعني الذى أنزله جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة إذ لاينال هذا العلم إلا من جهة الرسل فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شئ وهذا من فضل العلم وشرفه وانه دليل على صحة النبوة والرسالة والله الموفق للرشاد • وقال تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يعني وبعث فى آخرين منهم لما يلحقوا بهم وقد اختلف فى هذا اللحاق المنفي فقيل هو اللحاق في الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم وقيل هو اللحاق في الفضل والسبق وعلى التقديرين فامتنّ عليهم سبحانه بان علمهم بعد الجهل وهداهم بعد الضلالة ويالها من منة عظيمة فاتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن • الوجه الثامن والثلاثون ان أول سورة أنزلها الله فى كتابه سورة القلم فذكر فيها ما منّ به على الانسان من تعليمه ما لم يعلم فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الانسان بما علمه اياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم • فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) فافتتح السورة بالامر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصاً وعموماً • فقال (الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم) وخص الانسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وانه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت اليها النطفة فهى مبدأ تعلق التخليق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بانه الأكرم وهو الافعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فان الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو موليها والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقاً ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً • فقال الذى علم بالقلم فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الانسان خصوصاً . فقال (علم الانسان ما لم يعلم) فاشتملت هذه الكلمات على انه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها فان الوجود له مراتب أربعة احداها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق . المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله (علم الانسان ما لم يعلم) . المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والخطية فالخطية مصرح بها فى قوله الذى علم بالقلم واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فان الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم وكل شيء فى الخارج فبخلقه وجد وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان فباقداره وخلقه وتعليمه وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله الا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرف الى عباده بتعليمهم اياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى فكان العلم أحد الادلة

الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفا وفضلا له . الوجه التاسع والثلاثون انه سبحانه سمي الحجة العلمية سلطاناً ، قال ابن عباس رضى الله عنه كل سلطان فى القرآن فهو حجة وهذا كقوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون) يعنى ماعندكم من حجة بما قلتم ان هو الا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى (ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان) يعني ماأنزل بها حجة ولا برهاناً بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم ، وقال تعالى (أم لكم سلطان مبين فائتوا بكتابكم ان كنتم صادقين) يعني حجة واضحة فائتوا بها ان كنتم صادقين فى دعواكم الا موضعاً واحداً اختلف فيه وهو قوله (ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه) فقيل المراد به القدرة والملك أى ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان وقيل هو على بابه أى انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود ان الله سبحانه سمى علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد فان الحجة تنقاد لها القلوب وأما اليد فانما ينقاد لها البدن فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وان أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه ان لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والاسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة فانه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو اما لضعف حجته وسلطانه واما لقهر سلطان اليد والسيف له والا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له ،

• الوجه الأربعون ان الله تعالى وصف أهل النار بالجهل وأخبر انه سد عليهم طرق العلم فقال تعالى حكاية عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لاصحاب السعير) فاخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فاخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهي العقل والسمع والبصر كما قال فى موضع آخر (صم بكم عمى فهم لايعقلون) وقال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور) وقال تعالى (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم

من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالانعام تارة وتارة بالحمار الذى يحمل الأسفار وتارة جعلهم أضل من الانعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده وتارة جعلهم أمواتاً غير أحياء وتارة أخبر انهم في ظلمات الجهل والضلال وتارة أخبر ان على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم كما انه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم كما تقدم والله المستعان . الوجه الحادى والأربعون ما في الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وهذا يدل على ان من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيراً كما أن من أراد به خيراً فقهه فى دينه ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيراً اذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل وأما ان أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه فى الدين فقد أريد به خيراً فان الفقه حينئذ يكون شرطاً لارادة الخير وعلى الأول يكون موجباً والله أعلم . الوجه الثانى والأربعون ما فى الصحيحين أيضا من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به شبه صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والادوية وسائر مصالح العباد فانها بالعلم والمطر وشبه القلوب بالاراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته ثم قسم الناس الى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده . أحدها أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فانه بمنزلة انبات الكلأ والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية . القسم الثانى أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقهاً فى معانيه ولا استنباطاً ولا استخراجاً لوجوه الحكم والفوائد

منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه واعرابه ولم يرزق فيه فهماً خاصاً عن الله كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكماً أو حكمين ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين فهؤلاء بمنزلة الارض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع فهؤلاء القسمان هم السعداء والاولون أرفع درجة وأعلى قدراً (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) • القسم الثالث الذين لا نصيب لهم منه لا حفظاً ولا فهماً ولا رواية ولا دراية بل هم بمنزلة الأرض التى هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الاشقياء والقسمان الأولان اشتركا فى العلم والتعليم كل بحسب ماقبله ووصل اليه فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه والقسم الثالث لا علم ولا تعليم فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه وهؤلاء شر من الأنعام وهم وقود النار فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه الى شقيهم وسعيدهم وتقسم سعيدهم الى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد وفيه دلالة على ان حاجة العباد الى العلم كحاجتهم الى المطر بل أعظم وأنهم اذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الارض التى فقدت الغيث • قال الامام أحمد الناس محتاجون الى العلم أكثر من حاجتهم الى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج اليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه بعدد الأنفاس وقد قال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) • شبه سبحانه العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ثم شبه القلوب بالاودية فقلب كبير يسع علماً كثيراً كواد عظيم يسع ماء كثيراً وقلب صغير انما يسع علماً قليلا كواد صغير انما يسع ماء قليلا • فقال (فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً) هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فانه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادى زبداً يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادى كذلك الشبهات الباطلة اذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر في القلب ماينفع صاحبه والناس من الهدي ودين الحق كما يستقر في الوادى الماء الصافى ويذهب الزبد جفاء وما يعقل

عن الله أمثاله الا العالمون ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر • فقال (ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) • يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فانه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الاضاءة والاشراق والاحراق فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الارض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم • قال الله تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) • الوجه الثالث والاربعون ما في الصحيحين أيضاً من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله بحيث اذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم وهي خيارها وأشرفها عند أهلها فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس • الوجه الرابع والاربعون ما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً • اخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب الى الهدى بدعوته له مثل اجر من اهتدى به • والمتسبب الى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لان هذا بذل قدرته في هداية الناس وهذا بذل قدرته في ضلالتهم فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور في غير هذا الموضع • قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) • وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وهذا يدل على ان من دعا الامة الى غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عدوه حقاً لانه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته اليه وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان • الوجه الخامس والاربعون ما خرجا في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها • فاخبر

صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي لاحد ان يحسد أحدا يعني حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير ان يتمنى زوال نعمة الله عنه الا في واحدة من هاتين الخصلتين وهي الاحسان الى الناس بعلمه أو بماله • وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به • الوجه السادس والاربعون قال الترمذي حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا سلمة بن رجاء حدثنا الوليد بن جميد حدثنا القاسم عن أبي أمامة الباهلي قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله وملائكته وأهل السموات والارض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير • قال الترمذي هذا حديث حسن غريب سمعت أبا عمار الحسين بن حريث الخزاعي • قال سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم عامل معلم يدعى كبيراً في ملكوت السموات وهذا مروي عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الامة رجلان فرجل أعطاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفداً ولم يشتر به ثمناً أولئك يصلي عليهم طير السماء وحيتان البحر ودواب الارض والكرام الكاتبون ورجل آتاه الله علماً فضن به عن عباده وأخذ به صفداً واشترى به ثمناً فذلك يأتي يوم القيامة يلجم بلجام من نار ذكره ابن عبد البر مرفوعاً وفي رفعه نظر • وقوله ان الله وملائكته وأهل السموات والارض يصلون على معلم الناس الخير لما كان تعليمه للناس الخير سبباً لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بان جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الارض ما يكون سبباً لنجاته وسعادته وفلاحه • وأيضاً فان معلم الناس الخير لما كان مظهراً لدين الرب وأحكامه ومعرفاً لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفاً له واظهاراً للثناء عليه بين أهل السماء والارض • الوجه السابع والاربعون ما رواه أبو داوود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما انما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر • وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان بن أيمن عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من غدا لعلم يتعلمه فتح

الله له به طريقاً الى الجنة وفرشت له الملائكة أكنافها وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الانبياء ان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما انما ورثوا العلم فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم وهذا حديث حسن والطريق التي يسلكها الى الجنة جزاء على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة الى رضا ربه ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعاً له وتوقيراً واكراماً لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له لانه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم تناسب فان الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبنى آدم وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى • ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم ويثنون على مؤمنيهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة مالا يريده العبد ولا يخطر بباله • كما قال بعض التابعين وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد • وقال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم)• فأي نصح للعباد مثل هذا الا نصح الانبياء فاذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما • وقال أبو حاتم الرازى سمعت ابن أبي أويس يقول سمعت مالك بن أنس يقول معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تضع أجنحتها يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الايدي وقال أحمد بن مروان المالكي فى كتاب المجالسة له حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى • قال سمعت أحمد ابن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وفى المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث فقال والله لاطرقن غدا نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومشى فى النعلين فجفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الاكلة • وقال الطبراني سمعت أبا يحيي زكريا ابن يحيي الساجي • قال كنا نمشي فى بعض أزقة البصرة الى باب بعض المحدثين

فاسرعنا المشى وكان معنا رجل ماجن منهم فى دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط • وفى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال • قال قلت يا رسول الله انى جئت أطلب العلم قال مرحباً بطالب العلم ان طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب • وذكر حديث المسح على الخفين • قال أبو عبد الله الحاكم اسناده صحيح • وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ومثله لا يقال بالرأى ففى هذا الحديث حف الملائكة له بأجنحتها الى السماء وفى الأول وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل والحف بالاجنحة حفظ وحماية وصيانة فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها اياه وحياطته وحفظه فلو لم يكن لطالب العلم الا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفاً وفضلا • وقوله صلى الله عليه وسلم ان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء فانه لما كان العالم سبباً فى حصول العلم الذى به نجاة النفوس من أنواع المهلكات وكان سعيه مقصوراً على هذا وكانت نجاة العباد على يديه جوزى من جنس عمله وجعل من فى السموات والأرض ساعياً فى نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له واذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم • وقد قيل ان من فى السموات ومن فى الارض المستغفرين للعالم عام فى الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره ويؤكد هذا قوله حتى الحيتان فى الماء وحتى النملة فى جحرها • فقيل سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم مايحل منها وما يحرم ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وارفقها بالحيوان والعالم أشفق الناس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلق له وبالجملة فالرحمة والاحسان التى خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لهما حظهما منه انما يعرف بالعلم فالعالم معرف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم والله أعلم • وقوله وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب فان القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره فى اقطار العالم وهذه حال العالم • وأما الكواكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه وهذه حال العابد الذى يضيء نور عبادته عليه دون غيره وان جاوز نور عبادته غيره فانما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة • ومن هذا الأثر المروى اذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد ادخل الجنة فانما كانت منفعتك لنفسك ويقال للعالم اشفع تشفع فانما كانت منفعتك للناس•

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما اذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقيه فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للفقيه اشفع تشفع وفي التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو أن الجهل كالليل في ظلمته وحندسه والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب • وأيضاً فالدين قوامه وزينته واضاءته بعلمائه وعباده فاذا ذهب علماؤه وعباده ذهب الدين كما ان السماء اضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها فاذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ما توعد وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب • فان قيل كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهي أعظم نوراً • قيل فيه فائدتان • احداهما ان نور القمر لما كان مستفاداً من غيره كان تشبيه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس • الثانية أن الشمس لا يختلف حالها في نورها ولا يلحقها محاق ولا تفاوت في الاضاءة • وأما القمر فانه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينقص كما أن العلماء في العلم على مراتبهم من كثرته وقلته فيفضل كل منهم في علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه كما يكون القمر كذلك فعالم كالبدر ليلة تمه وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها الى آخر مراتبه وهم درجات عند الله • فان قيل تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم كقوله صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم وهذا هي في تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر • قيل أما تشبيه العلماء بالنجوم فان النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وكذلك العلماء • والنجوم زينة للسماء • فكذلك العلماء زينة للأرض • وهي رجوم للشياطين حائلة بينهم بين استراق السمع لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارد الى الرسل من الله على أيدي ملائكته وكذلك العلماء رجوم لشياطين الانس والجن الذي يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً والعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين • ولكن الله سبحانه أقامهم حراساً وحفظة لدينه ورجوماً لأعدائه وأعداء رسله فهذا وجه تشبيههم بالنجوم وأما تشبيههم بالقمر فذلك كان في مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا علماء كما يفضل القمر سائر الكواكب فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله • وقوله ان العلماء ورثة الانبياء هذا من أعظم مناقب لأهل العلم فان الانبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم • ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه الى ورثته اذهم الذين يقومون مقامه من بعده ولم يكن بعد الرسل من يقوم

مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به الا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم · وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس اليهم فان الميراث انما يكون لاقرب الناس الى الموروث وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو فى ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء ·وفيه أيضاً ارشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيرهم وتوقيرهم واجلالهم فانهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الامة وخلفاؤهم فيهم · وفيه تنبيه على ان محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو فى موروثهم · قال على كرم الله وجهه ورضى عنه محبة العلماء دين يدان به · وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ·وورثة الانبياء سادات أولياء الله عزوجل · وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الانبياء وطريقتهم فى التبليغ من الصبر والاحتمال ومقابلة إساءة الناس اليهم بالاحسان والرفق بهم واستجلابهم الى الله باحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم فانه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره · وفيه أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقى من صغار العلم الى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الاب بولده الطفل فى ايصال الغذاء اليه فان أرواح البشر بالنسبة الى الانبياء والرسل كالاطفال بالنسبة الى آبائهم بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل

ومن لا يربيه الرسول ويسقه * لباناً له قد درّ من ثدى قدسه
فذاك لقيط ماله نسبة الولا * ولا يتعدى طور ابناء جنسه

وقوله ان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما انما ورثوا العلم هذا من كمال الانبياء وعظم نصحهم للامم وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل وحسم جميع المواد التي توهم بعض النفوس ان الانبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها فحماهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية · ثم لما كان الغالب على الناس أن احدهم يريد الدنيا لولده من بعده ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذى عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التى تقول فلعله ان لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده فقال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة فلم تورث الانبياء ديناراً ولادرهما وانما ورثوا العلم · وأما قوله تعالى وورث سليمان داوود فهو ميراث العلم والنبوة لاغير · وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم وهذا لان داوود عليه السلام كان له أولاد كثير سوى سليمان فلو كان الموروث

هو المال لم يكن سليمان مختصاً به • وأيضاً فان كلام الله يصان عن الاخبار بمثل هذافانه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه •ومن المعلوم ان كل أحد يرثه ابنه وليس في الاخبار بمثل هذا فائدة • وأيضاً فان ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهـذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال • قال تعالى (ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داوود) وانما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ماكان لابيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة (ان هذا لهو الفضل المبين) • وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام (واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة الى الله والا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله فيسأل الله العظيم ولداً يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه ونسب الانبياء الى ما هم برآء منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهدايته . ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بالسوق فوجدهم في تجاراتهم وبياعاتهم فقال أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في مسجده فقاموا سراعاً الى المسجد فلم يجدوا فيه الا القرآن والذكر ومجالس العلم فقالوا أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال هذا ميراث محمد صلى الله عليه وسلم يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم أو كما قال . وقوله فمن أخذه أخـذ بحظ وافر أعظم الحظوظ وأجـداها ما نفع العبد ودام نفعه له وليس هـذا الا حظه من العلم والدين فهو الحظ الدائم النافع الذي اذا انقطعت الحظوظ لاربابها فهو موصول له أبد الآبدين وذلك لانه موصول بالحي الذي لا يموت فلذلك لا ينقطع ولا يفوت وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشي متعلقاتها كما قال تعالى (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فان الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل الى عمله وهذه هي المصيبة التي لا تجبر عياذاً بالله واستعانة به وافتقاراً وتوكلا عليه ولا حول ولا قوة الا به . وقوله موت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم لما كان صلاح الوجود بالعلماء ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا كان موت العالم مصيبة لا يجبرها الا خلف غيره له . وأيضا فان العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك فموتهم فساد لنظام العالم ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خلفاً عن سلف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده .

وتأمل اذا كان فى الوجود رجل قد فاق العالم فى الغنى والكرم وحاجتهم الى ما عنده شديدة وهو محسن اليهم بكل ممكن ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثيرومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق كما قيل

تعلم ماالرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر يموت بموته بشر كثير

وقال آخر

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

• الوجه الثامن والاربعون ما روى الترمذى من حديث اوليد بن مسلم حدثنا روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد . قال الترمذى غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم قلت قد رواه او جعفر محمد بن الحسن بن على اليقطيني حدثنا عمر بن سعيد بن سنان حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الخطيب والاول هو المحفوظ عن روح مجاهد عن ابن عباس وما أرى الوهم وقع في هذا الحديث الا من أبي جعفر لان عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار عن الوليد عن روح عن الزهرى عن سعيد حديث فى السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة وحديث ابن عباس كانا فى كتاب ابن سنان عن هشام يتلو أحدهما الآخر فكتب أبو جعفر اسناد حديث أبي هريرة رضى الله عنه ثم عارضه لسهو أوزاغ نظره فنزل الى متن حديث ابن عباس فركب متن هذا على اسناد هذا وكل واحد منهما ثقة مأمون برىء من تعمد الغلط وقد رواه ابو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران حدثنا شيبان أبو الربيع السمان عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شئ دعامة ودعامة الاسلام الفقه فى الدين والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد وهذا الحديث علة وهو أنه روى من كلام أبي هريرة وهو أشبه رواه همام بن يحي حدثنا يزيد بن عياض حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان عن يسار عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين قال وقال أبو هريرة لان أفقه ساعة أحب الىّ من أن أحيي ليلة أصليها حتى أصبح والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شئ دعامة ودعامة الدين الفقه • وقد روى باسناد فيه من لا يحتج به من حديث

عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عمر بن الخطاب يرفعه ان الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع والف مجتهد وألف متعبد • وقال المزني روى عن ابن عباس أنه قال ان الشياطين قالوا لابليس ياسيدنا مالنا نراك تفرح بموت العالم مالاتفرح بموت العابد والعالم لانصيب منه والعابد نصيب منه • قال انطلقوا فانطلقوا الى عابد فاتوه في عبادته فقالوا انا نريد أن نسألك فانصرف فقال ابليس هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة فقال لا أدري فقال أترونه كفر في ساعة ثم جاؤا الى عالم في حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم فقالوا انا نريد أن نسألك فقال سل فقال هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة قال نعم قالوا كيف قال يقول كن فيكون فقال أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد على عالماً كثيراً . وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وانهم سألوا العابد فقالوا هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه فقال لا أدرى فقال أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله وسألوا العالم عن ذلك فقال هذه المسئلة محال لانه لو كان مثله لم يكن مخلوقا فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل فاذا كان مخلوقاً لم يكن مثله بل كان عبداً من عبيده وخلقاً من خلقه فقال أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين أو كما قال • وروى عن عبد الله بن عمرو فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها وهذا معناه صحيح فان العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه فكل ما أراد احياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة ولا شيء احب اليه من زواله من بين ظهرهم ليتمكن من افساد الدين وإغواء الامة • وأما العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه في خاصة نفسه وهيهات له ذلك • الوجه التاسع والاربعون ما روي الترمذى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم • قال الترمذى هذا حديث حسن • ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تسوى لديه جناح بعوضة كانت وما فيها في غاية البعد منه وهذا هو حقيقة اللعنة وهو سبحانه انما خلقها مزرعة للآخرة ومعبراً اليها يتزود منها عباده اليه فلم يكن يقرب منها الا ما كان متضمناً لاقامة ذكره ومفضياً الى محابه وهو العلم الذي به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجد ولهذا خلقها وخلق أهلها • كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) • وقال (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل

شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علماً) فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه انما خلق السموات والارض وما بينهما ليعرف باسمائه وصفاته وليعبد فهذا المطلوب وما كان طريقاً اليه من العلم والتعلم فهو المستثني من اللعنة واللعنة واقعة على ماعداه اذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة فانه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب والله سبحانه انما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى اليه • وماعداه فهو مبغوض له مذموم عنده • الوجه الخمسون ما رواه الترمذى من حديث أبي جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتي يرجع • قال الترمذى هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وانما جعل طلب العلم من سبيل الله لان به قوام الاسلام كما أن قوامه بالجهاد فقوام الدين بالعلم والجهاد ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير والثاني الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل وهو جهاد الائمة وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه • قال تعالى فى سورة الفرقان وهي مكية (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضاً فان المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم فى الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا • فقد قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن • والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به الي الله • ولهذا قال معاذ رضى الله عنه عليكم بطلب العلم فان تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر • كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز) فذكر الكتاب والحديد اذ بهما قوام الدين كما قيل

فما هو الا الوحي أو حد مرهف * تميل ظباه أخدعا كل مايل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل * وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة والسيف يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضى الله عنهم قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) بالامراء والعلماء فانهم

المجاهدون فى سبيل الله هؤلاء بايديهم وهؤلاء بالسنتهم فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل • قال كعب الاحبار طالب العلم كالغادى الرائح فى سبيل الله عز وجل • وجاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم اذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد وقال سفيان بن عيينة من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء من رأى الغدوّ والرواح الى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى عقله ورأيه ، الوجه الحادى والخمسون ما رواه الترمذى حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن الاعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة ، قال الترمذى هذا حديث حسن قال بعضهم ولم يقل فى هذا الحديث صحيح لانه يقال دلس الاعمش فى هذا الحديث لانه رواه بعضهم فقال حدثت عن أبى صالح والحديث رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن الاعمش عن أبي صالح قال الحاكم فى المستدرك هو صحيح على شرط البخارى ومسلم رواه عن الاعمش جماعة منهم زايدة وأبو معاوية وابن نمير وقد تقدم حديث أبي الدرداء فى ذلك والحديث محفوظ وله أصل وقد تظاهر الشرع والقدر على ان الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك • وقد روى من حديث عائشة رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الانصارى عن الزهري عن عروة عنها مرفوعاً ولفظه أوحي الله الىّ أنه من سلك مسلكا يطلب العلم سهلت له طريقاً الى الجنة • الوجه الثانى والخمسون ان النبي صلي الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ففى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلي الله عليه وسلم قال نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فان دعوتهم تحيط من ورائهم وروى هذا الاصل عن النبي صلي الله عليه وسلم ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وجبير بن مطعم وأنس بن مالك وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير قال الترمذى حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح وحديث زيد بن ثابت حديث حسن وأخرج الحاكم فى صحيحه حديث جبير بن مطعم والنعمان بن بشير وقال فى حديث جبير على شرط البخارى ومسلم ولو لم يكن فى فضل العلم الا هذا وحده لكفى به شرفاً فان النبي صلي الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه هي مراتب العلم • أولها وثانيها سماعه وعقله فاذا سمعه وعاه بقلبه أي عقله واستقر فى قلبه كما يستقر الشئ الذى يوعي فى وعائه ولا يخرج منه

وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ولهذا كان الوعي والعقل قدراً زايداً على مجرد ادراك المعلوم • المرتبة الثالثة تعاهده وحفظه حتى لاينساه فيذهب • المرتبــة الرابعة تبليغه وبثه فى الامة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه فى الامة فهو بمنزلة الكنز المدفون فى الارض الذى لا ينفق منه وهو معرض لذهابه فان العلم مالم ينفق منه ويعلم فانه يوشك أن يذهب فاذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق فمن قام بهذه المراتب الاربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فان النضرة هى البهجة والحسن الذى يكساه الوجه من آثار الايمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة • كما فى قوله تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً) فالنضرة فى وجوههم والسرور فى قلوبهم فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة فى الوجه • كما قال تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) • والمقصود ان هذه النضرة فى وجه من سمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها فهى أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه • وقوله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه الى من هو أفقه منه تنبيه على فائدة التبليغ وان المبلغ قد يكون أفهــم من المبلغ فيحصل له فى تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ فاذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها • وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم الى آخره أى لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فانها تنفى الغل والغش وهو فساد القلب وسخايمه فالمخلص لله إخلاصــه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة لانه قد انصرفت دواعى قلبه وارادته الى مرضاة ربه فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء . ولهذا لما علم ابليس أنه لاسبيل له على أهل الاخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والاهلاك فقال (فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ، قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فالاخلاص هو سبيل الخلاص والاسلام هو مركب السلامة والايمان خاتم الامان ، وقوله ومناصحة أئمــة المسلمين هذا أيضاً مناف للغل والغش فان النصيحة لا تجامع الغل اذ هي ضده فمن نصح الائمة والامة فقد برئ من الغل ، وقوله ولزوم جماعتهم هذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش فان

صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم مايحب لنفسه ويكره لهم مايكره لها ويسوؤه مايسوؤهم ويسره مايسرهم وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن عليهم والعيب والذم لهم كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فان قلوبهم ممتلئة غلا وغشاً ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الاخلاص وأغشهم للائمة والامة وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين فهؤلاء أشد الناس غلا وغشاً بشهادة الرسول والامة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك فانهم لايكونون قط الا أعوانا وظهراً على أهل الاسلام فاى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته وهذا أمر قد شاهدته الامة منهم ومن لم يشاهد فقد سمع منه مايصم الآذان ويشجي القلوب . وقوله فان دعوتهم تحيط من ورائهم هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم فتلك الدعوة التى هي دعوة الاسلام وهم داخلوها لما كانت سوراً وسياجا عليهم أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التى هي دعوة الاسلام كما أحاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الامة وتلم شعثها وتحيط بها فمن دخل فى جماعتها أحاطت به وشملته . الوجه الثالث والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتبليغ العلم عنه ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار • وقال ليبلغ الشاهد منكم الغائب روى ذلك أبو بكرة ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأسماء بنت يزيد بن السكن وحجير وأبو شريح وسرى بنت نبهان ومعاوية بن حيدة القشيري وعم أبي حرة وغيرهم فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما فى ذلك من حصول الهدى بالتبليغ وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب فله من الاجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره لأنه هو الداعي اليه ولو لم يكن فى تبليغ العلم عنه الا حصول مايحبه صلى الله عليه وسلم لكفى به فضلا • وعلامة المحب الصادق أن يسعي فى حصول محبوب محبوبه ويبذل جهده وطاقته فيه • ومعلوم أنه لا شيء أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ايصاله الهدى الى جميع الامة فالمبلغ عنه ساع فى حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحبهم اليه وهو نائبه وخليفته فى أمته وكفي بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله • الوجه الرابع والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم بالمناقب العلمية فى أعلا الولايات الدينية وأشرفها وقدمه بالعلم والافضل على غيره • فروي مسلم فى صحيحه

من حديث أبي مسعود البدري عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم إسلاما او سناً وذكر الحديث فقدم في الامامة تفضيله العلم على تقدم الاسلام والهجرة • ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به لكن انما راعي التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالافضل على غيره وهذا يدل على شرف العلم وفضله وان أهله هم أهل التقدم الى المراتب الدينية • الوجه الخامس والخمسون ماثبت في صحيح البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها وهو أشرف قسمي علمه وتعليمه فان المعني هو المقصود واللفظ وسيلة اليه فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها وبينهما كما بين الغايات والوسائل • الوجه السادس والخمسون مارواه الترمذي وغيره في نسخة عمرو ابن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة • قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق احمد في المسند أكثرها أو كثيراً منها ولهذا الحديث شواهد فجعل النبي صلى الله عليه وسلم النهمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الايمان وأوصاف المؤمنين وأخبر أن هذا لايزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ولهذا كان أئمة الاسلام اذا قيل لاحدهم الى متى تطلب العلم فيقول الى الممات • قال نعيم ابن حماد سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث فقالوا له الى متي تسمع قال الى الممات • وقال الحسين بن منصور الجصاص قلت لاحمد بن حنبل رضى الله عنه الى متى يكتب الرجل الحديث قال الى الموت • وقال عبد الله بن محمد البغوي سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول انما أطلب العلم الى أن أدخل القبر • وقال محمد بن اسمعيل الصائغ كنت أصوغ مع أبي ببغداد فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه فأخذ أبي بمجامع ثوبه فقال ياأبا عبد الله ألا تستحي الى متى تعدو مع هؤلاء قال الي الموت • وقال عبد الله بن بشر الطالقاني أرجو أن يأتيني أمر الله والمحبرة بين يدى ولم يفارقني العلم والمحبرة • وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري جاء ابن بسطام الحافظ يسألني عن الحديث فقلت له ما أشد حرصك على الحديث فقال او ما احب أن أكون في قطار آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل

ب العلماء متى يحسن بالمرء أن يتعلم قال ماحسنت به الحياة وسئل الحسن عن الرجل
انون سنة أيحسن أن يطلب العلم قال ان كان يحسن به أن يعيش • الوجه السابع والخمسون
ما رواه الترمذي أيضاً من حديث ابراهيم بن الفضل عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله
عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها
فهو أحق بها • قال الترمذي هذا حديث غريب لانعرفه الا من هذا الوجه وابراهيم
ابن الفضل المدني المخزومي يضعف فى الحديث من قبل حفظه • وهذا أيضاً شاهد
لما تقدم وله شواهد والحكمة هي العلم فاذا فقده المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة
من نفائسه فاذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجدانها • كذلك المؤمن اذا وجد ضالة
قلبه وروحه التى هو دائماً فى طلبها ونشدانها والتفتيش عليها وهذا من أحسن الامثلة فان
قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجده أعظم من طلب صاحب الضالة لها • الوجه الثامن
والخمسون • قال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا خلف بن أيوب عن عوف عن ابن
سيرين عن أبي هريرة رضي الله الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم خصلتان لايجتمعان
في منافق حسن سمت وفقه فى الدين • قال الترمذي هذا حديث غريب ولا يعرف
هذا الحديث من حديث عوف الا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري ولم أر
أحداً يروى عنه غير أبى كريب محمد بن العلاء ولا أدرى كيف هو وهذه شهادة بان من
اجتمع فيه حسن السمت والفقه فى الدين فهو مؤمن وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقاً
وان كان اسناده فيه جهالة فان حسن السمت والفقه فى الدين من أخص علامات الايمان ولن
يجمعهما الله فى منافق فان النفاق ينافيهما وينافيانه • الوجه التاسع والخمسون قال الترمذي
حدثنا مسلم بن حاتم الانصاري حدثنا أبو حاتم البصرى حدثنا محمد بن عبد الله الانصاري
عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب • قال قال أنس بن مالك رضى الله عنه
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يابني ان قدرت ان تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش
لاحد فافعل ثم قال يابني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ومن أحبنى كان
معى فى الجنة وفى الحديث قصة طويلة • قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا
الوجه ومحمد بن عبد الله الانصارى صدوق وأبوه ثقة وعليّ بن زيد صدوق الا أنه ربما
يرفع الشيء الذى يوقفه غيره سمعت محمد بن بشار يقول قال أبو الوليد قال شعبة حدثنا
عليّ بن زيد وكان رفاعا • قال الترمذى ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية
الا هذا الحديث بطوله وقد روى عباد المنقرى هذا الحديث عن عليّ بن زيد عن أنس
ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب وذاكرت به محمد بن اسمعيل فلم يعرفه ولم يعرف لسعيد

ابن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره • ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد
ابن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بسنتين • قلت ولهذا الحديث شواهد • منها ما رواه
الدارمي عبدالله حدثنا محمد بن عيينة عن مروان بن معاوية الفزاري عن كثير بن عبدالله
عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث اعلم قال ما أعلم يارسول الله
قال اعلم يابلال قال ما أعلم يارسول الله قال انه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي
كان له من الاجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن ابتدع
بدعة ضلالة لايرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لاينقص ذلك من
أوزار الناس شيئاً رواه الترمذي عنه وقال حديث حسن • قال ومحمد بن عيينة مصيصي
شامي وكثير بن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزني وفي حديثه ثلاثة أقوال لاهل
الحديث منهم من يصححه ومنهم من يحسنه وهما للترمذي • ومنهم من يضعفه ولا يراه
حجة كالامام أحمد وغيره ولكن هذا الاصل ثابت من وجوه كحديث من دعا الى هدى
كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه وهو صحيح من وجوه • وحديث من دل على
خير فله مثل أجر فاعله وهو حديث حسن رواه الترمذي وغيره فهذا الاصل محفوظ
عن النبي صلى الله عليه وسلم فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر
ذكره • الوجه الستون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بطلبة العلم خيراً وما ذاك الا
لفضل مطلوبهم وشرفه • قال الترمذي حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبو داود الحفري
عن سفيان عن أبي هرون قال كنا نأتي أبا سعيد فيقول مرحباً بوصية رسول الله صلى
الله عليه وسلم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الناس لكم تبع وان رجالا يأتونكم
من أقطار الارض يتفقهون في الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً حدثنا قتيبة حدثنا
روح بن قيس عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون فاذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيراً فكان أبو سعيد
اذا رآنا قال مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال الترمذي هذا حديث
لانعرفه الا من حديث أبي هرون العبدي عن أبي سعيد قال أبو بكر العطار قال علي
ابن المديني قال يحيى بن سعيد كان شعبة يضعف أبا هرون العبدي قال يحيى وما زال ابن
عوف يروي عن أبي هرون حتى مات وأبوهرون اسمه عمارة بن جوين • الوجه الحادي
والستون ما رواه الترمذي من حديث أبي داود عن عبد الله بن سخبرة عن سخبرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم كان كفارة لما مضى هذا الاصل لم أجد فيه
الا هذا الحديث وليس بشيء فان أبا داود هو نفيع الاعمى غير ثقة ولكن قد تقدم أن العالم

يستغفر له من فى السموات ومن فى الارض وقد رويت آثار عـديدة عن جماعة من الصحابة فى هذا المعنى • منها مارواه الثوري عن عبد الكريم عن مجاهد عن ابن عباس أن ملكا موكلا بطالب العلم حتى يرده من حيث أبداه مغفوراً له • ومنهامارواه قطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن علي ماانتعل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوبا ليغدو فى طلب العلم الا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته وقد رواه ابن عدى مرفوعا • وقال ليس يرويه عن قطر غير اسمعيل بن يحيي التيمي • قلت وقد رواه اسمعيل بن يحيي هذا عن الثورى حدثنا محمد بن أيوب الجوزجاني عن مجالد عن الشعبي عن الاسود عن عائشة مرفوعا من انتعل ليتعلم خيراً غفرله قبل أن يخطو وقدرواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن قطر عن أبي الطفيل عن علي وهذه الاسانيد وان لم تكن بمفردها حجة فطالب العلم من أفضل الحسنات والحسنات يذهبن السيئات فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر مامضى من السيئات فقد دلت النصوص أن اتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات فالعمدة على ذلك لا على حديث أبي داود والله أعلم • وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فاذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف الى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء • الوجه الثاني والستون مارواه ابن ماجه فى سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى رضي الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا فى المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال كلا المجلسين الى خير أما هؤلاء فيدعون الله وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم • الوجه الثالث والستون أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه على ما من عليهم به منه قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار حدثنا أبو نعامة عن أبي عثمان عن أبى سعيد قال خرج معاوية الى المسجد فقال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال الله ما أجلسكم الا ذلك قالوا الله ما أجلسنا الا ذلك قال أما انى لم أستحلفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثاً عنه منى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه قال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للاسلام ومن علينا بك • قال الله ما أجلسكم الا ذلك قالوا الله ما أجلسنا الا ذلك • قال أما انى لم أستحلفكم تهمة لكم انه أتاني جبريل فأخبرني ان الله تعالى يباهي بكم الملائكة • قال الترمذي هذا حديث حسن غريب

لا نعرفه الا من هذا الوجه وأبو نعامة السعدى اسمه عمرو بن عيسى وأبو عثمان النهدى اسمه عبد الرحمن بن مل فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ويثنون عليه بذلك ويذكرون حسن الاسلام ويعترفون لله بالفضل العظيم اذ هداهم له ومنّ عليهم برسوله • وهذا أشرف علم على الاطلاق ولا يعنى به الا الراسخون فى العلم فانه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به واحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذى كان يحب سورة الاخلاص وقال احبها لانها صفة الرحمن عز وجل فقال حبك اياها أدخلك الجنة • وفى لفظ آخر اخبروه ان الله يحبه فدل على ان من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة والجهمية أشد الناس نفرةً وتنفيراً عن صفاته ونعوت كماله يعاقبون ويذمون من يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتنى بها ولهذا لهم المقت والذم عند الامة وعلى لسان كل عالم من علماء الاسلام والله تعالى أشد بغضاً ومقتاً لهم جزاءً وفاقاً • الوجه الرابع والستون • ان أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فالله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده فى تبليغ رسالاته وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه وخصهم بوحيه واختصهم بتفضيله وارتضاهم لرسالته الى عباده وجعلهم أزكى العالمين نفوساً وأشرفهم أخلاقاً وأكملهم علوماً وأعمالاً وأحسنهم خلقةً وأعظمهم محبة وقبولا فى قلوب الناس وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنئ وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم فى أممهم فانهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة وارشادهم الضال وتعليمهم الجاهل ونصرهم المظلوم وأخذهم على يد الظالم وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيهم عن المنكر وتركه والدعوة الى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين والجدال بالتى هى أحسن للمعاندين المعارضين • فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين • قال تعالى (قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعنى على بصيرة وأنا ادعو الى الله • أو المعنى ادعو الى الله على بصيرة فالقولان متلازمان فانه لا يكون من أتباعه حقاً الا من دعا الى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل صلى الله عليه وسلم فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملا وهداية وارشاداً وصبراً وجهاداً وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل اتباع الأنبياء ورأسهم وامامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه • قال الله تعالى (ومن يطع الله

والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم الى آخر المراتب وهؤلاء الاربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه • الوجه الخامس والستون ان الانسان انما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان والا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً وانما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فاذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فهؤلاء هم الجهال (ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم) أي ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلا للخير (لاسمعهم) أي لافهمهم والسمع ههنا سمع فهم والا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم • قال تعالى (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون) • وقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون) وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب الا أصواتاً مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها فلا تسمع الا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وان كان التقدير الثاني أقرب الى اللفظ وأبلغ في المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة الا الصوت الحاصل للانعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الانسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان والسمع يراد به ادراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والاجابة والثلاثة في القرآن فمن الأول قوله (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) وهذا أصرح مايكون في ثبات صفة السمع له ذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضى الله عنها الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات لقد جاءت المجادلة تشكو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جانب البيت وانه ليخفى على بعض كلامها فانزل الله (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها) • والثانى سمع الفهم كقوله (ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم) أى لافهمهم (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) لما في قلوبهم من الكبر والاعراض عن قبول الحق ففيهم آفتان احداهما انهم لايفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه

لكن هم وهذا غاية النقص والعيب والثالث سمع القبول والاجابة كقوله تعالى (لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) أى قابلون مستجيبون • ومنه قوله (سماعون للكذب) أى قابلون له مستجيبون لأهله • ومنه قول المصلى سمع الله لمن حمده أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه • وقول النبي صلى الله عليه وسلم اذا قال الامام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم اى يجيبكم • والمقصود أن الانسان اذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الانسان الجاهل • الوجه السادس والستون ان العلم حاكم على ماسواه ولايحكم عليه شيء فكل شيء اختلف فى وجوده وعدمه وصحته وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكماله ونقصه ومدحه وذمه ومرتبته فى الخير وجودته ورداءته وقربه وبعده وافضائه الى مطلوب كذا وعدم افضائه وحصول المقصود به وعدم حصوله الى سائر جهات المعلومات فان العلم حاكم على ذلك كله فاذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الاتباع وهو الحاكم على المالك والسياسات والأموال والاقلام فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق لاعب وقلم بلا علم حركة عابث والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ولا يحكم شيء من ذلك على العلم وقد اختلف فى تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والادلة ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته فان الحاكم فى هذه المسألة هو العلم فبه واليه وعنده يقع التحاكم والتخاصم والمفضل منهما من حكم له بالفضل • فان قيل فكيف يقبل حكمه لنفسه • قيل وهذا أيضاً دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه فان الحاكم انما يسوغ أن يحكم لنفسه لاجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة فى حكمه لنفسه فانه اذا حكم حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه تهمة فانه اذا حكم بها انعزل عن مرتبته وانحط عن درجته فهو الشاهد المزكي العدل والحاكم الذى لا يجور ولا يعزل • فان قيل فماذا حكمه فى هذه المسألة التي ذكرتموها • قيل هذه المسألة كثر فيها الجدال واتسع المجال وأدلى كل منهم بحجته واستعلى بمرتبته والذى يفصل النزاع يعيد المسألة الى مواقع الاجماع الكلام فى نوع مراتب الكمال وذكر الافضل منهما والنظر فى أى هذين الامرين أولى به وأقرب اليه • فهذه الاصول الثلاثة تبين الصواب ويقع بها فصل الخطاب • فامامراتب الكمال فاربع النبوة والصديقية والشهادة والولاية وقد ذكرها الله سبحانه فى قوله (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وذكر تعالى هؤلاء الاربع في سورة الحديد فذكر تعالى الايمان به وبرسوله ثم ندب المؤمنين الى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم • فقال (ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) • وذكر المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم • والمقصود أنه ذكر فيها المراتب الاربعة الرسالة والصديقية والشهادة والولاية فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ويليها الصديقية فالصديقون هم أئمة اتباع الرسل ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة فان جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصديقية وان سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها فأفضلهما صديقهما فان استويا في الصديقية استويا في المرتبة والله أعلم • والصديقية هي كمال الايمان بما جاء به الرسول علماً وتصديقاً وقياما به فهي راجعة الى نفس العلم فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقاً له كان أتم صديقية فالصديقية شجرة أصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل فهذه كلمات جامعة في مسئلة العالم والشهيد وأيهما أفضل • الوجه السابع والستون ان النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله فهو رأس الامر والاعمال بعده على مراتبها ومنازلها والايمان له ركنان • أحدهما معرفة ماجاء به الرسول والعلم به • والثاني تصديقه بالقول والعمل والتصديق بدون العلم والمعرفة محال فانه فرع العلم بالشيء المصدق به فاذا العلم من الايمان بمنزلة الروح من الجسد ولا تقوم شجرة الايمان الا على ساق العلم والمعرفة فالعلم اذا أجل المطالب وأسنى المواهب • الوجه الثامن والستون ان صفات الكمال كلها ترجع الى العلم والقدرة والارادة والارادة فرع العلم فانها تستلزم الشعور بالمراد فهي مفتقرة الى العلم في ذاتها وحقيقتها والقدرة لاتؤثر الا بواسطة الارادة والعلم لايفتقر في تعلقه بالمعلوم الى واحدة منهما • وأما القدرة والارادة فكل منهما يفتقر في تعلقه بالمراد والمقدور الى العلم وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته • الوجه التاسع والستون ان العلم أعم الصفات تعلقاً بمتعلقه وأوسعها فانه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فذات الرب سبحانه وصفاته وأسماؤه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير وأما القدرة والارادة فكل منهما خاص التعلق أما القدرة فانها تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب

فهي أخص من العلم من هـذا الوجه وأعم من الارادة فان الارادة لاتتعلق الا ببعض الممكنات وهو ماأريد وجوده فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه • الوجه السبعون ان الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بانه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم • فقال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) • وقال في موضع آخر (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا • فأخبر سبحانه ان بالصبر واليقين تنال الامامة فى الدين وهى أرفع مراتب الصديقين واليقين هو كمال العلم وغايته فبتكميل مرتبة العلم تحصـل امامة الدين وهي ولاية آتيها العليم يختص الله بها من يشاء من عباده • الوجه الحادي والسبعون ان حاجة العباد الى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم الى الغـذاء لان الجسم يحتاج الى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين وحاجة الانسان الى العلم بعدد الانفاس لان كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه الى أن يكون مصاحباً لايمان أو حكمة فان فارقه الايمان اوحكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس الى حصول ذلك سبيل الا بالعلم فالحاجة اليه فوق الحاجة الى الطعام والشراب وقد ذكر الامام أحمد هـذا المعنى بعينه فقال الناس أحوج الى العلم منهم الى الطعام والشراب لان الطعام والشراب يحتاج اليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه كل وقت • الوجه الثانى والسبعون ان صاحب العلم أقل تعباً وعملا وأكثر أجراً واعتبر هذا بالشاهد فان الصناع والاجراء يعانون الاعمال الشاقة بأنفسهم والاستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل ويأخذ أضعاف ما يأخذونه • وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى حيث قال أفضل الاعمال ايمان بالله ثم الجهاد فجعل الجهاد تاليا للايمان وغيره مشقة ولكن الايمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الاعمال مع ان مشقة الجهاد فوق مشقته باضعاف مضاعفة وهذا لان العـلم يعرف مقادير الاعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبه لا يختار لنفسه الا أفضل الاعمال والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشـقة فهو يحتمل المشاق وان كان ما يعانيه مفضولا ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منـه واعتبر هذا بحال الصديق فانه أفضل الامة • ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجاً وصوماً وقراءة وصلاة وقراءة منه • قال أبو بكر بن عياش ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشئ وقر فى قلبه وهذا موضع المثل المشهور

من لى بمثل سيرك المدلل * تمشي رويداً وتجى فى الاول

الوجه الثالث والسبعون ان العلم امام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به فكل عمل

لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه • كما قال بعض السلف من عبد الله بغير علم كان مايفسد أكثر مما يصلح والاعمال انما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان وهو المحك • قال تعالى (هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) • قال الفضيل بن عياض هو أخلص العمل وأصوبه قالوا ياأبا علي ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل اذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل واذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص أن يكون لله • والصواب أن يكون على السنة • وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فهذا هو العمل المقبول الذى لايقبل الله من الاعمال سواه وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مراداً به وجه الله ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين الوصفين الا بالعلم فانه ان لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده وان لم يعرف معبوده لم يمكنه ارادته وحده فلولا العلم لما كان عمله مقبولا فالعلم هو الدليل على الاخلاص وهو الدليل على المتابعة • وقد قال الله تعالى (انما يتقبل الله من المتقين) وأحسن ماقيل فى تفسير الآية انه انما يتقبل الله عمل من اتقاه فى ذلك العمل وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره وهذا انما يحصل بالعلم واذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شئ وأجله وأفضله والله أعلم • الوجه الرابع والسبعون ان العامل بلا علم كالسائر بلا دليل • ومعلوم ان عطب مثل هذا أقرب من سلامته وان قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء . وكان شيخ الاسلام ابن تيمية يقول من فارق الدليل ضل السبيل ولا دليل الا بما جاء به الرسول • قال الحسن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم مايفسد أكثر مما يصلح فاطلبوا العلم طلباً لاتضروا بالعبادة واطلبوا العبادة طلباً لاتضروا بالعلم فان قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولو طلبوا العلم لم يدلهم على مافعلوا والفرق بين هذا وبين ماقبله أن العلم مرتبته فى الوجه الاول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره ومرتبته فى هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد الى المطلوب الموصل الى الغاية • الوجه الخامس والسبعون أن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت فى الصحيحين عنه انه كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما

ختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم • وفي بعض السنن أنه كان كبر تكبيرة الإحرام في صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء • والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له وهي أعظم نعمة لله على العبد ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضى الله في كل حركة ظاهرة وباطنة فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه وأن كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته ولو أراده لعجز عن كثير منه فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود • وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ • وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق • وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراراً إليها وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد وهو أنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدمها لنا ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة لا سيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه • ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع وصول أثر الهداية إليه فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاماً فحاجته إلى هداية الله مقرونة بأنفاسه وهي أعظم حاجة للعبد • وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المسؤول فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ خلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والأرض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن

يعلمه ويرشده ويهديه وهو بمنزلة التوسل الى الغنى بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئاً من ماله والتوسل الى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه وبرحمته ان يرحمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل واسرافيل وهذا والله أعلم لان المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الاملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد • أما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله الى الانبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة • وأما ميكائيل فهو الموكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شيء • وأما اسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحيي الله الموتى بنفخته فاذاهم قيام لرب العالمين • والهداية لها أربع مراتب وهي مذكورة في القرآن • المرتبة الاولى الهداية العامة وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التى بها قام أمره قال الله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوي والذي قدر فهدي) فذكر أموراً أربعة الخلق والتسوية والتقدير والهداية فسوي ماخلقه وأتقنه وأحكمه ثم قدر له أسباب مصالحه فى معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه اليها والهداية تعليم فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك • وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون انه قال لموسي (فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدى) وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها • المرتبة الثانية هداية البيان والدلالة التى أقام بها حجته على عباده وهذه لاتستلزم الاهتداء التام • قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدي) يعنى بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمي • وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) • وهذه المرتبة أخص من الاولى وأعم من الثالثة • وهي هدى التوفيق والالهام • قال الله تعالى (والله يدعو الي دار السلام ويهدى من يشاء الي صراط مستقيم) فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم • قال تعالي (انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) مع قوله (وانك لتهدى الي صراط مستقيم) فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفي هداية التوفيق والالهام • وقال النبي صلى الله عليه وسلم في تشهد الحاجة من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له • وقال تعالي (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) أى من يضله الله لا يهتدى أبداً وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء • وأما الثانية فشرط لاموجب فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة فان تخلف الهدى عنها مستحيل • المرتبة الرابعة الهداية فى الآخرة الى طريق الجنة والنار • قال تعالى (أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم

وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) • وأما قول أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية الى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية فى الدنيا التى أوصلتهم الى دار النعيم ولو قيل ان كلا الامرين مراد لهم وانهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم الى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلا مطابقاً لحاله • فقال تعالى (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب يدعونه الي الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدي وأمرنا لنسلم لرب العالمين) • الوجه السادس والسبعون ان فضيلة الشئ وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة اليه وعدم الاستغناء عنه وتارة من ظهور النقص والشر بفقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوبا ملائما فادراكه يعقب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وافضائه الى أجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه فاذا كان في نفسه كمالا وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته • ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فانه أعم شيء نفعاً وأكثره وأدومه والحاجة اليه فوق الحاجة الى الغذاء بل فوق الحاجة الى التنفس اذ غاية مايتصور من فقدهما فقد حياة الجسم • وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طرفة عين • ولهذا اذا فقد من الشخص كان شراً من الحمير بل كان شراً من الدواب عند الله ولا شيء أنقص منه حينئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده فلانه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس فان الجهل مرض ونقص وهو في غاية الايلام للنفس ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه * وما لجرح بميت ايلام * فحصول العلم للنفس ادراك منها لغاية محبوبها والاتصال به وذلك غاية لذتها وفرحتها وهذا بحسب المعلوم في نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأتمه فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها [illegible] حركاتها وهذا يتبين • الوجه السابع والسبعون [illegible] معلومه ووثوق النفس بادلة وجوده وبراهينه وشدة الحاجة الى معرفته وعظم النفع بها ولا ريب ان أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا اله الا هو رب العالمين وقيوم السموات والارضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه

في كماله • ولا ريب أن العلم به وباسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته الى سائر العلوم كنسبة معلومه الي سائر المعلومات وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده الى الملك الحق المبين ومفتقر اليه في تحقق ذاته وأينيته وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقق ذاته اليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده • ولاريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سبباً يستلزم العلم بمسببه كما ان العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده اليه استناد المصنوع الى صانعه والمفعول الى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ماسواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل • قال تعالي (ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) • فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي مابه صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلا مهملا بمنزلة الانعام السائبة بل ربما كانت الانعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها الذي أعطاها إياه خالقها وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها فنسي ربه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها • قال الله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه فلا التفات له الى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الامر حيران لايهتدى سبيلا • والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته يزيده ايضاحا

الشعور به وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذي هو سر الخلق والامر كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى • الوجه التاسع والسبعون ان اللذة بالمحبوب تضعف وتقوي بحسب قوة الحب وضعفه فكلما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم ولهذا تعظم لذة الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء وكذلك الجائع وكذلك من أحب شيئاً كانت لذته على قدر حبه إياه والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن فلذة النظر الى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وارادته وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله فاذا العلم هو أقرب الطرق الى أعظم اللذات وسيأتي تقرير هذا فيما بعد ان شاء الله تعالى • الوجه الثمانون ان كل ما سوى الله يفتقر الى العلم لاقوام له بدونه فان الوجود وجودان وجود الخلق ووجود الأمر والخلق والامر مصدرهما علم الرب وحكمته فكل ما ضمه الوجود من خلقه وأمره صادر عن علمه وحكمته فما قامت السموات والارض وما بينهما الا بالعلم ولا بعث الرسل وأنزلت الكتب الا بالعلم ولا عبد الله وحده وحمد وأثني عليه ومجد الا بالعلم ولا عرف الحلال من الحرام الا بالعلم ولا عرف فضل الاسلام على غيره الا بالعلم • واختلف هنا في مسئلة وهي أن العلم صفة فعلية أو انفعالية فقالت طائفة هو صفة فعلية لانه شرط أو جزء وسبب في وجود المفعول فان الفعل الاختياري يستدعي حياة الفاعل وعلمه وقدرته وارادته ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات • وقالت طائفة هو انفعالي فانه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه فان العالم يدرك المعلوم على ما هو به فادرا كه تابع له فكيف يكون متقدما عليه • والصواب ان العلم قسمان علم فعلي وهو علم الفاعل المختار بما يريد أن يفعله فانه موقوف على ارادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به فهذا علم قبل الفعل متقدم عليه مؤثر فيه وعلم انفعالي وهو العلم التابع للمعلوم الذي لا تأثير له فيه كعلمنا بوجود الانبياء والامم والملوك وسائر الموجودات فان هذا العلم لا يؤثر في المعلوم ولا هو شرط فيه فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس وكلا القسمين من العلم صفة كمال وعدمه من أعظم النقص يوضحه • الوجه الحادي والثمانون أن فضيلة الشيء تعرف بضده فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الاشياء ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد وكل ضرر يلحق العبد في دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل والعلم يقع على لذته من هذا الطعام مثلا مسموما أكله قطع أمعاءه في وقت معين لا يقدم على أكله وان قدم اليه لغلبة جوع أو استعجال وفاة فهو لعلمه بموافقة أكله مقصوده الذي هو خلاصه من العذاب بالجوع أو بغيره • وهنا اختلف في

مسئلة عظيمة وهي أن العلم هل يستلزم الاهتداء ولايتخلف عنه الهدى الالعدم العلم أو نقصه والاقم المعرفة الجازمة لايتصور الضلال وانه لايستلزم الهدى فقد يكون الرجل عالماً وهو ضال على عمد هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم فقالت فرقة من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال أن لا يهتدي وحيث ضل فلنقصان علمه واحتجوا من النصوص بقوله تعالي (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) فشهد تعالى لكل راسخ في العلم بالايمان • وبقوله تعالى (انما يخشي الله من عباده العلماء) • وبقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق) • وبقوله تعالى (شهد الله أنه لااله الاهو والملائكة وأولو العلم) • وبقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) قسم الناس قسمين • أحدهما العلماء بان ما أنزل اليه من ربه هو الحق • والثانى العمي فدل على أنه لاواسطة بينهما • وبقوله تعالى فى وصف الكفار (صم بكم عمى فهم لايعقلون) وبقوله (وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون) • وبقوله تعالي (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) • وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم • وكذلك قوله تعالي (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) • وقوله (وأضله الله على علم) قال سعيد بن جبير على علمه تعالي فيه • قال الزجاج أي على ما سبق فى علمه تعالي أنه ضال قبل أن يخلقه (وختم على سمعه) أى طبع عليه فلم يسمع الهدى (وعلى قلبه) فلم يعقل الهدى (وعلى بصره غشاوة) فلا يبصر أسباب الهدي وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم • ومنه قوله تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتي اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) فهم كانوا عدموا معرفة الرسول فسألوا أهل العلم ماذا قال ولما كان مطبوعاً علي قلوبهم • وقال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) • وقال تعالي(قل آمنوا به أولا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) فهذه شهادة من الله تعالي لأولي العلم بالايمان به وبكلامه • وقال تعالى عن أهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) فدل على أن أهل الضلال لا سمع لهم ولا عقل • وقال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) • فأخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله الا العالمون • والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها • وقال تعالي (ان الذين ...

ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله) • وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) • وقال تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون والنص بخلافه والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون وتارة بأنهم لا يعقلون وتارة بأنهم لا يشعرون وتارة بأنهم لا يفقهون وتارة بأنهم لا يسمعون • والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم وهو سمع القلب لا ادراك الصوت وتارة بأنهم لا يبصرون فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون • كقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) • وقوله تعالى (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) • وقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) • وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ قومه من أذاه ذلك ما بلغ اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون • وفي الصحيحين عنه من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين فدل على أن الفقه مستلزم لارادة الله الخير في العبد ولا يقال الحديث دل على أن من لم يرد الله به خيراً لم يفقهه في الدين ولا يدل على أن كل من فقهه في الدين فقد أراد به خيراً وبينهما فرق • ودليلكم انما يتم بالتقدير الثاني والحديث لا يقتضيه • لانا نقول النبي صلى الله عليه وسلم جعل الفقه في الدين دليلا وعلامة على ارادة الله بصاحبه خيراً والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه فان المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال .

وفي الترمذي وغيره عنه صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سمت وفقه في الدين فجعل الفقه في الدين منافياً للنفاق بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه الا على العلم الذي يصحبه العمل كما سئل سعد بن ابراهيم عن أفقه أهل المدينة قال أتقاهم • وسأل فرقد السبخي الحسن البصري عن شيء • فأجابه فقال ان الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت بعينيك فقيها انما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذي لا يهمز من فوقه ولا يسخر بمن دونه ولا يبتغي على علم علمه الله تعالى أجراً • وقال بعض السلف ان الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواه • وقال ابن مسعود رضي الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا • قالوا فهذا القرآن والسنة واطلاق الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم لهداية وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم • قالوا ولان الانسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك

نفسه على لذاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك • ولهذ[ا] وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) . قال سفيان الثورى كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالماً ان كان عالماً فمن أجهل منه وان كان لايعلم فمثل ذلك . وقوله (ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) • قال قبل الموت • وقال ابن عباس رضي الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه • قال قتادة اجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كل شيء عصي الله فيه فهو جهالة • وقال السدى كل من عصى الله فهو جاهل • قالوا ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لاتصدر المعصية من العبد فانه لو رأى صبياً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله اليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم والذنب محفوف بجهلين جهل بحقيقة الاسباب الصارفة عنه وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فما عصي الله الا بالجهل وما أطيع الا بالعلم فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة • وقالت الطائفة الاخرى العلم لايستلزم الهداية وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لايشك صاحبه فيه بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته • قالوا وهذا شيخ الضلال وداعي الكفر وإمام الفجرة ابليس عدو الله قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه فخالفه وعاند الامر وباء بلعنة الله وعذابه الدائم مع علمه بذلك ومعرفته به وأقسم له بعزته أنه يغوي خلقه أجمعين الا عباده منهم المخلصين فكان غير شاك في الله وفي وحدانيته وفي البعث الآخر وفي الجنة والنار ومع ذلك اختار الخلود في النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس • ولهذا (قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون) وهذا اعتراف منه بالبعث واقرار به وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه وممن اتبعه فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل • وقال تعالى خبراً عن قوم ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعني بينا لهم وعرفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه فكان كفر هؤلاء عن جهل • وقال تعالى حكاية عن موسى انه قال لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لأظنك يا فرعون مثبورا) أي هالكا على قراءة من فتح التاء وهي قراءة الجمهور وضم الكسائي وحده وقراءة الجمهور

أحسن وأوضح وأفخم معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الالزام بتحقق كفر فرعون وعناده ويشهد له قوله تعالى اخباراً عنه وعن قومه (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)فاخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلواً لاجهلا وقال تعالى لرسوله (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) يعني أنهم قد عرفوا صدقك وانك غير كاذب فيما تقول ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسرون • قال قتادة يعلمون انك رسول ولكن يجحدون • قال تعالى(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً) • وقال تعالى (ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) يعنى تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبانه الحق فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء وقال تعالى عن السحرة من اليهود (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) أي علموا من أخذ السحر وقبله لانصيب له فى الآخرة ومع هــذا العــلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه • وقال تعالي (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة وفى التوحيد كما هو في الانعام (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لاأشهد قل انما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (وفي الكتاب أنه منزل من عند الله لقوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) • وقال تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدي القوم الظالمين) • قال ابن عباس رضى الله عنهما هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به شاهدين له بالنبوة فلما بعث كفروا بغياً وحسداً • قال الزجاج أعلم الله عزوجل أنه لاجهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم لانهم كفروا بعد البينات ومعني كيف يهديهم أي لا يهديهم لأنهم قد عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمداً ومن أين لهؤلاء الهداية فإن الذي ترجي هدايته من كان ضالا ولا يدرى أنه ضال بل يظن أنه على هدى فاذا عرف الهدى اهتدى وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه فكيف يهدى الله مثل هذا • وقال تعالي عن اليهود (فلماجاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) • ثم قال (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا

ثم قال (بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) • قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن كفرهم شكا ولا اشتباهاً ولكن بغياً منهم حيث صارت النبوة في ولد اسماعيل • ثم قال بعد ذلك (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون) فاما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم تقول اذا خاطبت من عصاك عمداً كانك لم تعلم ما فعلت أو كانك لم تعلم بنهيي إياك ومنه على أحد القولين • قوله تعالى (فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) • قال السدى يعني محمداً صلى الله عليه وسلم واختاره الزجاج . فقال يعرفون ان أمر محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرون ذلك وأول الآية يشهد لهذا القول • وقال تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب) . قالوا فهل بعد هذه الآية بيان فان هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغي * وقصته معروفة حتى قيل انه كان أوتي الاسم الاعظم ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه في حق هذا . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وهذا يدل على ان قولهم (ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين) إنما بهت منهم وجحود وإما نفي لآيات الاقتراح والعنت ولا يجب الاتيان بها وقد وصف سبحانه ثمود بانهم كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال . (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) فى بينة مضيئة . وهذا كقوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة) أي مضيئة وحقيقته ... مبصرة فهي توجب له البصر فتبصره أي تجعله ذا بصر فهي موضحة مبينة ... كقوله تعالى (فبصرت به عن جنب) . وقوله (بصرت بما لم يبصروا به) ومنه ... أي ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود والثاني ... كقولك أبصرت زيداً وفي حديث ... قولا ... رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به . ومنه قوله تعالى (فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون) ... وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرون ما يقضي ... من النصر والتأييد وحسن العاقبة ... المبصر من

المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه ، والمقصود ان الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الامم فى سورة والشمس وضحاها لانه ذكر فيها انقسام النفوس الى الزكية الراشدة المهتدية والى الفاجرة الضالة الغاوية وذكر فيها الاصلين القدر والشرع ، فقال (فألهمها فجورها وتقواها) فهذا قدره وقضاؤه • ثم قال (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فهذا أمره ودينه وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى • فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوي والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد ،قالوا ويكفى في هذا اخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فاي علم أبين من علم من ورد القيامة ورأي ما فيها وذاق عذاب الآخرة ثم لو رد الى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه . وقال تعالى (ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) فهل بعد نزول الملائكة عيانا وتكليم الموتى لهم وشهادتهم للرسول بالصدق وحشر كل شئ فى الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ومع هذا فلا يؤمنون ولا ينقادون للحق ولا يصدقون الرسول • ومن نظر فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه صلى الله عليه وسلم لا يشكون أنه صادق فى قوله انه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر على الايمان • قال المسور بن مخرمة رضى الله عنه لابى جهل وكان خاله أى خال هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها قال أبو جهل لعنه الله تعالى يا ابن أخي والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الامين ما جربنا عليه كذباً قط فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله قال يا خال فلم لاتتبعونه قال يا ابن أخى تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فأطعموا وأطعمنا وسقوا وسقينا وأجاروا وأجرنا فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي فمتى ندرك هذه وهذا أمية بن أبى الصلت كان ينتظره يوماً بيوم وعلمه عنده قبل مبعثه . وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معاً معروفة واخباره برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال لا أؤمن بنبي من غير ثقيف أبداً وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك فيه وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه • ولما سأله اليهود عن التسع آيات

البينات فأخبرهم بها فقبلوا يده وقالوا نشهد أنك نبي قال فما يمنعكم أن تتبعوني قالوا ان داود عليه السلام دعا أن لا يزال في ذريته نبي وانا نخشي ان اتبعناك أن تقتلنا يهود فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها ومع هذا قد آثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة فقيل لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة ان محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشهد لله بالوحدانية وقيل يصير بذلك مسلماً وقيل ان كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلماً بذلك وان كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصر مسلماً الا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين • وهذه الاقوال الثلاثة فى مذهب الامام أحمد وغيره وعلى هذا فانما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الاسلام لان مجرد الاقرار والاخبار بصحة رسالته لا يوجب الاسلام الا أن يلتزم طاعته ومتابعته والا فلو قال أنا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه كان من أكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة ان الايمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرده ولا معرفة القلب مع ذلك بل لا بد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم أن الايمان هو مجرد معرفة القلب واقراره وفيما تقدم كفاية في إبطال هذه المقالة ومن قال ان الايمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وان لم يلتزم متابعته وعاداه وابغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا إلزام لا محيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما ورد عليهم وأجابوا بما يستحي العاقل من قوله كقول بعضهم إن ابليس كان مستهزئاً ولم يكن يقر بوجود لله ولا بأن الله ربه وخالقه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في أمثالها ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ونعوذ بالله من الخذلان • قالوا وقد بين القرآن أن الكفر أقسام • أحدها كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الاسلاف وهو كفر أكثر الاتباع والعوام • الثاني كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار أو رياسة سلطانية أو من له مآكل وأموال في قومه فيخاف منها على رياسته وهذا على ماله ومآكله فيؤثر الكفر على الايمان عمداً • الثالث كفر إعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداته وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون

من الكفر الا الاول ويجعلون الثانى والثالث كفرا لدلالته على الاول لالانه في ذاته كفر فليس عندهم الكفر الا مجرد الجهل • ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه وعلم أن عامة كفر الامم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤا به وهذا القرآن مملوء من الاخبار عن المشركين عباد الاصنام أنهم كانوا يقرون بالله وأنه هو وحده ربهم وخالقهم وأن الارض وما فيها له وحده وانه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وانه بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه وانه هو الذى سخر الشمس والقمر وأنزل المطر وأخرج النبات والقرآن مناد عليهم بذلك محتج بما أقروا به من ذلك على صحة مادعتهم اليه رسله فكيف يقال ان القوم لم يكونوا مقرين قط بان لهم رباً وخالقاً وهذا بهتان عظيم فالكفر أمر وراء مجرد الجهل بل الكفر الاغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر • قالوا والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمناً الا بهما جميعاً واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والانقياد والاستسلام فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمناً اذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام بل اذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً وأبعد عن الايمان من الكافر جهلا فان الجاهل اذا عرف وعلم فهو قريب الى الانقياد والاتباع وأما المعاند فلا دواء فيه • قال تعالى (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين)، قالوا فحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب الى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلماً الا به ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم . قالوا وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته والسعى في أذاه بكل ممكن مع علمه بفضله وعلمه وانه لا شئ فيه يوجب عداوته الا محاسنه وفضائله • ولهذا قيل الحاسد عدو النعم والمكارم فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله وانما حمله على ذلك فساد قصده وارادته كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل وورثتهم رئاستهم الباطلة فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظناً ان الرياسة تبقى لهم وينفردون بها وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم (وما ربك بظلام للعبيد) فهذا موارد احتجاج الفريقين ومواقف أقدام الطائفتين فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة وتوخ بعدلك وعدلك فصل هذه الخصومة فقد أدلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمانع وجاء

بات لا ترد ولا تدافع فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب وينكشف به
الب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين وإلاّ فخل
المطي وحاديها واعط القوس باريها

دع الهوى لأناس يعرفون به   قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذي الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق والله الفتاح
العليم فنقول وبالله التوفيق

كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ولا عدلت عن سنن الحق وانما الاختلاف
والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ومن اطلاق الفاظ مجملة بتفصيل معانيها
يزول الاختلاف ويظهر ان كل طائفة موافقة الاخرى على نفس قولها • وبيان هذا ان
المقتضي قسمان مقتض لا يتخلف عنه موجبه ومقتضاه لقصوره في نفسه بل يستلزمه استلزام
العلة التامة لمعلولها ومقتض غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام أو لفوات
شرط اقتضائه أو قيام مانع منع تأثيره فإن أريد بكون العلم مقتضياً للاهتداء والاقتضاء التام
الذي لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل • فالصواب قول الطائفة الثانية
وأنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجباً أنه صالح للاهتداء
مقتض له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع • فالصواب قول
الطائفة الأولى وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره
قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة • السبب الأول ضعف معرفته بذلك • السبب
الثاني عدم الأهلية وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله
للتزكية فإذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التي لا يخالطها الماء
فإنه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها فإذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكيه ولا
تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر
فيها كل بذر كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا
يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة
وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) وقال تعالى
(قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)
وهذا في القرآن كثير فإذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً لا يعمل فيه العلم شيئاً
وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم •
السبب الثالث قيام مانع وهو إما حسد أو كبر وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر وهو

داء الاولين والآخرين الا من عصم الله وبه تخلف الايمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم وهو الذى منع عبد الله بن أبي من الايمان وبه تخلف الايمان عن أبي جهل وسائر المشركين فانهم لم يكونوا يرتابون في صدقه وان الحق معه لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر وبه تخلف الايمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم * السبب الرابع مانع الرياسة والملك وان لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطناً وأحبوا الدخول في دينه لكن خافوا على ملكهم وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منه الا من عصم الله وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهرون وينقادوا لهما وبنو اسرائيل عبيد لهم ، ولهذا قيل ان فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال بينا أنت إله تعبد تصير عبداً تعبد غيرك فأبي العبودية واختار الرياسة والالهية المحال ، السبب الخامس مانع الشهوة والمال وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الايمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التى تصير اليهم من قومهم وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الايمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها فكانوا يقولون لمن يحب الزنا ان محمداً يحرم الزنا ويحرم الخمر وبه صدوا الاعشي الشاعر عن الاسلام وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الاسلام وصحته فكان آخر ما كلمني به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها آمناً فاذا أسلمت حلتم بيني وبينها وجلدتموني على شربها • وقال آخر منهم بعد أن عرف ماقال لي أقارب أرباب أموال واني ان أسلمت لم يصل إلي منها شيء وأنا أؤمل أن أرثهم أو كما قال • ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار فتتفق قوة داعي الشهوة والمال وضعف داعي الايمان فيجيب داعي الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسي عن آبائي وسلفي • السبب السادس محبة الأهل والأقارب والعشيرة يرى أنه اذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم • السبب السابع محبة الدار والوطن وان لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب لكن يرى أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه الى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه • السبب الثامن تخيل أن في الاسلام ومتابعة الرسول ازراء وطعناً منه على آبائه وأجداده وذما لهم وهذا هو الذي منع أباطالب وأمثاله عن الاسلام

ا اباءهم واجدادهم ان يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وان يختاروا خلاف
ختار أولئك لانفسهم ورأوا انهم ان اسلموا سفهوا احلام أولئك وسلوا عقولهم
وهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك • ولهذا قال اعداء الله لابي طالب عند الموت
رغب عن ملة عبدالمطلب فكان آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه اعداء
الله الا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب وانه انما حاز الفخر والشرف به
فكيف يأتي أمراً يلزم منه عيبه تنقيصه وذمه • ولهذا قال لولا ان تكون مسبة على بني
عبد المطلب لاقررت بها عينك أو كما قال • وهذا شعره يصرح فيه بانه قد علم وتحقق نبوة
محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أوحذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

(وفي قصيدته اللامية)

فوالله لولا أن تكون مسبة تجر على اشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الاباطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الاحلام وتضليل العقول فهذا هو الذي منعه من الاسلام بعد تيقنه • السبب التاسع متابعة من يعاديه من الناس للرسول وسبقه الى الدخول في دينه وتخصصه وقربه منه وهذا القدر منع كثيراً من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ولا يحب أرضاً يمشي عليها ويقصد مخالفته ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله وان كان لا عداوة بينه وبينهم وهذا كما جرى لليهود مع الانصار فانهم كانوا أعداءهم وكانوا يتوعدونهم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وانهم يتبعونه ويقاتلونهم معه فلما بدرهم اليه الانصار واسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم •

السبب العاشر مانع الالف والعادة والمنشأ فان العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ولهذا قيل هي طبيعة ثانية فيربى الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيراً فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه الا عليها ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد ازالتها واخراجها من قلبه وان يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال وهذا السبب وان كان اضعف الاسباب معنى فهو أغلبها على الامم وارباب المقالات والنحل ليس مع أكثرهم بل جميعهم الا ما عسى ان يشذ الا عادة ومربى

تربى عليه طفلا لا يعرف غيرها ولا يحسن به فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة الى طبيعة ثانية فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم كيف غيروا عوائد الامم الباطلة ونقلوهم الى الايمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ولا يعلم مشقة هذا على النفوس الا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته الى الحق فجزى الله المرسلين أفضل ما جازى به أحداً من العالمين • اذا عرف ان المقتضى نوعان فالهدى المقتضى وحده لا يوجب الاهتداء والهدي التام يوجب الاهتداء • فالاول هدي البيان والدلالة والتعليم ولهذا يقال هدى فما اهتدى ، والثانى هدى البيان والدلالة مع اعطاء التوفيق وخلق الارادة فهذا الهدي الذي يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه موجبه فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه • وههنا دقيقة بها ينفصل النزاع وهى انه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط على المقتضى أمر يضعفه فى نفسه ويسلبه اقتضاءه وقوته او الاقتضاء بحاله وانما غلب المانع فكان التأثير له • ومثل ذلك فى مسئلتنا انه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها هل يضعف العلم حتى لا يصير موثراً ألبتة أو العلم بحاله ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له • هذا سر المسألة وفقهها فأما الاول فلا شك فيه ولكن الشأن في القسم الثانى وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما قلبت حقيقته من القلب والقرآن قد دل على هذا • قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين) فعاقبهم سبحانه بازاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء • ونظيره قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) ولهذا قيل من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه • ومن هنا قيل لا رأى لصاحب هوى فان هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله . قال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف) أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن عرفوه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم (بل طبع الله عليها بكفرهم) حتى صارت غلفاً والغلف جمع اغلف وهو القلب الذى قد غشيه غلاف كالسيف الذى فى غلافه وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه غلف يقال سيف أغلف وقوس غلفاء ورجل أغلف وقلف اذا لم يختتن . والمعنى قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا تفقه ما تقول يا محمد صلى الله عليه وسلم ولم تع شيئاً ومن قال أن المعنى انها غلف للعلم والحكمة أى

أوعية لها فلا يحتاج الى قولك ولا نقبله استغناء بما عندهم لوجوه • أحدها أن الغلف جميع أغلف كقلف وأقلف وحمر وأحمر وجرد وأجرد وغلب وأغلب ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل فى الغلاف هذا هو المعروف من اللغة • الثانى انه ليس من الاستعمال السائغ المشهور ان يقال قلب فلان غلاف لكذا وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه • الثالث أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه والأكنة هناهي الغلف التى قلوب هؤلاء فيها والأكنة كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع ومنه الكنانة لغلاف السهام • الرابع أن سياق الآية لايحسن مع المعنى الذى ذكروه ولا يحسن مقابلته بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) • وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الانبياء كان سببا لأن طبع على قلوبهم • ولا ريب أن القلب اذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانعكست وربما ذهب أثرها حتي يصير السبب الذى يهتدي به المهتدون سببا لضلال هذا كما قال تعالى • (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون) • فاخبر تعالى ان القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس وهو هداه الذى هدى به رسوله وعباده المؤمنين ولهذا أخبر سبحانه أنه انما يهتدى به من اتبع رضوان الله • وقال تعالى (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ولا شيء أعظم فسادا لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدي به فنسبته الى الهدى والعلم نسبة الذي قد استحكم فيه مرارة الى الماء العذب كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فاذا فسد القلب فسد ادراكه واذا فسد الفم فسد ادراكه وكذلك اذا فسدت العين [illegible] وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون ان من [illegible] في نقد [illegible] فاشتبه عليه خالص بزائف • ومن كلام بعض [illegible] العلم يهتف بالعمل فان أجابه حل والا ارتحل وقال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى

الاسباب في ذهابه ونسيانه • وأيضاً فان العلم يراد للعمل فانه بمنزلة الدليل للسائر فاذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذى لايعلم كما ان من ملك ذهبا وفضة وجاع وعري ولم يشتر منهماما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل

ومن ترك الانفاق عند احتياجه * مخافة فقر فالذى فعل الفقر (١)

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلا اما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه و ما لأن الجهل يقال فى جانب العلم والعمل قال الشاعر

ألا لايجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هـذا قول موسى لقومه وقد قالوا (اتخـذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أ كون من الجاهلين) فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلا • ومنه قوله تعالي حكاية عن يوسف انه قال (والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) • ومن هذا قوله تعالي (خـذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ليس المراد اعراضه عمن لاعلم عنـده فلا يعلمه ولا يرشده وانما المراد اعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبـه • قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير فى كلامهم ومنه الحديث اذا كان صوم أحدكم فلا يصخب ولا يجهل ومن هـذا تسمية المعصـية جهلا • قال قتادة اجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل وليس المراد أنه جهل بتحريمه إذ لوكان جاهلا لم يكن عاصيا فلا يترتب الحد فى الدنيا والعقوبة في الآخرة على جهل بالتحريم بل نفس الذنب يسمى جهلا وان علم مرتكبه بتحريمه اما لانه لايصدر الا عن ضعف العلم ونقصانه وذلك جهل فسمى باسم سببه واما تنزيلا لمن لا يعمل بعلمه منزلة الجاهل به • الثانى أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنـه عوقبوا بالطبع والرين وفساد العقل والفهم كما قال تعالى عن المنافقين (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) • ثمرة العلم الذى ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلا لهم فسلب عنهم حقيقته والشيء قد ينتفي بنفي ثمرته والمراد منه • قال تعالى فى ساكن النار (ثم لا يموت فيها ولا يحيي) فى الحياة لانتفاء فائدتها والمراد منها ويقولون لمن لا ينفعه علمه ولا علم لا ينفع • وكذا فى نفيه سبحانه عن الكفار الاسماع والابصار

(١) هكذا فى الاصل والصواب

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله * مخافة فقر فالذى فعل الفقر

يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ووضع الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان ومثل هذا اذا لم يحصل له فهم الخطاب لايعذر بذلك لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له • ومن هذا (قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) يعنون انهم فى ترك القبول منه ومحبة الاسماع لما جاء به وايثار الاعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة من لايعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به فهذا هو الذى يقولون لاخلود فى النار (ولو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) ولهذا جعل ذلك مقدوراً لهم وذنباً اكتسبوه • فقال تعالى (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لاصحاب السعير) والله تعالى ينفى تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر فانها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفى عنهم السمع والعقل وتارة ينفى عنهم السمع والبصر وتارة ينفى عنهم العقل والبصر وتارة ينفى عنهم وحده فنفى الثلاثة نفى لمدارك العلم بطريق المطابقة ونفى بعضها نفى له بالمطابقة والآخر باللزوم فان القلب اذا فسد فسد السمع والبصر بل أصل فسادهما من فساده واذا فسد السمع والبصر فسد القلب فاذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لايحب رؤيته امتنع وصول الهدى الى القلب ففسد واذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده • فلهذا يجيء فى القرآن نفى ذلك صريحاً ولزوما • وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الادلة من الجانبين وفى استدلال الطائفة الثانية بقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ونظائرها نظر فان الله تعالى حيث قال (الذين آتيناهم الكتاب) لم يكونوا الا ممدوحين مؤمنين واذا أراد ذمهم والاخبار عنهم بالعناد وايثار الضلال أتى بلفظ الذين أوتوا الكتاب مبنياً للمفعول • فالاول كقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآيات • وكقوله تعالى (أفغير الله ابتغى حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) فهذا فى سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس فى سياق ذمهم والاخبار بعنادهم وجحودهم كما استشهدهم فى قوله تعالى (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) • وفى قوله (فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) • وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) • واختلف فى الضمير فى

تلاوته حق تلاوته فقيل هو ضمير الكتاب الذى أوتوه قال ابن مسعود يحلون حلاله يحرمون حرامه ويقرؤنه كما أنزل ولايحرفونه عن مواضعه قالوا وأنزلت فى مؤمنى أهل الكتاب وقيل هذا وصف للمسلمين والضمير فى يتلونه للكتاب الذي هو القرآن وهذا بعيد اذ عرف القرآن يأباه ولا يرد على ماذكرنا قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) بل هذا حجة لنا أيضاً لما ذكرنا فانه أخبر فى الأول عن معرفتهم برسوله صلى الله عليه وسلم ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهاداً بهم على من كفر وثناء عليهم ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه وخص فى آخر الآية بالذم طائفة منهم فدل على أن الأولين غير مذمومين وكونهم دخلوا فى جملة الأولين بلفظ المضمر لايوجب أن يقال آتيناهم الكتاب عند الاطلاق فانهم دخلوا فى هذا اللفظ تضمناً وتبعاً فلا يلزم تناوله لهم قصداً واختياراً . وقال تعالى فى سورة الانعام (قل أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل انما هو إله واحد وإننى برئ مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) قيل الرسول وصدقه وقيل المذكور هو التوحيد والقولان متلازمان إذ ذلك فى معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لافى معرض ذم الذين آتاهم الكتاب فان السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك والسياق يدل على الاحتجاج لاذم المذكورين من أهل الكتاب . وأما الثانى فكقوله (وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب . والاول شهادته للذين آتاهم الكتاب بانهم يؤمنون . وقال تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم) وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم والا فلم يؤمر صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ولهذا لايذكر سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتاب الا بالذم أيضاً كقوله (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وقال تعالى (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا السبيل) . وقال (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فالأقسام أربعة الذين آتيناهم الكتاب وهذا لا يذكره سبحانه الا في معرض المدح والذين أوتوا نصيباً من الكتاب لا يكون قط الا فى معرض الذم والذين أوتوا الكتاب أعم منه فانه قد يتناولهما ولكن

تنال السعادة الدنيا والآخرة فانها انما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم وبالسمع عرف ذلك فان من لا سمع له لايعلم ما جاؤا به • وأيضاً فان السمع يدرك به أجل شيء وأفضله وهو كلام الله تعالى الذى فضله على الكلام كفضل الله على خلقه • وأيضاً فان العلوم انما تنال بالتفهم والتخاطب ولا يحصل ذلك الا بالسمع • وأيضاً فان مدركه أعم من مدرك البصر فانه يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك الا بعض المشاهدات والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر ولو فرضنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه هل كانا سواء • وأيضا ففقد البصر انما يفقد ادراك بعض الامور الجزئية المشاهدة ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريبا وأما فقد السمع فالذى فاته من العلم لايمكن حصوله بحاسة البصر ولو تقريبا • وأيضاً فان ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع فى القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر بل انما يذمهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع • وأيضاً فان الذى يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سآمة ولا تعب مع كثرته وعظمه والذى يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص وربما حتى صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة الى السمع • وقالت طائفة منهم ابن قتيبة بل البصر أفضل فان غاية نعيم أهل الجنة وأفضله وأعظمه لذة هو النظر الى الله فى الدار الآخرة وهذا انما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية فى تفضيله • قالوا وهو مقدمة القلب وطليعته ولذلك فمنزلته منه أقرب من منزلة السمع ولهذا كثيراً

قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل فلم يلحقه في ذلك مالحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها لفوت المعاينة على الخبر . قالوا وهذا ابراهيم خليل الله يسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وقد علم ذلك بخبر الله له ولكن طلب أفضل المنازل وهي طمأنينة القلب . قالوا وللبقين ثلاث مراتب أولها للسمع وثانيها للعين[1] وهي المسماة بعين اليقين وهي أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا وأيضا فالبصر يؤدي الى القلب ويؤدي عنه فان العين مرآة القلب يظهر فيها ما يحبه من المحبة والبغض والموالاة والمعاداة والسرور والحزن وغيرها . وأما الأذن فلا تؤدي عن القلب شيئا البتة وانما مرتبتها الايصال اليه حسب فالعين أشد تعلقا به . والصواب ان كلا منهما له خاصية فضل بها الآخر فالمدرك بالسمع أعم وأشمل والمدرك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال الادراك وأما نعيم أهل الجنة فشيئان . أحدهما النظر الى الله . والثاني سماع خطابه وكلامه كما رواه عبد الله بن أحمد في المسند وغيره كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن اذا سمعوه من الرحمن عز وجل . ومعلوم ان سلامه عليهم وخطابه لهم ومحاضرته إياهم كما في الترمذي وغيره لايشبهها شيء قط ولا يكون أطيب عندهم منها ولهذا يذكر سبحانه في وعيد أعدائه انه لايكلمهم كما يذكر احتجابه عنهم ولا يرونه فكلامه أعلا نعيم أهل الجنة والله أعلم . الوجه الرابع والثمانون ان الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن اعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ومرة يذكر اللسان الذي يترجم عن القلب . فقال تعالي في سورة النحل وهي سورة النعم التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها اليهم واقتضاهم شكرها وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروه فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها . قال تعالي (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون) فذكر سبحانه نعمته عليهم بان أخرجهم لاعلم لهم ثم اعطاهم الاسماع والأبصار والأفئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه وانه فعل بهم ذلك ليشكروه . وقال تعالي (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) وقال تعالي (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين) فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر وفي ذلك

[1] هكذا في الاصل بدون ان يذكر مرتبة الثالثة

حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين ويدل عليه الآية الأخرى (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها الى عباده ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها خصها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها • فقال (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) فسعادة الانسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها • قال ابن عباس يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد والله تعالى أعطي العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليعقلها ويفقهها والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته فالمقصود باعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه • الوجه الخامس و لثمانون ان أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادة خارجية عن ذات الانسان بل هي مستعارة له من غيره تزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والجاه فبينا المرء بها سعيدا ملحوظا بالعناية مرموقاً بالأبصار اذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهر والمجي فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته فاذا جوز بصرك كسوته فليس وراء عبدانه قرية • ويحكى عن بعض العلماء انه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة فأصبحوا بعد عز الغنى في ذل الفقر ووصل العالم الى البلد فأكرم وقصد [illegible] بالتحف والكرامات فلما أرادوا الرجوع الى بلادهم قالوا هل لك الى قومك كتاب أو حاجة فقال نعم تقولون لهم اذا اتخذتم مالا لا يغرق في انكسار السفينة فخذوا العلم تجارة • والثاني رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل [illegible] كيف [illegible] رأيت [illegible] حسنة [illegible] سعادة ثانية وهي في جسمه وبدنه كصحته و[illegible] مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه فهذه ألصق به من الأولى [illegible] حقيقته [illegible] وحقيقة [illegible] الانسان انسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه • كما قيل

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * فأنت بالروح لا بالجسم [illegible] [1]

(١) هكذا بالأصل والبيت مقتضب من بيتين وهو

فنسبة هذه الى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه الي بدنه فان البدن أيضاً عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها فسعادتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها • السعادة الثالثة هى السعادة الحقيقية وهي سعادة نفسانية روحية قلبية وهى سعادة العلم النافع وثمرته فانها هي الباقية على تقلب الاحوال والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره وفى دوره الثلاثة أعنى دار الدنيا ودار البرزخ ودار القـرار وبها يترقى معارج الفضـل ودرجات الكمال • أما الاولى فانها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجاهـه •. والثانية تعرضه للزوال والتبـدل بنكس الخلق والرد الى الضعف فلا سـعادة في الحقيقة الا فى هذه الثالثة التي كلما طال الامد ازدادت قوة وعلوّا واذا عدم المال والجاه فهي مال العبد وجاهه وتظهر قوتها وأثرها بعـد مفارقة الروح البدن اذا انقطعت السعادتان الاوليان وهذه السعادة لايعرف قدرها ويبعث على طلبها الا العلم بها فعادت السعادة كلها الى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع • وانما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها وانها لاتنال الا على جد من التعب فانها لاتحصل الا بالجد المحض بخلاف الاوليين فانهما حظ قد يحوزه غير طالبه وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث أو هبة أو غير ذلك • وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها الا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية • وقد أحسن القائل فى ذلك

فقل لمرجى معالي الامور * بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال آخر

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

ومن طمحت همته الى الامور العالية فواجب عليه ان يشد على محبة الطرق الدينية وهي السعادة وان كانت فى ابتدائها لاتنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذى وانها متى أكرهت النفس عليها وسيقت طائعة وكارهة اليها وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها الى رياض مونقة ومقاعد صدق ومقام كريم تجد كل لذة دونها لعب الصبي بالعصفور بالنسبة الى لذات الملوك فحينئذ حال صاحبها كما قيل

وكنت أرى ان قد تناهى بي الهوى * الى غاية مابعدها لي مذهب

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * أتطلب الربح مما فيه خسران

انهض الى الروح واستكمل فضائلها * فانت بالروح لابالجسم انسان

فلما تلاقينا وعاينت حسنها * تيقنت أني انما كنت ألعب

فالمكارم منوطة بالمكاره والسعادة لايعبر اليها الا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها الا في سفينة الجد والاجتهاد • قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لاينال العلم براحة الجسم • وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة

فيا وصل الحبيب أما اليه * بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الاكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب من المكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم • الوجه السادس والثمانون ان الله تعالى خالق الموجودات وجعل لكل شيء منها كمالا يختص به هو غاية شرفه فاذا عدم كماله انتقل الى الرتبة التي دونه واستعمل فيها فكان استعماله فيها كمال أمثاله فاذا عدم تلك أيضا نقل الى مادونها ولا تعطل وهكذا أبدا حتى اذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذي لايصلح الا للوقود فالفرس اذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك وأكرم اكرام مثله فاذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك فان ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الأجناد فان تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الحمار اما حول المدار واما لنقل الزبل ونحوه فان عدم ذلك استعمل استعمال الاغنام للذبح والاعدام • كما يقال في المثل ان فرسين التقيا أحدهما تحت ملك والآخر تحت الروايا فقال فرس الملك أما أنت صاحبي وكنت أنا وأنت في مكان واحد فما الذي نزل بك الى هذه المرتبة فقال ما ذاك الا انك هماجت قليلا وتكسعت أنا • وهكذا السيف اذا نبا عما هيئ له ونقص صلح له ضرب منه فأس أو منشار ونحوه وهكذا الثياب العظام الحسان اذا خرقت وتهدمت نحتت حصيرا للغنم أو [illegible] وغيره • وهكذا الآدمي اذا كان صالحا لاصطفاء الله له برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبيا • كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فاذا كان جوهره قاصرا عن هذه المرتبة صالحا لخلافة النبوة ووراثتها رشحه لذلك وبلغه اياه فاذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لمرتبة الولاية رشحه لها وان كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جعل من أهله حتى ينتهي في درجة عموم المؤمنين [illegible] عن هذه المرتبة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير [illegible] استعمل حطبا ووقودا للنار • وفي أثر اسرائيلي ان [illegible] من خلقه [illegible] موسى [illegible] وحي [illegible] وحده والعبد [illegible] في الاجر في [illegible]

والشوك التى لا يصلح الا للنار • وهكذا الانسان يترقى فى درجات الكمال درجة بعد درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها فكم بين حاله فى أول كونه نطفة وبين حاله والرب يسلم عليه فى داره وينظر الى وجهه بكرة وعشيا • والنبي صلى الله عليه وسلم فى أول أمره لما جاءه الملك فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ وفى آخره أمره يقول الله له (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) وبقوله له خاصة (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) • وحكي ان جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعي الغنم فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة • فقال له آخر من بينهم أماهم فوالله أعقل منا ذلن الله بحكمته يسترعى النبي الحيوان البهيم فاذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه الى رعاية الحيوان الناطق حكمة من الله وتدريجاً لعبده ولكن نحن جئنا الى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكي فقلنا هذا إلهنا الذى خلق السموات والارض فامسك القوم عنه • فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه علله وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بان يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير انسانا وبان يكون انسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا وبأن يكون ملكا وقد أمكنه ان يكون ملكا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة فى خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار • وهذا الكمال انما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه فعاد الامر الى العلم وثمرته والله تعالى الموفق • وأعظم النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته • كما قال بعض السلف اذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة • وصدق القائل

ولم أر فى عيوب الناس عيباً * كنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شيء أقبح بالانسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون الاسعار إن عاش عاش غير حميد وإن مات مات غير فقيد فقدهم راحة للبلاد والعباد ولا تبكي عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء • الوجه السابع والثمانون أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه اذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات هذان أصل داء الخلق الا من عافاه الله • وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين فى كتابه • أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب ففى قوله فى حق المنافقين (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقوله (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون

ماذا أراد الله بهذا مثلا) • وقال تعالى (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) • فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة • وأما مرض الشهوة ففي قوله (يانساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) أي لاتلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزناء • قالوا والمرأة ينبغي لها اذا خاطبت الاجانب ان تغلظ كلامها وتقويه ولا تلينه وتكسره فان ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها وللقلب امراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الارض وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة فانه لابد فيه من تخيل فاسد وارادة باطلة كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وارادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أومركب منهما • وهذه الامراض كلها متولدة عن الجهل ودواءها العلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب الشجة الذي افتوه بالغسل فمات قتلوه قتلهم الله الا سألوا اذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال فجعل العي وهو عي القلب عن العلم واللسان عن النطق به مرضاً وشفاؤه • قال العلماء فامراض القلوب أصعب من امراض الابدان لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه الى الموت • وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه الي الشقاء الابدي لاشفاء لهذا المرض الا بالعلم ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لامراض الصدور • وقال تعالى (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ولهذا السبب نسبة العلماء الى القلوب كنسبة الاطباء الي الابدان وما يقال للعلماء أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما والا فالأمر أعظم فان كثيراً من الامم يستغنون عن الاطباء ولا يوجد الاطباء الا في اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لايحتاج الى طبيب • وأما العلماء

ماامات عليه • واختلف فى هذا العمى فى الآخرة فقيل هو عمى البصيرة بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار مافى القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار وقيل هو عمى البصر ورجح هذا بان الاطلاق ينصرف اليه وبقوله (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) وهذا عمى العين فان الكافر لم يكن بصيراً بحجته • وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار فى القيامة بان الله يخرجهم من قبورهم الى موقف القيامة بصراء ويحشرون من الموقف الى النار عمياً قاله الفراء وغيره • الوجه الثامن والثمانون ان الله سبحانه بحكمته سلط على العبد عدواً عالماً بطرق هلاكه وأسباب الشر الذى يلقيه فيه متفننافيها خبيراً بها حريصاً عليها لايفتر يقظة ولا مناما ولا بد له من واحدة من ست ينالها منه •أحدها وهي غاية مراده منه أن يحول بينه وبين العلم والايمان فيلقيه فى الكفر فاذاظفر بذلك فرغ منه واستراح فان فاته هذه وهدى للاسلام حرص على تلو الكفر وهي البدعة وهي أحب اليه من المعصية فان المعصية يتاب منهاوالبدعة لايتاب منها لان صاحبها يرى انه على هدى • وفى بعض الآثار يقول ابليس أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله الا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الاهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فاذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمرائه فان أعجزه شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليربح عليه الذى بينهما وهي الخامسة فان أعجزه ذلك صار الى السادسة وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ويرمونه بالعظائم ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والارادة وسائر أعماله فكيف يمكن أن يحترز منه من لاعلم له بهذه الامور ولا بعدوه ولا بما يحصنه منه فانه لاينجو من عدوه الا من عرفه وعرف طريقه التى يأتيه منها وجيشه الذى يستعين به عليه وعرف مداخله ومخارجه وكيفية محاربته وباى شئ يحاربه وبماذا يداوى جراحته وباى شئ يستمد القوة لقتاله ودفعه وهذا كله لا يحصل الا بالعلم فالجاهل فى غفلة وعمى عن هـذا الامر العظيم والخطب الجسيم • ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده فى القرآن كثيراً جداً لحاجة النفوس الى معرفة عدوها وطرق محاربته ومجاهدته فلولا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه فالعلم هو الذى تحصل به النجاة • الوجه التاسع والثمانون ان أعظم الاسباب التى يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم فى الدارين ويدخل عليه عدوه منها هو الغفلة المضادة للعلم والكسل المضاد للارادة والعزيمة هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم • أما الغفلة فمضاده للعلم منافيــة له وقد ذم سبحانه أهل الغفلة ونهى عن الكون معهم وعن طاعتهم والقبول منهم فقال تعالى (ولا تكن

من الغافلين) • وقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) •• وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون) • وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى وصيته لنساء المؤمنين لا تغفلن فتنسين الرحمة وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى الشيطان فانه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة فاذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله فهو دائما بين الوسوسة والخنس • وقال عروة بن رويم ان المسيح صلى الله عليه وسلم سأل ربه ان يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له فاذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب فاذا ذكر العبد ربه خنس واذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه فمناه وحدثه • وقد روى فى هذا المعنى حديث مرفوع فهو دائما يترقب غفلة العبد فيبذر فى قلبه بذر الامانى والشهوات والخيالات الباطلة فيثمر كل حنظلة وكل شوك وكل بلاء ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطي القلب ويعميه • واما الكسل فيتولد عنه الاضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة وهو مناف للارادة والعزيمة التى هي ثمرة العلم فان من علم ان كماله ونعيمه فى شئ طلبه بجهده وعزم عليه بقلبه كله فان كل أحد يسعى فى تكميل نفسه ولذته ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما ينبغي أن يطلبه فالارادة مسبوقة بالعلم والتصور فتخلفها فى الغالب انما يكون لتخلف العلم والادراك والا فمع العلم التام بما فى سعادة العبد فى هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل فى النهوض اليه ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الكسل • ففى الصحيح عنه انه كان يقول اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال فاستعاذ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان والفرق بينهما ان المكروه الوارد على القلب اما ان يكون على ماض او مستقبل • فالاول هو الحزن • والثانى الهم وان شئت قلت الحزن على مكروه ماض لا يتوقع دفعه والهم على مكروه مستقبل يتوقع دفعه والثانى العجز والكسل قرينان فان تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه اما ان يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز او يكون قادراً عليه لكن تخلف لعدم ارادته فهو الكسل وصاحبه يلام عليه ما لا يلام على العجز وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه ايضاً فكثيراً ما يكسل المرء عن الشئ الذى هو قادر عليه وتضعف عنه ارادته فيفضى به الى العجز عنه وهذا هو العجز الذى يلوم الله

عليه فى قول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يلوم على العجز والا فالعجز الذى لم تخلق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجوزه تحت القدرة لايلام عليه • قال بعض الحكماء فى وصيته إياك والكسل والضجر فان الكسل لاينهض لمكرمة والضجر اذا نهض اليها لايصبر عليها والضجر متولد عن الكسل والعجز فلم يفرده فى الحديث بلفظ ثم ذكر الجبن والبخل فان الاحسان المتوقع من العبد اما بماله واما ببدنه فالبخيل مانع لنفع ماله والجبان مانع لنفع بدنه والمشهور عند الناس ان البخل مستلزم الجبن من غير عكس لان من بخل بماله فهو بنفسه أبخل والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لان من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذى قالوه ليس بلازم أكثره فان الشجاعة والكرم واضدادها اخلاق وغرائز قد تجمع فى الرجل وقد يعطى بعضها دون بعض وقد شاهد الناس من أهل الاقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس وهذا كثيراً مايوجد فى أمة الترك يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله • ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل فيبذل نفسه دونه فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ومنهم من يبخل بنفسه ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه وعكسه والاقسام الاربعة موجودة فى الناس ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال فان القهر الذى ينال العبد نوعان • احدهما قهر بحق وهو ضلع الدين • والثانى قهر بباطل وهو غلبة الرجال فصلوات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم واقتبست كنوز العلم والحكمة من الفاظه • والمقصود ان الغفلة والكسل الذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم فعاد النقص كله الى عدم العلم والعزيمة والكمال كله الى العلم والعزيمة والناس فى هذا على أربعة أضرب • الضرب الاول من رزق علماً وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل وهذا الضرب خلاصة الخلق وهم الموصوفون فى القرآن بقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) • وقوله (أولى الايدى والابصار) • وبقوله (أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) فبالحياة تنال العزيمة وبالنور ينال العلم وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل • الضرب الثانى من حرم هذا وهذا وهم الموصوفون بقوله (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون) وبقوله (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) وبقوله (انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) وقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الاسعار وعند أنفسهم انهم يعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ويتعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون

ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضي من القول يبيتون ويدعون ولكن مع الله إلها آخر يدعون ويذكرون ولكن اذا ذكروا لايذكرون ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ويقولون انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون • فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة وجلهم اذا فكرت فيهم حمير أو كلاب أو ذئاب وصدق البحترى فى قوله

لم يبق من جل هذا الناس باقية * ينالها الوهم الا هذه الصور

﴿ وقال آخر ﴾

لاتخدعنك اللحاء والصور * تسعة أعشار من ترى بقر
فى شجر السدر منهم مثل * لها رواء ومالها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) عالمهم كما قيل فيه

زوامل للاسفار لاعلم عندهم * بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا * باوساقه أوراح مافي الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى (كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) • الضرب الثالث من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل فهذا فى رتبة الجاهل أو شر منه • وفى الحديث المرفوع أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ذكره أبو نعيم وغيره فهذا جهله كان خيراً له وأخف لعذابه من علمه فما زاده العلم الا وبالا وعذابا وهذا لامطمع فى صلاحه فان التائه عن الطريق يرجي له العود اليها اذا أبصرها فاذا عرفها وحاد عنها عمداً فمتى ترجي هدايته • قال تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين) • الضرب الرابع من رزق حظاً من العزيمة والارادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة فهذا اذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) رزقنا الله من فضله ولا أحرمنا بسوء أعمالنا انه غفور رحيم • الوجه التسعون ان كل صفة مدح الله بها العبد فى القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فمدحه بالايمان وهو رأس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمسارعة فى الخيرات والحب له والخوف منه والرجاء والانابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والايثار على النفس والنصيحة لعباده والرحمة بهم والرأفة وخفض الجناح والعفو عن مسيئهم والصفح عن جانيهم وبذل الاحسان لكافتهم ودفع السيئة بالحسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر فى مواطن الصبر والرضا بالقضاء واللين للاولياء والشدة على الاعداء والصدق فى الوعد والوفاء بالعهد والاعراض عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمأنينة والسكينة والتواصل والتعاطف والعدل فى الاقوال والافعال والاخلاق والقوة فى أمره والبصيرة فى دينه والقيام باداء حقه واستخراجه من المانعين له والدعوة اليه والى مرضاته وجنته والتحذير عن سبل أهل الضلال وتبيين طرق الغي وحال سالكيها والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والحض على طعام المسكين وبر الوالدين وصلة الارحام وبذل السلام لكافة المؤمنين الى سائر الاخلاق المحمودة والافعال المرضية التى أقسم الله سبحانه على عظمها • فقال تعالى (ن والقلم وما يسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجراً غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم) • قالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن فاكتفى بذلك السائل وقال فهممت ان أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها فهذه الاخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم • وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل ولهذا قيل فى حد البخل جهل مقرون بسوء الظن ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب واخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة والامر بالمنكر والنهي عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجاؤه والتوكل عليه وايثار رضاه على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله والتماوت عند حق الله والوثوب بتا عند حق نفسه والغضب لها والانتصار لها فاذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم باكثر من حقه واذا

انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله فلا قوة فى أمره ولا بصيرة فى دينه ومن ثمرتها الدعوة الى سبيل الشيطان والي سلوك طرق البغي واتباع الهوى وايثار الشهوات على الطاعات وقيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ووأد البنات وعقوق الامهات وقطيعة الارحام واساءة الجوار وركوب مركب الخزى والعار • وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل فلو ظهرت صورة العلم للابصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر بل كل خير فى العالم فهو من آثار العلم الذى جاءت به الرسل ومسبب عنه • وكذلك كل خير يكون الى قيام الساعة وبعدها فى القيامة وكل شر وفساد حصل فى العالم ويحصل الى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ماجاءت به الرسل فى العلم والعمل ولولم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير الا العقل الذى به عمارة الدارين وهو الذى أرشد الي طاعة الرسل وسلم القلب والجوارح ونفسه اليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الامر الى أهله لكفى به شرفا وفضلا وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله فى كتابه فى مواضع كثيرة منه وذم من لاعقل له وأخبر انهم أهل النار الذين لاسمع لهم ولا عقل فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه والمرآة التى يعرف بها الحسن من القبيح • وقد قيل العقل ملك والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له فاذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل اليها كلها • ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الشر عليه • وروى انه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل • فقال ان الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحداً منها فقال أخذت العقل فقال الدين والحياء أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحازا اليه والعقل عقلان عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فاذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام له أمره وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب واذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه واذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى • ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب • والتحقيق ان صاحب العقل الغريزى الذى لاعلم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الاحجام وترك انتهاز الفرصة لان عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتي من الاقدام فان علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة اليها وعقله الغريزى لايطيق رده عنه فهو

غالباً يؤتى من اقدامه والاول من احجامه فاذا رزق العقل الغريزى عقلا ايمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة لاعقلا معيشياً نفاقياً يظن أربابه أنهم على شئ ألا انهم هم الكاذبون فانهم يرون العقل ان يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم وهذا مع انه لاسبيل اليه فهو ايثار للراحة والدعة ومؤنة الاذى في الله والموالاة فيــه والمعاداة فيه وهو وان كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة فانه ماذاق طعم الايمان من لم يوال فى الله ويعاد فيــه فالعقل كل العقل ما أوصل الي رضا الله ورسوله والله الموفق المعين • وفى حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره أوحي الله الى نبي من أنبياء بنى اسرائيل قل لفلان العابد أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة وأما انقطاعك الىّ فقــد اكتسبت به العز فما عملت فيما لى عليك قال وما لك على قال هل واليت فىّ ولياً أو عاديت فىّ عدواً • وذكر أيضاً انه أوحي الله الى جبريل أن اخسف بقــرية كذا وكذا قال يارب ان فيهم فلاناً العابد قال به فابدأ انه لم يتمعر وجهه فىّ يوما قط • الوجه الحادي والتسعون حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يارسول الله وما رياض الجنة قال حلق الذكر فان لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فاذا أتوا عليهم حفوا بهم • قال عطاء مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام كيف يشترى ويبيع ويصوم ويصلى ويتصدق وينكح ويطلق ويحج ذكره الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه وقد تقدم بيانه • الوجه الثاني والتسعون مارواه الخطيب أيضاً عن ابن عمر يرفعه مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وفى رفعه نظر • الوجه الثالث والتسعون مارواه أيضاً من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه يسير الفقه خير من كثير من العبادة ولا يثبت رفعه • الوجه الرابع والتسعون مارواه أيضاً من حديث أنس يرفعه فقيه أفضل عند الله من ألف عابد وهو في الترمذى من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً وفى ثبوتهما مرفوعين نظر والظاهر ان هذا من كلام الصحابة فمن دونهم • الوجــه الخامس والتسعون مارواه أيضاً عن ابن عمر يرفعه أفضل العبادة الفقه • الوجه السادس والتسعون • مارواه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه ماعبد الله بشئ أفضل من فقه فى دين • الوجه السابع والتسعون • مارواه عن علي انه قال العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازى فى سبيل الله • الوجه الثامن والتسعون • مارواه المخلص عن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي هريرة وأبي ذر انهما قالا باب من العلم نتعلمه أحب الينا من ألف ركعة تطوع وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب

الينا من مائة ركعة تطوعاً وقالا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيداً ورواه ابن أبي داود عن شاذان عن حجاج به • قلت وشاهده ما مر من حديث الترمذي عن أنس يرفعه من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع • الوجه التاسع والتسعون ما رواه الخطيب أيضاً عن أبي هريرة قال لان أعلم باباً من العلم في أمر أو نهي أحب الي من سبعين غزوة في سبيل الله وهذا ان صح فمعناه أحب الي من سبعين غزوة بلا علم لان العمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه أو يريد علماً يتعلمه ويعلمه فيكون له أجر من عمل به الى يوم القيامة وهذا لا يحصل في الغزو المجرد • الوجه المائة ما رواه الخطيب أيضاً عن أبي الدرداء انه قال مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة • الوجه الحادي والمائة ما رواه عن الحسن قال لان أتعلم باباً من العلم فاعلمه مسلماً أحب الي من أن يكون لي الدنيا في سبيل الله • الوجه الثاني والمائة قال مكحول ما عبد الله بأفضل من الفقه • الوجه الثالث والمائة قال سعيد بن المسيب ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه وهذا الكلام يراد به أمران • احدهما انها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ولكن بالفقه الذي يعلم به كيف الصوم والصلاة • والثاني انها ليست الصوم والصلاة فقط بل الفقه في دينه من أعظم عباداته • الوجه الرابع والمائة قال اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل وقد تقدم الكلام في تفضيل العالم على الشهيد وعكسه • الوجه الخامس والمائة قال سفيان بن عيينة أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء • الوجه السادس والمائة قال محمد بن شهاب الزهري ما عبد الله بمثل الفقه وهذا الكلام ونحوه يراد به انه ما يعبد الله بمثل ان يتعبد بالفقه في الدين فيكون نفس التفقه عبادة • كما قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم فان طلبه لله عبادة وسيأتي ان شاء الله ذكر كلامه بتمامه وقد يراد به انه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه في الدين اذ العالم الفقيه في دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها وكلا المعنيين صحيح • الوجه السابع والمائة قال سهل بن عبد الله التستري من أراد النظر الى مجالس الانبياء فلينظر الى مجالس العلماء وهذا لان العلماء خلفاء الرسل في أممهم ووارثوهم في علمهم فمجالسهم مجالس خلافة النبوة • الوجه الثامن والمائة ان كثيراً من الأئمة صرحوا بان أفضل الاعمال بعد الفرائض طلب العلم • فقال الشافعي ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وهذا الذي ذكر أصحابه عنه انه مذهبه • وكذلك

قال سفيان الثورى وحكاه الحنفية عن أبى حنيفة • وأما الامام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات احداهن انه العلم فانه قيل له أى شئ أحب اليك اجلس بالليل انسخ أو أصلى تطوعاً قال نسخك تعلم به أمور دينك فهو أحب الى •• وذكر الخلال عنه فى كتاب العلم نصوصاً كثيرة فى تفضيل العلم • ومن كلامه فيه الناس الى العلم أحوج منهم الى الطعام والشراب وقد تقدم والرواية الثانية ان أفضل الاعمال بعد الفرائض صلاة التطوع واحتج لهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة وبقوله فى حديث أبى ذر وقد سأله عن الصلاة فقال خير موضوع وبانه أوصى من سأله موافقته فى الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة • وكذلك قوله فى الحديث الآخر عليك بكثرة السجود فانك لا تسجد لله سجدة الارفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وبالاحاديث الدالة على تفضيل الصلاة والرواية الثالثة انه الجهاد فانه قال لاأعدل بالجهاد شيئاً ومن ذا يطيقه • ولاريب ان أكثر الاحاديث فى الصلاة والجهاد • وأما مالك فقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول ان أقواماً ابتغوا العبادة واضاعوا العلم فخرجوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأسيافهم ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك • قال مالك وكتب أبو موسى الاشعرى الى عمر بن الخطاب انه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا فكتب اليه عمر أن افرض لهم من بيت المال فلما كان فى العام الثانى كتب اليه انه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك فكتب اليه عمر أن امحهم من الديوان فانى أخاف من ان يسرع الناس فى القرآن أن يتفقهوا فى الدين فيتأولوه على غير تأويله • وقال ابن وهب كنت بين يدى مالك بن أنس فوضعت ألواحى وقمت الى الصلاة فقال ما الذى قمت اليه بأفضل من الذى تركته • قال شيخنا وهذه الامور الثلاثة التى فضل كل واحد من الائمة بعضها وهى الصلاة والعلم والجهاد هى التى قال فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببت البقاء فيها لولا أن أحمل أو أجهز جيشاً فى سبيل الله ولولا مكابدة هذا الليل ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر لما أحببت البقاء • فالاول الجهاد • والثانى قيام الليل • والثالث مذاكرة العلم فجتمعت فى الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم • الوجه التاسع والمائة ماذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال فضل العلم خير من فضل العمل وخير دينكم الورع وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها وفى رفعه نظر وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى هذه المسئلة فانه اذا كان كل من العلم والعمل فرضاً فلا بد منهما كالصوم والصلاة فاذا كانا فضلين وهما النفلان المتطوع بهما

ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها لان العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه والعبادة يختص نفعها بصاحبها ولان العلم تبقى فائدته وعامه بعد موته والعبادة تنقطع عنه ولما مر من الوجوه السابقة • الوجه العاشر بعد المائة ما رواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لايحسنه صدقة وبذله لاهله قربة به يعرف الله ويعبد وبه يوحد وبه يعرف الحلال من الحرام وتوصل الارحام وهو الانيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على السراء والمعين على الضراء والوزير عند الاخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وسادة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم وباجنحتها تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها والعلم حياة القلوب من العمي ونور للابصار من الظلم وقوة للابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الابرار والدرجات العلى التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام وهو امام للعمل والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء هذا الاثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم فى المعجم من حديث معاذ مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه ان يصل الى معاذ • الوجه الحادى عشر بعد المائة ماروا يونس بن عبد الاعلى عن ابن أبي فديك حدثني عمرو بن كثير عن أبي العلاء عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام فبينه وبين الانبياء فى الجنة درجة النبوة • وقد روى من حديث على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا وان كان لايثبت اسناده فلا يبعد معناه من الصحة فان أفضل الدرجات النبوة وبعدها الصديقية وبعدها الشهادة وبعدها الصلاح • وهذه الدرجات الاربع التى ذكرها الله تعالي فى كتابه فى قوله (ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) فمن طلب العلم ليحيي به الاسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوة • الوجه الثاني عشر بعد المائة قال الحسن فى قوله تعالي (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة) هي العلم والعبادة (وفى الآخرة حسنة) هي الجنة وهذا من أحسن التفسير فان أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح • الوجه الثالث عشر بعد المائة قال ابن مسعود عليكم بالعلم قبل ان يرفع ورفعه هلاك العلماء فوالذى نفسي بيده ليودن رجال

قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم وان أحداً لم يولد عالماً وانما العلم بالتعلم • الوجه الرابع عشر بعد المائة قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل تذاكر العلم بعض ليلة أحب الينا من احيائها • الوجه الخامس عشر بعد المائة قال عمر رضى الله عنه أيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه فان أذنب ذنباً استعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به • قلت ومعنى استعتاب الله عبده ان يطلب منه ان يعتبه أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والانابة فاذا أناب اليه رفع عنه عتبه فيكون قد أعتب ربه أى أزال عتبه عليه والرب تعالى قد استعتبه أى طلب منه أن يعتبه • ومن هذا قول ابن مسعود وقد وقعت زلزلة بالكوفة ان ربكم يستعتبكم فاعتبوه وهذا هو الاستعتاب الذى نفاه سبحانه فى الآخرة فى قوله (فاليوم لايخرجون منها ولا هم يستعتبون) أى لانطلب منهم ازالة عتبنا عليهم فان ازالته انما تكون بالتوبة وهي لاتنفع فى الآخرة وهذا غير استعتاب العبد ربه كما فى قوله تعالى (فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين) فهذا معناه أن يطلبوا ازالة عتبنا عليهم والعفوفما هم من المعتبين أى ماهم ممن يزل العتب عليهم وهذا الاستعتاب ينفع فى الدنيا دون الآخرة • الوجه السادس عشر بعد المائة • قال عمر رضى الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه ووجه قول عمر ان هذا العالم يهدم على ابليس كلما يبنيه بعلمه وارشاده وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه • الوجه السابع عشر بعد المائة قول بعض السلف اذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربنى الى الله فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم وقد رفع هذا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه اليه باطل وحسبه أن يصل الى واحد من الصحابة أو التابعين • وفى مثله قال القائل اذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما ذاك من عمرى • الوجه الثامن عشر بعد المائة قال بعض السلف لايزين عريزن ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وقد رفع هذا أيضاً ورفعه باطل • الوجه التاسع عشر بعد المائة انه فى بعض الآثار بين العالم والعابدمائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة وقد رفع هذا أيضاً وفي رفعه نظر • الوجه العشرون بعد المائة ما رواه حرب فى مسائله مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ثم يقول يا معشر العلماء انى لم أضع علمى فيكم الا لعلمي بكم ولم أضع علمى فيكم لاعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم وهذا وان كان غريباً فله شواهد حسن • الوجه الحادى والعشرون بعد المائة • قول ابن المباركوقد

سئل من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذى يأكل بدينه • الوجه الثانى والعشرون بعد المائة ان من أدرك العلم لم يضره مافاته بعد ادراكه اذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ومن فاته العلم لم ينفعه ماحصل له من الحظوظ بل يكون وبالا عليه وسببا لهلاكه وفى هذا قال بعض السلف أى شئ أدرك من فاته العلم وأي شئ فاته من أدرك العلم • الوجه الثالث والعشرون بعد المائة • قال بعض العارفين أليس المريض اذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قالوا فكذلك القلب اذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت وصدق فان العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه وحياته موقوفة على ذلك فاذا فقد القلب العلم فهو ميت ولكن لايشعر بموته كما أن السكران الذى قد زال عقله والخائف الذى قد انتهى خوفه الى غايته والمحب والمفكر قد يبطل احساسهم بألم الجراحات فى تلك الحال فاذا صحوا وعادوا الى حال الاعتدال أدركوا آلامها هكذا العبد اذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها احتس بهلاكه وخسرانه

ختام لاتصحو وقد قرب المدى * وحتام لاينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا * وتذكر قولى حين لاينفع الذكر

فاذا كشف الغطاء وبرح الخفاء وبليت السرائر وبدت الضمائر وبعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور فحينئذ يكون الجهل ظلمة على الجاهلين والعلم حسرة على البطالين • الوجه الرابع والعشرون بعد المائة قال أبو الدرداء من رأى ان الغدوّ الى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله وشاهد هذا قول معاذ وقد تقدم • الوجه الخامس والعشرون بعد المائة قول أبى الدرداء أيضا لأن أتعلم مسئلة أحب الى من قيام ليلة • الوجه السادس والعشرون بعد المائة قوله أيضا العالم والمتعلم شريكان فى الاجر وسائر الناس همج لاخير فيهم • الوجه السابع والعشرون بعد المائة ماروواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر الى ماليس له • الوجه الثامن والعشرون بعد المائة ماروواه أيضا فى صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى حلقة فأعرض أحدهم واستحى الآخر فجلس خلفهم وجلس الثالث فى فرجة فى الحلقة فقال النبى صلى الله عليه وسلم أما أحدهم فأوى الى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحى فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه فلو لم يكن لطالب العلم الا ان الله يؤويه اليه ولا يعرض

عنه لكفى به فضلا • الوجه التاسع والعشرون بعد المائة مارواه كميل بن زياد النخعي قال أخذ على بن أبي طالب رضى الله عنه بيدى فاخرجنى ناحية الجبانة فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ عنى ماأقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكو على الانفاق وفى رواية على العمل والمال تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته وصنيعة المال تزول بزواله مات خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة هاه هاه ان ههنا علماً وأشار بيده الى صدره لو أصبت له حملة بل أصبته لقناً غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده أو منقاداً لاهل الحق لابصيرة له فى احيائه ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لاذا ولا ذاك أو منهوما باللذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الاموال والادخار ليسا من دعاة الدين أقرب شبهابهم الانعام السائمة لذلك يموت العلم بموت حامليه اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أولئك الاقلون عدداً الاعظمون عند الله قيلا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الاعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته الى دينه هاه هاه شوقا الى رؤيتهم وأستغفر الله لى ولك اذا شئت فقم ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره • قال أبو بكر الخطيب هذا حديث حسن من أحسن الاحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير المؤمنين للناس فى أوله تقسيم فى غاية الصحة ونهاية السداد لان الانسان لايخلو من أحد الاقسام التى ذكرها مع كمال العقل وازاحة العلل اما أن يكون عالماً أو متعلماً أو مغفلا للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له فالعالم الربانى هو الذى لازيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل فى الوصف له بانه ربانى وصفه بالصفات التى يقتضيها العلم لاهله ويمنع وصفه بما خالفها • ومعنى الربانى فى اللغة الرفيع الدرجة فى العلم العالى المنزلة فيه • وعلى ذلك حملوا قوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون) وقوله (كونوا ربانيين) قال ابن عباس حكماء فقهاء • وقال أبو رزين فقهاء علماء • وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلباً عن هذا الحرف وهو الربانى

فقال سألت ابن الاعرابي فقال اذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا رباني فان خرم عن خصلة منها لم نقل له رباني

قال ابن الانباري عن النحويين ان الربانيين منسوبون الى الرب وان الالف والنون زيدتا للمبالغة فى النسب كما تقول لحياني وجبهاني اذا كان عظيم اللحية والجبهة • وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط فى تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن اهمالها واطراحها والانفة من مجانسة البهائم • ثم قال وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم • وأما القسم الثالث فهم المهملون لانفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي فى الحضيض الاسقط والهبوط الاسفل التى لامنزلة بعدها فى الجهل ولادونها فى السقوط • وما أحسن ماشبههم بالهمج الرعاع وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق والناعق الصائح وهو فى هذا الموضع الراعي يقال نعق الراعي بالغنم ينعق اذا صاح بها • ومنه قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) • ونحن نشير الى بعض مافى هذا الحديث من الفوائد • فقوله رضى الله عنه القلوب أوعية يشبه القلب بالوعاء والاناء والوادى لانه وعاء للخير والشر • وفى بعض الآثار ان لله فى أرضه آنية وهي القلوب نخيرها أرقها وأصلبها وأصفاها فهي أوانى مملوءة من الخير وأوانى مملوءة من الشر كما قال بعض السلف قلوب الابرار تغلى بالبر وقلوب الفجار تغلى بالفجور • وفى مثل هذا قيل فى المثل • وكل اناء بالذى فيه ينضح وقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب فى سعتها وضيقها بالاودية فقلب كبير واسع يسع علما كثيرا كواد كبير واسع يسع ماء كثيرا وقلب صغير ضيق يسع علماً قليلا كواد صغير ضيق يسع ماءً قليلا • ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لاتسموا العنب الكرم فان الكرم قلب المؤمن فانهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره والكرم كثيرة الخير والمنافع فأخبرهم ان قلب المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخير والبر والمنافع وقوله نخيرها أوعاها يراد به أسرعها وعياً وأكثرها وعياً وأثبتها وعياً ويراد به أيضاً أحسنها وعياً فيكون حسن الوعى الذى هو ايعاء لما يقال له فى قلبه هو سرعته وكثرته وثباته والوعاء من مادة الوعى فانه آلة مايوعى فيه كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ويوصف بذلك القلب والاذن كقوله تعالى (انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)

• قال قتادة أذن سمعت وعقلت عن الله ماسمعت • وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد فالوعى توصف به الاذن كما يوصف به القلب يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الاذن والقلب من الارتباط فالعلم يدخل من الاذن الى القلب فهى بابه والرسول الموصل اليه العلم كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الاذن أحقها أن توصف بالوعي وانها اذا وعت وعي القلب • وفى حديث جابر فى المثل الذى ضربته الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته وقول الملك له اسمع سمعت أذنك وعقل قلبك فلما كان القلب وعاء والاذن مدخل ذلك الوعاء وبابه كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب والعقل هو ضبط ماوصل الى القلب وامساكه حتى لايتفلت منه • ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به وعقل الانسان يسمى عقلا لانه يعقله عن اتباع الغى والهلاك ولهذا يسمى حجراً لانه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لان صاحبه يعقل ماعلمه فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التى يخاف شرودها • وللادراك مراتب بعضها أقوى من بعض فاولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لاالقوة الغريزية التى ركبها الله فى الانسان فخير القلوب ما كان واعيا للخير ضابطاً له وليس كالقلب القاسى الذى لايقبله • فهذا قلب حجرى ولا كالمائع الاخرق الذي يقبل ولكن لايحفظ ولا يضبط فتفهيم الاول كالرسم فى الحجر وتفهيم الثاني كالرسم على الماء بل خير القلوب ما كان لينا صلبا يقبل بلينه فينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته فهذا تفهيمه كالرسم فى الشمع وشبهه • وقوله الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع فان العبد اما ان يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أولا فالاول العالم الربانى والثانى اما ان تكون نفسه متحركة فى طلب ذلك الكمال ساعية فى ادراكه أولا والثانى هو المتعلم على سبيل النجاة والثالث هو الهمج الرعاع فالاول هو الواصل والثانى هو الطالب والثالث هو المحروم • والعالم الربانى • قال ابن عباس رضي الله عنهما هو المعلم أخذه من التربية أى يربى الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه • وقال سعيد بن جبير هو الفقيه العليم الحكيم • قال سيبويه زادوا الالف والنون فى الربانى اذا ارادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا شعرانى ولحيانى ومعنى قول سيبويه رحمه الله ان هذا العلم منسوب الى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله وخصص به نسبه اليه دون سائر من علم علما • قال الواحدى فالربانى على قوله منسوب الى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أي بعلم الشريعة وصفات

الرب تبارك وتعالى • وقال المبرد الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به أي يعلمهم ويصلحهم •وعلى قوله فالربانى من رب يرب ربا أي يربيه فهو منسوب الى التربية يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده اياه كما يربى صاحب المال ماله ويربى الناس به كما يربى الاطفال أولياؤهم • وليس هذا من قوله (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير) فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل انه من الربة بكسر الراء وهي الجماعة • قال الجوهرى الربى واحد الربيين وهم الالوف من الناس •قال تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم) ولا يوصف العالم بكونه ربانيا حتى يكون عاملا بعلمه معلما له فهذا قسم • والقسم الثانى متعلم على سبيل نجاة أى قاصداً بعلمه النجاة وهو المخلص فى تعلمه المتعلم ماينفعه العامل بما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة الا بهذه الامور الثلاثة فانه ان تعلم مايضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة وان تعلم ماينتفع به لا للنجاة فكذلك وان تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه وليس حرف على وما عمل فيه متعلقاً بمتعلم الا على وجه التضمين أي مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا فى الدرجة الثانية وليس ممن تعلمه ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء أو يصرف وجوه الناس اليه فان هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث ونبته أبو نعيم أيضا • قوله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد رائحة الجنة • قال وثبت أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان • القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها فشبه همج الناس به والهمج أيضا مصدر قال الراجز

قد هلكت جارتنا من الهمج وان تجع تأكل عتوداً أوبذج

والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير في أمر المعيشة • وقولهم همج هامج مثل ليل لايل والرعاع من الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم • وقوله اتباع كل ناعق أي من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم الي هدى أو الى ضلال فانهم لاعلم لهم بالذى يدعون اليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوته وهؤلاء من أضر الخلق على الاديان فانهم الاكثرون عدداً الاقلون عند الله قدراً وهم حطب كل فتنة بهم توقد ويشب ضرامها فانها يعتزلها أولو الدين ويتولاها الهمج الرعاع وسمي داعيهم ناعقا تشبيها لهم

بالانعام التي ينعق بها الراعي فتذهب معه أين ذهب • قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لايعقلون) وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء • وقوله رضى الله عنه يميلون مع كل ريح وفي رواية مع كل صائح شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف وشبه الاهوية والآراء بالرياح والغصن يميل مع الريح حيث مالت وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التي لاتتلاعب بها الرياح • وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى والمنافق كشجرة الارز التي لاتقطع حتى تستحصد فان هـذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والاوجاع والاوجال وغيرها فلا يزال بين عافية وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك فيقع مرة ويقوم أخرى ويميل تارة ويعتدل أخرى فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره والكافر كله خبث ولا يصلح الا للوقود فليس فى اصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما فى اصابة المؤمن فهذه حال المؤمن فى الابتلاء • وأما مع الاهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل

تزول الجبال الراسيات وقلبه ‏ على العهد لايلوى ولا يتغير

• وقوله رضى الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا الى ركن وثيق بين السبب الذي جعلهم بتلك المثابة وهو انه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل • كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) • وقال تعالى (أو من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها)• وقوله تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور) الآية • وقوله (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فاذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدرى أين يذهب فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ماتمتنع به من دعاة الباطل فان الحق متى استقر فى القلب قوي به وامتنع مما يضره ويهلكه • ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فاذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذان الاصلان هما قطب السعادة أعني العلم والقوة وقد

وصف بهما سبحانه المعلم الاول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال (ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى) • وقال تعالى فى سورة التكوير (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن من هذا وهو الاشبه بمراد على رضى الله عنه وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤا بنور العلم ولا لجؤا الى عالم مستبصر فقلدوه ولا متبعين لمستبصر فان الرجل اما ان يكون بصيراً أو أعمى متمسكا ببصير يقوده أو أعمى يسير بلا قائد • وقوله رضى الله عنه العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال • يعنى ان العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب فان الانسان لا يلقى نفسه فى هلكة اذا كان عقله معه ولا يعرّضها لمتلف الا اذا كان جاهلا بذلك لاعلم له به فهو كمن يأكل طعاما مسموما فالعالم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمتنع به من أكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير مايجلب له الامراض والاسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ومكايده ومداخله على العبد يحرسه علمه من وساوس الشيطان وخطراته والقاء الشك والريب والكفر فى قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يحرسه من الشيطان فكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والايمان فيرجع خاسئاً خائباً • وأعظم مايحرسه من هذا العدو المبين العلم والايمان فهذا السبب الذي من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته فمتى وكله الى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه • قال بعض العارفين أجمع العارفون على أن التوفيق ان لايكلك الله الى نفسك وأجمعوا على ان الخذلان ان يخلى بينك وبين نفسك • وقوله العلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهوراً فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل له به علم مالم يكن عنده وربما تكون المسئلة فى نفسه غيرمكشوفة ولا خارجة من حيز الاشكال فاذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علوم أخر • وأيضاً فان الجزاء من جنس العمل فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بان علمه من جهالته كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فى حديث طويل وان الله قال لى انفق أنفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم اما بلفظه واما بتنبيهه واشارته وفحواه ولزكاء العلم ونحوه طريقان أحدهما تعليمه والثانى العمل به فان العمل به أيضا ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه وقوله • والمال تنقصه النفقة • لا ينافي قول النبي صلى

الله عليه وسلم ما نقصت صدقة من مال فان المال اذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر وخلفه غيره • وأما العلم فكالقبس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العلم بالاقتباس منه فهو كالعين التي كلما أخذ منها قوي ينبوعها وجاش معينها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه • أحدها ان العلم ميراث الانبياء والمال ميراث الملوك والاغنياء • والثاني ان العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله • والثالث ان المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة • الرابع ان صاحب المال اذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره • الخامس ان العلم حاكم على المال والمال لايحكم على العلم • السادس ان المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لايحصل الا للمؤمن • السابع ان العالم يحتاج اليه الملوك فمن دونهم وصاحب المال انما يحتاج اليه أهل العدم والفاقة • الثامن ان النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال لا يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها • التاسع ان المال يدعوها الى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها الى التواضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها الى صفات الملوك والعلم يدعوها الى صفات العبيد • العاشر ان العلم جاذب موصل لها الى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها • الحادى عشر ان غنى العلم أجل من غنى المال فان غنى المال غنى بأمر خارجي عن حقيقة الانسان لو ذهب فى ليلة أصبح فقيراً معدما وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو فى زيادة أبداً فهو الغنى العالى حقيقة كما قيل

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وان الغنى العالي عن الشيء لا به

• الثاني عشر ان المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار والدرهم الحديث والعلم يستعبده لربه وخالقه فهو لايدعوه الا الى عبودية الله وحده • الثالث عشر ان حب العلم وطلبه أصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة • الرابع عشر ان قيمة الغنى ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فاذا عدم ماله عدمت قيمته فبقي بلا قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي فى تضاعف وزيادة دائما • الخامس عشر ان جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الامرين كالفرق بين الروح والبدن • السادس عشر ان العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه والغنى العاقل اذا رأى شرف

العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع • السابع عشر انه ماأطاع الله أحد قط الا بالعلم وعامة من يعصيه انما يعصيه بالمال • الثامن عشر أن العالم يدعو الناس الى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم الى الدنيا بحاله وماله • التاسع عشر ان غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً فانه معشوق النفوس فاذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت فى هلاكه كما هو الواقع وأما غنى العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والناس اذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه • العشرون ان اللذة الحاصلة من غنى المال اما لذة وهمية واما لذة بهيمية فان صاحبه أن التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية وان التذ بانفاقه فى شهواته فهى لذة بهيمية وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها وفرق مابين اللذتين • الحادى والعشرون ان عقلاء الامم مطبقون على ذم الشره فى جمع المال الحريص عليه وتنقصه والازراء به ومطبقون على تعظيم الشره فى جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال • الثانى والعشرون أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد فى المال المعرض عن جمعه الذى لا يلتفت اليه ولا يجعل قلبه عبداً له ومطبقون على ذم الزاهد فى العلم الذى لايلتفت اليه ولا يحرص عليه • الثالث والعشرون ان المال يمدح صاحبه بتخليه منه واخراجه والعلم انما يمدح بتحليه به واتصافه به • الرابع والعشرون ان غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى وغنى العلم مقرون بالامن والفرح والسرور • الخامس والعشرون ان الغنيّ بماله لابد ان يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الالم ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم • السادس والعشرون ان استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار لابدان يرجع الى مالكه يوماً ما وأما تجملها بالعلم وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها • السابع والعشرون ان الغنى بالمال هو عين فقر النفس والغني بالعلم هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي فغناها بعلمها هو الغنى وغناها بما لها هو الفقر • الثامن والعشرون ان من قدم وأكرم لماله اذا زال ماله زال تقديمه واكرامه ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد الا تقديماً واكراماً • التاسع والعشرون ان تقديم الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداء عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والاهانة وأما تقديمه واكرامه لعلمه فانه عين كماله اذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر خارج عن ذاته • الوجه الثلاثون ان طالب الكمال بغنى

المال كالجامع بين الضدين فهو طالب ما لا سبيل له اليه (وبيان ذلك) أن القدرة صفة كمال وصفة الكمال محبوبة بالذات والاستغناء عن الغير أيضاً صفة كمال محبوبة بالذات فاذا مال الرجل بطبعه الى السخاوة والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للعقلاء محبوب للنفوس واذا التفت الى ان ذلك يقتضي خروج المال من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه الى الغير وزوال قدرته نفرت نفسه عن السخاء والكرم والجود واصطناع المعروف وظن أن كماله فى امساك المال وهذه البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها فلاجل ميل الطبع الى حصول المدح والثناء والتعظيم يحب الجود والسخاء والمكارم ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب اخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنى يحب ابقاء ماله ويكره السخاء والكرم والجود فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين يتجاذبانه ويعتوران عليه فيبقى القلب فى مقام المعارضة بينهما فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود والكرم فيؤثره على الجانب الآخر • ومنهم من يترجح عنده جانب الامساك وبقاء القدرة والغنى فيؤثره فهذان نظران للعقلاء • ومنهم من يبلغ به الجهل والحماقة الى حيث يريد الجمع بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمكارم طمعاً منه فى فوزه بالمدح والثناء على ذلك وعند حضور الوقت لا يفي بما قال فيستحق الذم ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده فيقع فى أنواع القبائح والفضائح • واذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الاغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية وهم غالباً يبكون ويشكون • وأما غني العلم فلا يعرض له شئ من ذلك بل كلما بذله ازداد ببذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً وان فاتته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لذة أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغنى وتعبه فى تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال بجمعه وألمه دون ألمه كما قال تعالى للمؤمنين تسلية لهم بما ينالهم من الألم والتعب فى طاعته ومرضاته (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما) • الحادي والثلاثون أن اللذة الحاصلة من المال والغنى انما هي حال تجدده فقط • وأما حال دوامه فاما أن تذهب تلك اللذة واما أن تنقص ويدل عليه ان الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً فهو فى فقر مستمر غير منقض ولو ملك خزائن الارض فتفقره وطلبه وحرصه باق عليه فانه أحد المنهومين اللذين لا يشبعان فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب • وهذا بخلاف غنى العلم والايمان فان لذته فى حال بقائه مثلها فى حال تجدده بل تزيد وتضاعف وان كان لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه فطالبه

وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة الطلب وابتهاجه وفرحه به • الثاني والثلاثون ان غنى المال يستدعي الانعام على الناس والاحسان اليهم فصاحبه اما ان يسد على نفسه هذا الباب واما أن يفتحه عليه فان سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والنفع فابغضوه وذموه واحتقروه وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم كان وصول الآفات والمضرات اليه أسرع من النار فى الحطب اليابس ومن السيل فى منحدره واذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه غاية التألم واحضر الهموم والغموم والاحزان • وان فتح باب الاحسان والعطاء فانه لا يمكنه ايصال الخير والاحسان الى كل أحد فلا بد من ايصاله الى البعض وامساكه عن البعض وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم أما المحروم فيقول كيف جاد على غيري وبخل على وأما المرحوم فانه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيره على الدوام وهذا قد يتعذر غالباً فيفضى ذلك الى العداوة الشديدة والمذمة • ولهذا قيل اتق شر من أحسنت اليه وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم فان صاحبه يمكنه بذله للعالم كلهم واشتراكهم فيه والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول بل يجربه فهو كالغنى اذا أعطي الفقير رأس مال يجربه حتى يصير غنياً مثله • الوجه الثالث والثلاثون ان جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقته • فأما النوع الاول فهو المشاق والانكاد والآلام التي لا يحصل الا بها • وأما النوع الثاني فشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح الا مهموماً ولا يمسى الا مغموماً فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون من كل جانب ترمقه والالسن والقلوب ترشقه فأي عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم ان اعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم فى التفريق بينه وبين معشوقه وان لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم فان فازوا به والا استووا فى الحرمان فزال الاختصاص الذي لا تنفوس ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه ولكنهم لما علموا انه لا سبيل الى سلب علمه عمدوا الى جحده وانكاره ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فان بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والانكار رموه بالعظائم ونسبوه الى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه فهؤلاء سحرة بألسنتهم فان عجزوا له عن شئ من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس والدوكرة والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا

ينبغي لمن له مسكة عقل أن يتأذى به اذ لا سبيل له الى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف • والنوع الثالث من آفات الغنى مايحصل للعبد بعد مفارقته من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما ذا أنفقه وغني العلم والايمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لاينال الا على جسر من التعب والصبر والمشقة • الرابع والثلاثون ان لذة الغنى بالمال مقرونة بخلطة الناس ولو لم يكن الا خدمه وأزواجه وسراريه واتباعه اذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به واذا كان كمال لذته بغناه موقوفا على اتصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام ولولم يكن الا اختلاف الناس وطبائعهم وارادتهم فقبيح هذا حسن ذاك ومصلحة ذاك مفسدة هذا ومنفعة هذا مضرة ذاك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه فان ارضاءهم كلهم محال وهو جمع بين الضدين وارضاء بعضهم واسخاط غيره سبب الشر والمعاداة وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الاقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الاجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغنى بالمال أما اذا لم يكن فيه فضيلة لهم فانهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى المخالطة والعشرة وهذه الآفات معدودة فى الغنى بالعلم • الخامس والثلاثون ان المال لايراد لذاته وعينه فانه لايحصل بذاته شئ من المنافع أصلا فانه لا يشبع ولا يروى ولا يدفئ ولا يمتع وانما يراد لهذه الاشياء فانه لما كان طريقا اليها أريد ارادة الوسائل ومعلوم ان الغايات أشرف من الوسائل فهذه الغايات اذا أشرف منه وهي مع شرفها بالنسبة اليه ناقصة دنيئة وقد ذهب كثير من العقلاء الى انها لا حقيقة لها وانما هي دفع الآلام فقط فمن لبس الثياب مثلا انما فائدته دفع التألم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الأكل انما فائدته دفع ألم الجوع ولهذا لو لم يجد ألم الجوع لم يستطب الاكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب • ومعلوم ان فى مزاولة ذلك وتحصيله من وضرر ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر مايدفع به وألمه فيحتمل الانسان أخف الضررين دفعا لاعظمهما • وحكي عن بعض العقلاء انه قيل له وقد تناول قدحا كريها من الدواء كيف حالك معه قال أصبحت فى دار بليات أدافع آفات بآفات • وفى الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح من هذا الجنس ولذة التى يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهى الغاية المطلوبة له من لذة

المنكح والمأكل شهوتي البطن والفرج ليس لهما ثالث البتة الا ماكان وسيلة اليهما وطريقا الى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة • منها ان تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها • ومنها انها ممزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام محفوفة بالمخاوف وفى الغالب لاتفى آلامها بطيبها كما قيل

قايست بين جمالها وفعالها فاذا الملاحة بالقباحة لاتفى

ومنها أن الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأفحشها فنسبتهم فيها الى الافاضل كنسبة الحيوانات البهيمية اليهم فمشاركة الاراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد فى المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير فى اشعار الناس ونثرهم كما قيل

سأترك حبها من غير بغض ولكن لكثرة الشركاء فيه
اذا وقع الذباب علي طعام رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء اذا كان الكلاب يلغن فيه

• وقيل لزاهد ماالذى زهدك فى الدنيا فقال خسة شركائها وقلة وفائها وكثرة جفائها • وقيل لآخر فى ذلك فقال مامددت يدي الى شئ منها الا وجدت غيرى قد سبقنى اليه فاتركه له • ومنها أن الالتذاذ بموقعها انما هو بقدر الحاجة اليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها وكلما كانت شهوة الظفر بالشئ أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل فلما لم تحصل تلك الشهوة لم تحصل تلك اللذة فمقدار اللذة الحاصلة فى حال مساواة لـ[illegible] الحاجة والالم والمضرة فى الماضى وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والالم [illegible] [illegible] فتصير اللذة كانها لم توجد ويصير [illegible] [illegible] خزان الاموال وهم احياء والعلماء باقون ما بقى [illegible] أمواتكاحد فيتساقطان أوبمنزلة من ضربه عشرة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالدراهم ذلك ومثل عشرة اسواط وأعطاه عشرة دراهم ولا تخرج لذات الدنيا غالبا عن [illegible] لا يعد لذة ولا سعادة ولا كمالا بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول فان الانسان يتضرر بثقله فاذا قضى حاجته استراح منه فاما [illegible] يعد ذلك سعادة ولذة مطلوبة [illegible] • ومنها ان هاتين اللذتين اللتين هما [illegible] اللذات عند [illegible] ولا سبيل الي نيلهما الا بما يقترن بهما [illegible] وبعده من مباشرة القاذورات الحاصل عنهما [illegible] الاكل [illegible] [illegible] او نظر الي طعامه حال مخالطته ريقه به [illegible] نفسه منه ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من اعادتها اليه ثم [illegible] به انها تحصل في مجرى نحو الاربع الاصابع فاذا [illegible] عن ذلك المجرى [illegible]

تلذذه به فاذا استقر فى معدته وخلطه الشراب وما فى المعدة من الاجزاء الفضلية فانه حينئذ يصير فى غاية الخسة فان زاد على مقدار الحاجة أورث الادواء المختلفة على تنوعها ولولا ان بقاءه موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به كما قال بعضهم

لولا قضاء جرى نزهت أعاتى عن ان تلم بمأكول ومشروب

• وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من ان نذكر آفاته ويدل عليه ان أعضاء هذه اللذة هى عورة الانسان التى يستحيا من رؤيتها وذكرها وسترها أمر فطر الله عليه عباده ولا تتم لذة المواقعة الا بالاطلاع عليها وابرازها والتلطخ بالرطوبات المستقذرة المتولدة منها ثم ان تمامها انما يحصل بانفصال النطفة وهى اللذة المقصودة من الوقاع وزمنها يشبه الآن الذى لاينقسم فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لاجل لذة لحظة كمد الطرف فأين مقايسة بين هذه اللذة و بين التعب فى طريق تحصيلها • وهذا يدل على ان هذه اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذي خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيئ له العبد وهو لا يفطن له لغفلته عنه واعراضه عن التفتيش عليه حتى يظفر بمعرفته عن التفتيش على طريقه حتى يصل اليه يسوم نفسه مع الانعام السائمة

قد هيؤك لامر لو فطنت له فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس فى موضع لايمكنه القيام الى الخلاء وصار مضطراً اليه فانه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيما فاذا تمكن من [illegible] الى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذى وجد لذة عظيمة عند دفعه وابرازه ولا [illegible] [illegible] من [illegible] هذه حاله • فعلم ان هذه اللذات اما ان تكون دفع [illegible] واما ان تكون لذات ضعيفة خسيسة [illegible] ترى مضرتها عليه وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والفانية وضعف الروح واستيلاء العفونة على كل البدن واسراع الضعف و[illegible] اليه واستيلاء [illegible] عليه لضعف القوة عن دفعه وقهره • • ومما يدل على ان هذه اللذات ليست خيرات و[illegible] وكمالا ان العقلاء من جميع الامم مطبقون على ذم من كانت [illegible] و شغله [illegible] همته و [illegible] و [illegible] به وتحقير شأنه والحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزنا [illegible] خيرات وكمالا لكان من صرف اليها همته أكمل الناس • ومما يدل ان [illegible] [illegible] لايزال مستغرقا فى [illegible] فى حب هذه الآلام كقطرة فى بحر لذة

سروره وزن حبة وحزنه قنطار فان القلب يجرى مجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار ممر لانواع المشتهيات والملذوذات والمكروهات وكلما مر به شئ من ذلك ظهر فيه أثره فان كان محبوبا مشتهيا مال طبعه اليه فان لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم فى طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ويتألم حال حصوله خوفا من فراقه وبعد فراقه خوفا على ذهابه وان كان مكروها له ولم يقدر على دفعه تألم بوجوده وان قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاته مصلحة راجحة الحصول فيتألم لفواتها فعلم أن هذا القلب أبداً مستغرق فى بحار الهموم والغموم والاحزان وان نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغيب بها عن شهوده القناطير من ألمه وعذابه فاذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له اليها سبيل تجرد ذلك الالم وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته فقل ماشئت فى حال عبد قد غيب عنه سمده وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه وبين الصدو بين هذه الحال ان ينكشف الغطاء ويرفع الستر ويجلى الغبار ويحصل مافى الصدور فاذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التى هي غاية جمع الاموال وطلبها فما الظن بقدر الوسيلة • وأما غنى العلم والايمان فدائم اللذة متصل الفرحة مقتض لانواع المسرة والبهجة لايزول فيحزن ولا يفارق فيؤلم بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم (لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) • السادس والثلاثون ان غني المال يبغض الموت ولقاء الله فانه لحبه لماله يكره مفارقته ويحب بقاءه ليتمتع به كما شهد به الواقع • وأما العلم فانه يحبب للعبد لقاء ربه ويزهده فى هذه الحياة النكدة الفانية • السابع والثلاثون ان الاغنياء يموت ذكرهم بموتهم والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين فى هذا الحديث مات خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر فخزان الاموال احياء كاموات والعلماء بعد موتهم أموات كاحياء • الثامن والثلاثون ان نسبة العلم الى الروح كنسبة الروح الى البدن فالروح ميتة حياتها العلم كما ان الجسد ميت حياته بالروح فالغنى بالمال غايته ان يزيد فى حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والارواح كما تقدم تقريره • التاسع والثلاثون ان القلب ملك البدن والعلم زينته وعدته • الذي به قوام ملكه والملك لابد له من عدد وعدة ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته الناس • وأما المال فغايته ان يكون زينة وجمالا للبدن اذا أنفقه فى ذلك فاذا خزنه ولم واتباعه يكن زينة ولا جمالا بل نقصا ووبالا • ومن المعلوم ان زينة الملك به وما به قوام وجنده أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم فقوامه وتمامه بالعلم كما ان قوام الجسم بالغداء • ان لـ الاربعون ان القدر المقصود من المال هو مايكفى العبد ويقيمه ويدفع ضرورته

حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره الى ربه عز وجل فاذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكلما ازداد غناه به ازداد تثبطا وتخلفا عن التجهز لما أمامه . وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد فى تعبية الزاد وقضاء الجهاز واعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة الا به فعدة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الاقامة جمع الاموال والادخار ومن أراد شيئا هيأ له عدته . قال تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) . قوله محبة العلم أو العالم دين يدان بها لان العلم ميراث الانبياء والعلماء وراثهم فمحبة العلم وأهله محبة لميراث الانبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الانبياء وورثتهم فمحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة وهذا كله انما هو فى علم الرسل الذى جؤا به وورثوه للامة لا فى كل مايسمى علماً . وأيضاً فان محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه وذلك هو الشقاء والضلال . وأيضاً فان الله سبحانه عليم يحب كل عليم وانما يضع علمه عندمن يحبه فمن أحب العلم واهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به . قوله العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد مماته يكسبه ذاك أى يجعله كسباًله ويورثه اياه ويقال كسبه ذلك عزا وطاعة وأكسبه لغتان ومنه حديث خديجة رضى الله عنها انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم روى بفتح التاء وضمها ومعناه تكسب المال والغنى هذا هو الصواب وقالت طائفة من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزاً ومن رواه بفتحها فمعناه تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة أجل قدراً من تكلمها بهذا فى هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهر فوئة لا يخزيك الله انك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه تحريفات تتذكر لئلا يغتربها فى تفسير كلام الله ورسوله . والمقصود أن قوله العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته أى يجعله مطاعاً لان الحاجة الى العلم عامة لكل أحد الملوك فمن دونهم فكل أحد محتاج الى طاعة العالم فانه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) وفسر أولى الامر بالعلماء قال ابن عباس هم الفقهاء والعلماء أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك واحدى الروايتين عن الامام أحمد وفسروا بالامراء وهو قول ابن زيد واحدى الروايتين

عن ابن عباس وأحمدوالآية تتاولهما جميعاً فطاعة ولاة الامر واجبة اذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع فى أهل الارض من كل أحد فاذا مات أحيا الله ذكره ونشر له فى العالمين أحسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس والجاهل فى حياته حي وهو ميت بين الناس • كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله * وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم * وليس لهم حتي النشور نشور

﴿ وقال الآخر ﴾

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم * وعاش قوم وهم فى الناس أموات

﴿ وقال آخر ﴾

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً * فذلك حي وهو فى الترب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الاسلام كأئمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم فى العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم الا صورهم والا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقاً حتى عد ذلك حياة ثانية • كما قال المتنبي

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته * مافاته وفضول العيش اشغال

قوله وصنيعة المال تزول بزواله يعنى أن كل صنيعة صنعت للرجل من أجل ماله من اكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك فانها انما هي مراعاة لماله فاذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها حتى انه ربما لايسلم عليه من كان يدأب فى خدمته ويسعى فى مصالحه • وقد أكثر الناس من هذا المعنى فى أشعارهم وكلامهم وفي مثل قولهم • من ودك لامر ملك عند انقضائه • قال بعض العرب

وكان بنو عمي يقولون مرحباً * فلما رأونى معسراً مات مرحب

ومن هذا ماقيل اذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن ليعجبك ان أكرموك لعلم أودين وهذا أمر لا ينكر فى الناس حتى أنهم ليكرمون الرجل لثيابه فاذا نزعها لم يرمنهم تلك الكرامة وهو هو قال مالك بلغنى ان أبا هريرة دعى الى وليمة فأتى فحجب فرجع فلبس غير تلك الثياب فادخل فلما وضع الطعام أدخل كمه فى الطعام فعوتب فى ذلك فقال ان هذه الثياب هي التى أدخلت فهى تأكل حكاه ابن مزين الطليطلى فى كتابه وهذا بخلاف صنيعة العلم فانها لا تزول أبداً بل كل مالها فى زيادة مالم يسلب ذلك العالم علمه وصنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال

لانها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهى صادرة عن حب واكرام لاجل ما أودعه الله تعالى اياه من علمه وفضله به على غيره • وأيضاً فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصنيعة المال تابعة لماله المنفصل عنه • وأيضا فصنيعة المال صنيعة معاوضة وصنيعة العلم والدين صنيعة حب وتقرب وديانة • وأيضاً فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر وأما صنيعة العلم والدين فلا تكون الا مع أهل ذلك وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو ان من اصطنعت عنده صنيعة بمالك اذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده وأما من اصطنعت اليه صنيعة علم وهدى فان تلك الصنيعة لاتفارقه أبداً بل ترى فى كل وقت كأنك أسديتها اليه حينئذ • قوله مات خزان الاموال وهم أحياء قد تقدم بيانه • وكذا قوله والعلماء باقون مابقى الدهر • وقوله أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالى أى وان فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم فى القلوب لا تفارقها وهذا هو الوجود الذهني العلمى لان محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وان غابت عنهم أعيانهم • كما قيل

ومن عجب انى أحن اليهم * وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم فى سوادها * ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

﴿ وقال آخر ﴾

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق * وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك فى عيني وذكرك فى فمى * ومثواك فى قلبي فأين تغيب

قوله آه ان ههنا علماً [illegible] وأشار الى صدره يدل على جواز اخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقتبس منه ولينتفع به • ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام اجعلني على خزائن الارض انى حفيظ عليم فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم وهذا يجازيه الله بمقت الناس [illegible] وصغره فى عيونهم [illegible] يكثره فى قلوبهم وعيونهم وانما الأعمال بالنيات وكذلك اذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفى بذلك حقاً له يحتاج فيه الى [illegible] أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته الى من لا يعرف حاله [illegible] من يعرف به وبحاله فان لسان ثناء المرء على نفسه [illegible] من الفخر والتعاظم • ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم أربعة أحدهم من ليس هو بمأمون عليه وهو الذي

أوتي ذكاءوحفظاً ولكن مع ذلك لم يؤت زكاء فهو يتخذ العلم الذى هو آلة الدين آلة الدنيا يستجلبها بهويتوسل بالعلم اليها ويجعل البضاعة التى هى متجر الآخرة متجر الدنيا وهذا غير أمين على ماحمله من العلم ولا يجعله الله اماماً فيه قط فان الامين هو الذى لاغرض له ولا ارادةلنفسه الا اتباع الحق وموافقتهفلا يدعو الى اقامة رياسته ولادنياه وهذا الذى قداتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخاندينه • فلهذا قال غير مأمون عليه •وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذهصفةهذا الخائن اذا أنعم الله عليهاستظهر بتلك النعمة على الناس واذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله • ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمه عليه وتقديمه واقامته دونه وهذه حال كثير ممن يحصل له علم فانه يستغني به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعاً له يقال استظهر فلان على كذا بكذا أي ظهر عليه به وتقدم وجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فان العالم حقاً يستظهر بكتاب الله على كل ماسواه فيقدمه ويحكمه ويجعله امامه ويجعله عياراً على غيره مهيمناً عليه كما جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على الشئ فقد جعله خلف ظهره مقدماً عليه ما استظهر به وهذا حال من استغنى بغير كتاب الله عنه واكتفى بغيره منهوقدم غيره وأخره • والصنف الثاني من حملة العلم المنقاد الذى لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبهبل هوضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لاهله وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وان كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وانما هم من مكثري سواد الجيش لامن امرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من قاده يقوده وهو مطاوع الثلاثي وأصله منقيد كمكتسب ثم قلبت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحةفصار منقاد تقول قدته فانقاد أي لم يمتنع والاحناء جمع حنو بوزن علم وهي الجوانب والنواحي والعرب تقول أزجر احناء طيرك أي أمسك نواحي خفتك وطيشك يميناً وشمالاً واماماً وخلفاً • قال لبيد

فقلت ازدجر احناء طيرك واعلمن بانك ان قدمت رجلك عاثر

والطير هنا الخفة والطيش • وقوله ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة هذا لضعف علمه وقلة بصيرته اذا وردت على قلبه ادنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ماأزالت يقينه ولا قدحت فيه شكا لانه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات بل اذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف

الحق له فتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة فان تداركها والا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتابا والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغي وجيش شبهات الباطل فأيما قلب صغا اليها وركن اليها تشربها وامتلأ بها فينضح لسانه وجوارحه بموجبها فان أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والايرادات فيظن الجاهل ان ذلك لسعة علمه وانما ذلك من عدم علمه ويقينه • وقال لي شيخ الاسلام رضي الله عنه وقد جعلت أورد عليه ايراداً بعد ايراد لاتجعل قلبك للايرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح الا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته والا فاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات أو كما قال فما أعلم اني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك • وانما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها • وأما صاحب العلم واليقين فانه لايغتر بذلك بل يجاوز نظره الى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها ومثال هذا الدرهم الزائف فانه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً الى ماعليه من لباس الفضة والناقد البصير يجاوز نظره الى ماوراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالنحاس الذي تحته وكم قد قتل هذا الاغترار من خلق لا يحصيهم الا الله • واذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر • وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ماشاء الله وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح • وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الامام أحمد وغيره لا نزيل عن الله صفة من صفاته لاجل شناعة شنعت فهؤلاء الجهمية يسمون اثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ماوصف به نفسه تشبيهاً وتجسيما ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا ينفر من هذا المعنى الحق لاجل هذه التسمية الباطلة الا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن مايقدرون عليه من الالفاظ ومقالة مخالفيهم أقبح مايقدرون عليه من الالفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت الالفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ • كما قيل في هذا المعنى

تقول هذا جنى النحل تمدحه * وان تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحاًوذماًوماجاوزت وصفهما * والحق قد يعتريه سوء تعبير

فاذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك عن النفرة والميل ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الانصاف ولا تكن ممن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر فى مقالة خصومه ومن يسئ ظنه به كنظر الشزر والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوى والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا الا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق • وقد قيل

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما أن عين السخط تبدى المساويا

﴿ وقال آخر ﴾

نظروا بعين عداوة لو أنها * عين الرضا لاستحسنوا مااستقبحوا

• فاذا كان هذا فى نظر العين الذى يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذى يدرك المعانى التى هى عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار به • وقوله بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفته اذ تؤثر فيه البداآت ويستفز باوائل الامور بخلاف الثابت التام العاقل فانه لاتستفزه البداآت ولا تزعجه وتقلقله فان الباطل له دهشة وروعة فى أوله فاذا ثبت له القلب رد على عقبيه والله يحب من عنده العلم والاناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه فالعجلة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وحزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة وعاقبة الاول حمد أمره ولكن للاول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت فانه لايخاف من التثبيت الا الفوت فاذا اقترن به العزم والحزم تم أمره • ولهذا فى الدعاء الذى رواه الامام أحمد والنسائى • عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اني أسألك الثبات فى الامر والعزيمة على الرشد وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد الا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتى أحد الا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها فاذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح والله ولى التوفيق • الصنف الثالث رجل نهمته في نيل لذته فهو منقاد لداعي الشهوة أين كان ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك ولا ينال العلم الا بهجر اللذات وتطليق الراحة • قال مسلم فى صحيحه قال يحيي بن أبي كثير لاينال العلم براحة الجسم • وقال ابراهيم

الحربي أجمع عقلاء كل أمة ان النعيم لايدرك بالنعم ومن آثر الراحة فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الانبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فان العلم صناعة القلب وشغله فما لم تتفرغ لصاعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة فاذا وجهت وجهته الى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة ادراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبداً فاذا صارت شهوته فى العلم ولذته فى كل ادراكه رجي له ان يكون من جملة أهله ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الاكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الانسان فيها الحيوان ولذة الشر والظلم والفساد والعلو فى الارض شيطانية يشارك صاحبها فيها ابليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن الا لذة العلم والايمان فانها تكمل بعد المفارقة لان البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فاذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طاب اللذة العظمى وآثر النعيم المقيم فهو فى العلم والايمان اللذين بهما كمال سعادة الانسان • وأيضا فان تلك اللذات سريعة الزوال واذا انقضت أعقبت هما وغما والا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لالمه وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها اليه لكن يحمله عليه مداواة ذلك الغم والهم فأين هذا من لذة العلم ولذة الايمان بالله ومحبته والاقبال عليه والتنعم بذكره فهذه هى اللذة الحقيقية • الصنف الرابع من حرصه وهمته فى جمع الاموال وتثميرها وادخارها فقد صارت لذته فى ذلك وفنى بها عما سواه فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم فهؤلاء الاصناف الاربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين فى طلبه ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصله المبتوتين من حباله وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون فان الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم فهم حجة لكل مفتون • ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون • وقوله أقرب شبها بهم الانعام السائمة وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى (ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) فلم يقتصر سبحانه على تشبيههم بالانعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم والسائمة الراعية • وشبه هؤلاء المؤمنين هؤلاء بها لان همتهم فى سعي الدنيا وحطامها والله تعالى يشبه اهل الجهل والغي تارة بالانعام وتارة بالحمر وهذا تشبيه لمن تعلم علماً ولم يعقله ولم

يعمل به فهو كالحمار الذى يحمل أسفاراً وتارة بالكلب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخلد الى الشهوات والهوى • وقوله كذلك يموت العلم بموت حامليه هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله بن عمر وعائشة رضى الله عنهم وغيرهما ان الله لايقبض العلم انتزاعا ينترعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فاذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا رواه البخارى فى صحيحه فذهاب العلم انما هو بذهاب العلماء • قال ابن مسعود يوم مات عمر رضي الله عنه انى لاحسب تسعة اعشار العلم اليوم قد ذهب وقد تقدم قول عمر رضى الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه • وقوله اللهم بلى لن تخلو الارض من مجتهد قائم لله بحجج الله ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتى على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك • ويدل عليه أيضاً ماروا ه الترمذى عن قتيبة حدثنا حماد بن يحيي الابح عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره قال هذا حديث حسن غريب • ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي انه كان يثبت حماد بن يحيي الابح وكان يقول هو من شيوخنا وفى الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن فى أواخر الامة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية • وأيضاً فان هذه الامة أكمل الامم وخير أمة أخرجت للناس ونبيها خاتم النبيين لا نبي بعده فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه • وكان بنو اسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي فكانت تسوسهم الانبياء والعلماء لهذه الامة كالانبياء فى بنى اسرائيل • وأيضا ففى الحديث الآخر يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على انه لايزال محمولا فى القرون قرنا بعد قرن • وفى صحيح أبي حاتم من حديث الخولانى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فى طاعته وغرس الله هم أهل العلم والعمل فلو خلت الارض من عالم خلت من غرس الله • ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر وزاد الكذابون فى حديث على إما ظاهراً مشهوراً واما خفيا مستوراً وظنوا انذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذابيهم والحديث مشهور عن على لم يقل أحد عنه هذه المقالة الا كذاب وحجج الله لاتقوم بخفى مستور لا يقع العالم له على خبر ولا ينتفعون به فى شيء أصلا فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال

يهتدى به ولا خائف يأمن به ولا ذليـل يتعزز به فأي حجة لله قامت بمن لايري له شخص ولا يسمع منـه كلمة ولا يعـلم له مكان ولا سيما على أصول القائلين به فان الذي دعاهم الي ذلك انهم قالوا لابد منـه فى اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله فيالله العجب أى لطف حصـل بهذا المعدوم لاالمعصوم وأى حجة أثبتم للخالق على ربهم بأصلكم الباطل فان هذا المعدوم اذا لم يكن لهم سبيل قط الى لقائه والاهتداء به فهل فى تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا وهل فى العذر والحجة أبلغ من هـذا فالذى فررتم منه وقعتم فى شر منه وكنتم فى ذلك كما قيل

المستجير بعمرو عند كربته　　　كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله الا ان يفضح من تنقص بالصحابة الاخيار وبسادة هذه الامة وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل

ما آن للسرداب أن يلد الذى　　　حملتموه بزعمكم ماآنا

فعـلى عقولكم العفاء فانكم　　　ثلثتم العنقاء والغيـلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع فانتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها وهذا تصريح من أمير المؤمنين رضى الله عنه بان حامل حجج الله فى الارض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها الي عباده مثله رضى الله عنه ومثل اخوانه من الخلفاء الراشـدين ومن اتبعهم الى يوم القيامـة • وقوله لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أى لكيلا تذهب من بين يدى الناس وتبطل من صدورهم والا فالبطلان محال عليها لانها ملزوم مايستحيل عليـه البطلان • فان قيل فما الفرق بين الحجج والبينات • قيل الفرق بينهما ان الحجج هي الادلة العلميـة التى يعقلها القلب وتسمع بالاذن قال تعالى فى مناظرة ابراهيم لقومه وتبيين بطلان ماهم عليه بالدليل العلمي (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال ابن زيد بعلم الحجة وقال تعالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى) وقال تعالى (والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم) والحجة هى اسم لما يحتج به من حق وباطل قال تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم) فانهم يحتجون عليكم بحجة باطلة (فلا تخشوهم واخشونى) وقال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا ان قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) والحجة المضافة الى الله هي الحق وقـد تكون الحجة بمعنى المخاصمة ومنه قوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لاعـدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم) أى قد وضح الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فان الجدال شريعة موضوعة للتعاون على اظهار الحق فاذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة فى الخصومة والجدال على بصيرة مخاصمة المنكر ومجادلته عناء لاغنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع فى وهم كثير من الجهال ان الشريعة لا احتجاج فيها وان المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان ان الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وان الانبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فان القرآن مملوء من الحجج والادلة والبراهين فى مسائل التوحيد واثبات الصانع والمعاد وارسال الرسل وحدوث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلا صحيحا على ذلك الا وهو فى القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الايرادات والاسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين • قال أبو حامد فى أول الاحياء فان قلت فلم لم تورد فى أقسام العلم الكلام والفلسفه وتبين انهما مذمومان أو ممدوحان فاعلم ان حاصل مايشتمل عليه الكلام من الادلة التى ينتفع بها فالقرآن والاخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو اما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه واما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الاسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شئ منه مألوفا فى العصر الاول ولكن تغير الآن حكمه اذا حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبها ورتبت لها كلاما مؤلفاً فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذوناً فيه •وقال الرازى فى كتابه أقسام اللذات لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروى غليلا ولا تشفى عليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) واقرأ فى النفى ليس كمثله شئ ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى وهذا الذى أشار اليه بحسب مافتح له من دلالة القرآن بطريق الخبر والا فدلالته البرهانية العقلية التى يشير اليها ويرشد اليها فتكون دليلا سمعياً عقلياً أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين فى العلم وهو العلم الذى يطمئن اليه القلب وتسكن عنده النفس ويزكو به العقل وتستنير به البصيرة وتقوى به الحجة ولا سبيل لاحد من العالمين الى قطع من حاج به بل من خاصم به فلجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن

أهل هذا العلم لاتكاد الاعصار تسمح منهم الا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لاتعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً وقال بعض المتكلمين أفنيت عمرى فى الكلام أطلب الدليل وأنا لاأزداد الا بعداً عن الدليل فرجعت الى القرآن أتدبره وأتفكر فيه واذا أنا بالدليل حقا معي وأنا لاأشعر به فقلت والله مامثلى الا كما قال القائل

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الحبيب وما اليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

• قال فلما رجعت الى القرآن اذا هو الحكم والدليل ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته مالو جمع كل حق قاله المتكلمون فى كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وافية بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة اللفظ وتطبيق المفصل وحسن الاحتراز والتنبيه على مواقع الشبه والارشاد الى جوابها واذا هو كما قيل بل فوق ماقيل

كفى وشفى مافى الفؤاد فلم يدع لذى أرب فى القول جداً ولا هزلا

وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد الى كما كانت وتتزاحم فى صدرى ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ولا تلقى منه اقبالا ولا قبولا فترجع على ادبارها • والمقصود ان القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع أنواع الادلة والاقيسة الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيه باقامة الحجة والمجادلة • فقال تعالى (وجادلهم بالتى هي أحسن) • وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هي أحسن) وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لخصومهم واقامة الحجج عليهم لاينكر ذلك الا جاهل مفرط فى الجهل • والمقصود الفرق بين الحجج والبينات • فنقول الحجج الادلة العلمية والبينات جمع بينة وهي صفة فى الاصل يقال آية بينة وحجة بينة والبينة اسم لكل مابين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمى • قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) فالبينات الآيات التى أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم) ومقام ابراهيم آية جزئية مرئية بالابصار وهو من آيات الله الموجودة فى الخارج • ومنه قول موسى لفرعون وقومه (قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معى بنى اسرائيل قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه) وكان القاء العصا وقلبها حية هو البينة • وقال قوم هود ياهود ماجئتنا ببينة يريدون آية الاقتراح

والا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله اليهم فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لايكون لهم عذر فى عدم الاجابة اليه وهذه هي الآيات التى قال الله تعالى فيها (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) فعدم اجابته سبحانه اليها اذ طلبها الكفار رحمة منه واحسان فانه جرت سنته التى لاتبديل لها انهم اذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم الى ماطلبوا فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عباده المؤمنين وان أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التى اقترحوها فكان عدم انزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته واحسانه بخلاف الحجج فانها لم تزل متتابعة يتلو بعضها بعضاً وهي كل يوم فى مزيد وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي اكثر ماكانت وهي باقية الى يوم القيامة • وقوله أولئك الاقلون عدداً الاعظمون عند الله قدراً يعني هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً وهذا سبب غربتهم فانهم قليلون فى الناس والناس على خلاف طريقتهم فلهم نبأ وللناس نبأ • قال النبي صلى الله عليه وسلم بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدا فطوبي للغرباء فالمؤمنون قليل فى الناس والعلماء قليل فى المؤمنين وهؤلاء قليل فى العلماء واياك ان تغتر بما يغتر به الجاهلون فانهم يقولون لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً والناس على خلافهم • فاعلم ان هؤلاء هم الناس ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس فما الناس الا أهل الحق وان كانوا أقلهم عدداً • قال ابن مسعود لايكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على ان يؤمن ولو كفر الناس • وقد ذم سبحانه الاكثرين فى غير موضع كقوله (وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله) • وقال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) • وقال (وقليل من عبادى الشكور) • وقال (وان كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) • وقال بعض العارفين انفرادك فى طريق طلبك دليل على صدق الطلب

مت بداء الهوى والا فخاطر واطرق الحي والعيون نواظر
لاتخف وحشة الطريق اذا سر ت وكن فى خفارة الحق سائر

• وقوله بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم وهذا لان الله سبحانه ضمن حفظ حججه وبيناته وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم انه لاتزال طائفة من أمته على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى قيام الساعة فلا يزال غرس الله الذين غرسهم فى دينه يغرسون العلم فى قلوب من أهلهم الله

لذلك وارتضاهم فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الارض • وفى الأثر المشهور لايزال الله يغرس فى هذا الدين غرساً يستعملهم بطاعته • وكان من دعاء بعض من تقدم اللهم اجعلنى من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك ولهذا ماأقام الله لهذا الدين من يحفظه ثم قبضه اليه الا وقد زرع ماعلمه من العلم والحكمة اما فى قلوب أمثاله واما فى كتب ينتفع بها الناس بعده وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد فان العالم اذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقى له ذكره وهو عمر ثان وحياة أخرى وذلك أحق ماتنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون •وقوله هجم بهم العلم على حقيقة الامر فاستلانوا مااستوعره المترفون وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون• الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لارادتهم ومألوفاتهم قل سالكوها وزهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الامر وعاقبة العباد ومصيرهم وما هيئ له وهيئ لهم فقل علمهم بذلك واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الاخلاص والتقوى وتوعرت عليهم الطريق وبعدت عليهم الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها وسلوك شعابها فاخلدوا الى الدعة والراحة وآثروا العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعودنا نسيئة فنظروا الى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن آجلها ووقفوا مع ظاهرها ولم يتأملوا باطنها وذاقوا حلاوة مباديها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفكر فى الفطام ومرارة الانقطاع وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا فى ذلك * خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به * وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه فى أمته فانهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم الى حقيقة الامر وهجم بهم عليه فعاينوا ببصائرهم ماعشيت عنه بصائر الجاهلين فاطمأنت قلوبهم به وعملوا على الوصول اليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا اليه وسمعوا منادى الايمان نداء فاستبقوا اليه واستيقنت أنفسهم موعودهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه علموا ان الدنيا دار ممر لادار مقر ومنزل عبور لامقعد حبور وانها خيال ضيف أو سحابة صيف وان من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها وتيقنوا انها أحلام نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لايخدع* وأن واصفها صدق فى وصفها اذ يقول

أرى أشقياء الناس لايسأمونها على أنهم فيها عراة وجوع

أراها وان كانت تحب فانها سحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما رحلت عن أهلها موليه وأقبلت الآخرة الى قلوبهم مسرعة كما أسرعت الى الخلق مقبله فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام وما ليل المحب بنائم علموا طول الطريق وقلة المقام فى منزل التزود فسارعوا فى الجهاز وجد بهم السير الى منازل الاحباب فقطعوا المراحل وطووا المفاوز • وهذا كله من ثمرات اليقين فان القلب اذا استيقن ماأمامه من كرامة الله وما أعد لاوليائه بحيث كانه ينظر اليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم أنه اذا زال الحجاب رأى ذلك عيانا زالت عنه الوحشة التى يجدها المتخلفون ولان له ماستوعره المترفون • وهذه المرتبة هى أول مراتب اليقين وهى علمه وتيقنه وهى انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئي للبصر • ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها الى العين كنسبة الاول الى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم وادراكه الادراك التام فالاولى كعلمك بان فى هذا الوادى ماء والثانية كرؤيته والثالثة كالشرب منه • ومن هذا مايروى فى حديث حارثة • وقول النبي صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ياحارثة قال أصبحت مؤمنا حقا قال ان لكل قول حقيقة فما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها فاسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكانى أنظر الى عرش ربى بارزاً وكانى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها والى أهل النار يتعاوون فيها • فقال عبد نور الله قلبه فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الامر ومن وصل الى هذا استلان مايستوعره المترفون وأنس بما يستوحش منه الجاهلون ومن لم يثبت قدم ايمانه على هذه الدرجة فهو ايمان ضعيف وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الايمان وانفساحه وطمأنينة القلب لامر الله والانابة الى ذكر الله ومحبته والفرح بلقائه والتجافى عن دار الغرور كما فى الاثر المشهور اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قيل وما علامة ذلك قال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وهذه هي الحال التى كانت تحصل للصحابة عند النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكرهم الجنة والنار كما فى الترمذى وغيره من حديث الجريرى • عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الاسيدى • وكان من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم انه مر بابى بكر رضي الله عنه وهو يبكى فقال مالك ياحنظلة فقال نافق حنظلة ياأبا بكر نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كانا رأى عين فاذا رجعنا الى الازواج والضيعة نسينا كثيرا قال فوالله انا لكذلك انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مالك ياحنظلة قال نافق حنظلة

يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كانا رأى عين فاذا رجعنا عافسنا الازواج والضيعة ونسينا كثيراً • قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فرشكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة • قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وفى الترمذى أيضاً نحوه من حديث أبي هريرة • والمقصود أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة الايمان ويلين له مايستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخالص والحب تبع للعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والمحب لايستوعر طريقاً توصله الى محبوبه ولا يستوحش فيها • وقوله صحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالملأ الاعلى وفى رواية بالمحل الاعلى الروح فى هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر الا فى وطنها وهي جوهر علوي مخلوق من مادة علوية وقد اضطرت الى مساكنة هذا البدن الكثيف فهى دائما تطاب وطنها فى المحل الاعلى وتحنّ اليه حنين الطير الى أوكارها وكل روح فيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخلدت الى الارض ونسيت معلمها ووطنها الذى لاراحة لها فى غيره فانه لاراحة للمؤمن دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقا فلهذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه فى المحل الاعلى • وفى الحديث المرفوع اذا نام العبد وهو ساجد باهي الله به الملائكة فيقول انظروا الى عبدى بدنه فى الارض وروحه عندى رواه تمام وغيره • وهذا معنى قول بعض السلف القلوب جوالة فقلب حول الحشر وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش فاعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها فى أعماق البدن واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ماخلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الالم والعذاب فاذا صحت من سكرها وأفاقت من غمرتها أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب فحينئذ تتقطع حسرات على مافاتها من كرامة الله وقربه والانس به والوصول الى وطنها الذى لاراحة لها الا فيه كما قيل

صحبتك اذ عيني عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تطمئن الا فى وطنها ومحلها الذى خلقت له كما قيل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ماالحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لاول منزل

• واذا كانت الروح تحن أبداً الى وطنها من الارض مع قيام غيره مقامه فى السكنى وكثيراً مايكون غير وطنها أحسن وأطيب منه وهى دائما تحن اليه مع انه لاضرر عليها ولاعذاب فى مفارقته الى مثله فكيف بحنينها الى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لاتنقضى فالعبد المؤمن فى هــذه الدار سبي من الجنة الى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه الى داره التى سبي منها وفرق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه فى الدنيا ولي من أبيات فى ذلك

وحي على جنات عدن فانها * منازلك الاولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى * نعود الى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وأيلافه وطنا غيره أبت ذلك روحه وقلبه كما قيل

يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريباً فى هذه الدار أين حل منها فهو فى دار غربة • كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كن فى الدنيا كانك غريب أو عابر سبيل ولكنها غربة تنقضى ويصير الي وطنه ومنزله وانما الغــربة التى لايرجي انقطاعها فهى غربة فى دار الهوان ومفارقة وطنه الذى كان قد هيئ وأعد له وأمر بالتجهز اليه والقدوم عليه فابى الا اغترابه عنه ومفارقته له فتلك غربة لايرجي ايابها ولا يجبر مصابها ولا تبادر الي انكار كون البدن فى الدنيا والروح فى المــلأ الاعلى فللروح شأن وللبدن شأن والنبي صــلى الله عليه وسلم كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه • وقال أبو الدرداء اذا نام العبد عرج بروحه الى تحت العرش فان كان طاهرا أذن لها بالسجود وان لم يكن طاهرا لم يؤذن لها بالسجود فهذه والله أعلم هى العلة التى أمر الجنب لاجلها ان يتوضأ اذا أراد النوم وهذا الصعود انما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم فاذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقي والصعود بحسب ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالمحب حتى لايشاهد منه بين الناس الا جسمه وروحه فى موضع آخر عند محبوبه وفى هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف • وقوله أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته الى دينه هذا حجة أحد القولين فى انه يجوز ان يقال فلان خليفة الله فى أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى للملائكة (انى جاعل فى الارض خليفة) • واحتجوا بقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خــلائف فى الارض) وهذا خطاب لنوع الانسان

وبقوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض) • وبقول موسى لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون) • وبقول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ممكن لكم فى الارض ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء • واحتجوا بقول الراعي يخاطب أبا بكر رضى الله عنه

خليفة الرحمن انا معشر * حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله فى أموالنا * حق الزكاة منزلا تنزيلا

• ومنعت طائفة هذا الاطلاق وقالت لا يقال لاحد انه خليفة الله فان الخليفة انما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راء وسامع فمحال ان يخلفه غيره بل هو سبحانه الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته • كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الدجال ان يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مؤمن والحديث فى الصحيح • وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا سافر اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الاهل والحضر الحديث • وفى الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم اغفر لابى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى أهله فالله تعالى هو خليفة العبد لان العبد يموت فيحتاج الى من يخلفه فى أهله • قالوا ولهذا أنكر الصديق رضى الله عنه على من قال له يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسبي ذلك • قالوا وأما قوله تعالى (انى جاعل فى الارض خليفة) فلا خلاف ان المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله فى الارض • قيل عن الجن الذين كانوا سكانه • وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة فى التفاسير • وأما قوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الارض) فليس المراد به خلائف عن الله وانما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً فكلما هلك قرن خلفه قرن الى آخر الدهر • ثم قيل ان هذا خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة أى جعلكم خلائف من الامم الماضية فهلكوا وورثتم أنتم الارض من بعدهم • ولا ريب ان هذا الخطاب للامة والمراد نوع الانسان الذى جعل الله أباهم خليفة عمن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضاً الى قيام الساعة ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض) • وأما قول موسى لقومه

(ويستخلفكم فى الارض) فليس ذلك استخلافا عنه وانما هو استخلاف عن فرعون وقومه أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذاقول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله مستخلفكم فى الارض أي من الامم التى تهلك وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم • قالوا وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق لا يدرى أبلغت أبا بكر أم لا ولو بلغته فلا يعلم انه أقره على هذه اللفظة أم لا • قالت ان أريد بالاضافة الى الله انه خليفة عنه • فالصواب قول الطائفة المانعة منها وان أريد بالاضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لايمتنع فيه الاضافة وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفاً عن غيره وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله فى أرضه • فان قيل هذا لامدح فيه لأن هذا الاستخلاف عام فى الامة وخلافة الله التى ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق • فالجواب ان الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الاضافة فالاضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف اليه عباده • كقوله تعالى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان * وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا) ونظائرهما • ومعلوم ان كل الخلق عباد له فخلفاء الارض كالعباد فى قوله (والله بصير بالعباد* وما الله يريد ظلماً للعباد) وخلفاء الله كعباد الله فى قوله (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) ونظائره وحقيقة اللفظة ان الخليفة هو الذى يخلف الذاهب أى يجيء بعده يقال خلف فلان فلانا وأصلها خليف بغير هاء لأنها فعيل بمعنى فاعل كالعليم والقدير فدخلت التاء للمبالغة فى الوصف كراوية وعلامة • ولهذا جمع جمع فعيل فقيل خلفاء كشريف وشرفاء وكريم وكرماء ومن راعي لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على فعائل فقال خلائف كعقيلة وعقائل وظريفة وظرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة • والصواب ان التاء انما دخلت فيها للعدل عن الوصف الى الاسم فان الكلمة صفة فى الاصل ثم أجريت مجرى الاسماء فألحقت التاء لذلك كما قالوا نطيحة بالتاء فاذا أجروها صفة قالوا شاة نطيح كما يقولون كف خضيب والا فلا معنى للمبالغة فى خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم • وقوله ودعاته الى دينه الدعاة جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماة واضافتهم الى الله للاختصاص أى الدعاة المخصوصون به الذين يدعون الي دينه وعبادته ومعرفته ومحبته وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً * يدل على ذلك (الوجه الثلاثون بعد المئة) وهو قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين) • قال الحسن هو المؤمن أجاب الله فى دعوته ودعا الناس الي

في ذلك لم يكونوا موقنين فضلا عن أن يمدحوا بهذا المدح وبقوله (قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) • وبقوله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) وبقول الشاعر

فقلت لهم ظنوا بالفي مقاتل سراتهم في الفارسي المسرد

أى استيقنوا بهذا العدد وأبى ذلك طائفة وقالوا لا يكون اليقين الا للعلم واما الظن فنهم من وافق على انه يكون الظن فى موضع اليقين واجابوا عما احتج به من جوز ذلك بان قالوا هذه المواضع التي زعمتم أن الظن وقع فيها موقع اليقين كلها على بابها فانا لم نجد ذلك الا في علم بمغيب ولم نجدهم يقولون لمن رأى الشئ أظنه ولمن ذاقه اظنه وانما يقال لغائب قد عرف بالسمع والعلم فاذا صار الى المشاهدة امتنع اطلاق الظن عليه قالوا وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها أوقع على العلم بالغائب الظن لفقد الحال التى تحصل المدركة بالمشاهدة وعلى هذا اخرجت سائر الادلة التي ذكرتموها ولا يرد على هذا قوله (ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها) لأن الظن انما وقع على مواقعتها وهي غيب حال الرؤية فاذا واقعوها لم يكن ذلك ظنا بل حق يقين قالوا وأما قول الشاعر *وايقن انني بها مفتد• فعلى بابه لأنه ظن ان الاسد لتيقنه شجاعته وجراءته موقن بان الرجل يدع ناقته له يفتدى بها من نفسه قالوا وعلى هذا يخرج معنى الحديث نحن احق بالشك من ابراهيم وفيه اجوبة لكن بين العيان والخبر رتبة طلب ابراهيم زوالها بقوله ولكن ليطمئن قلبي فعبر عن تلك الرتبة بالشك والله أعلم (الوجه الثاني والثلاثون بعد المائة) ما رواه ابو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه الي النبي صلى الله عليه وسلم قال طلب العلم فريضة على كل مسلم وهذا وان كان في سنده حفص بن سليمان وقد ضعف فمعناه صحيح فان الايمان فرض على كل احد وهو ماهية مركبة من علم وعمل فلا يتصور وجود الايمان الا بالعلم والعمل • ثم شرائع الاسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن اداؤها الا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالي اخرج عباده من بطون امهاتهم لا يعلمون شيئا فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل تمكن عبادة الله التى هي حقه على العباد كلهم الا بالعلم وهل ينال العلم الا بطلبه ثم ان العلم المفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو انواع النوع الاول• علم اصول الايمان الخمسة الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فان من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الايمان ولا يستحق اسم المؤمن • قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) • وقال (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه

ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) • ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال صدقت فالايمان بهذه الاصول فرع معرفتها والعلم بها • النوع الثاني علم شرائع الاسلام واللازم منها علم مايخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها • النوع الثالث علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الالهية وهي المذكورة في قوله تعالي (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لاتباح قط ولهذا اتى فيها بانما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الاطلاق والدوام فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق • النوع الرابع علم احكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف احوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الامام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لانواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لايبيع ولايشتري الا ما تدعو الحاجة اليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس في أسباب العلم الواجب وذلك يرجع الي ثلاثة اصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقته للحق في نفسه والواجب في العمل معرفته موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً واباحة والواجب في الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله وان المطلوب منه ابقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك في طلبه او كف النفس عن فعله على الطريقتين • وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والابدان وأما فرض الكفاية فلا اعلم فيه ضابطاً صحيحا فان كل احد يدخل في ذلك ما يظنه فرضا فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناه علي عدم صحة ايمان المقلد وكل هذا هوس وخبط فلا فرض الا مافرضه الله ورسوله فياسبحان الله هل فرض الله على كل مسلم ان يكون طبيبا حجاما حاسبا مهندسا أو حائكا أو فلاحا أو نجارا أو خياطا فان فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وانما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل بكون الله قد فرض على كل احد جملة هذه الصنائع والعلوم فانه

ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل احد أن يكون حاسبا حائكا خياطاً نجارا فلاحا طبيبا مهندساً فان قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك ان كل واحد منها فرض كفاية صحيحا لأن فرض الكفاية يجب على العموم ‧ وأما المنطق فلو كان علما صحيحا كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله اضعاف حقه وفساده وتناقض اصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن ان يزيغ في فكره ولا يؤمن بهذا الامر قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح واخبر بعض من كان قد قرأه وعني به أنه لم يزل متعجبا من فساد اصوله وقواعده ومباينتها لصريح المعقول وتضمنها لدعاوٍ محضة غير مدلول عليها وتفريقه بين متساويين وجمعه بين مختلفين فيحكم على الشيء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم أو يحكم على الشيء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به قال الى ان سألت بعض رؤسائه وشيوخ اهله عن شيء من ذلك فافكر فيه ثم قال هذا علم قد صقلته الاذهان ومرت عليه من عهد القرون الاوائل أو كما قال فينبغي ان نتسلمه من أهله وكان هذا من أفضل ما رأيت في المنطق ‧ قال الى ان وقفت على رد متكلمي الاسلام عليه وتبيين فساده وتناقضه فوقفت على مصنف لابي سعيد السيرافي النحوي في ذلك وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم كالقاضي ابي بكر بن الطيب والقاضي عبد الجبار والجبائي وابنه وابي المعالي وابي القاسم الانصاري وخلق لا يحصون كثرة ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الاشكال وتخليطهم ما كان ينقدح لي كثير منه ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الاسلام قدس الله روحه فانه اتى في كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب وكشف اسرارهم وهتك استارهم فقلت في ذلك

واعجباً لمنطق اليونان ... كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط الجيد من الأذهان ... ومفسد لفطرة الانسان
مضطرب الاصول والمباني ... على شفا هار بناه الباني
احوج ما كان اليه العاني ... يخونه في السر والاعلان
يمشي به اللسان في الميدان ... مشي مقيد على صفوان
متصل العثار والتواني ... كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظامئ الحيران ... فأمّه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمآن ... فلم يجد ثم سوى الحرمان

فعاد بالخيبة والخسران يقرع سن نادم حيران .
قد ضاع منه العمر في الأماني وعاين الخفة في الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلا أولى منه بان يكون علماً تعلمه فرض كفاية أو فرض عين وهذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الاسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولا من ان يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين وما دخل المنطق على علم الا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده • ومن الناس من يقول ان علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعاني والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها • ومن الناس من يقول تعلم أصول الفقه فرض كفاية لأنه العلم الذى يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال وهذه الأقوال وان كانت أقرب الى الصواب من القول الأول فليس وجوبها عاماً على كل أحد ولا في كل وقت وانما يجب وجوب الوسائل في بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص بخلاف الفرض الذى يعم وجوبه كل أحد وهو علم الايمان وشرائع الاسلام فهذا هو الواجب وأما ماعداه فان توقفت معرفته عليه فهو من باب مالا يتم الواجب الا به ويكون الواجب منه القدر الموصل اليه دون المسائل التي هي فضلة لايتوقف معرفة الخطاب وفهمه اليها فلا يطلق القول بان علم العربية واجب على الاطلاق إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لايتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها وكذلك أصول الفقه القدر الذى يتوقف فهم الخطاب عليه منه تجب معرفته دون المسائل المقدرة والابحاث التى هى فضلة فكيف يقال ان تعلمها واجب وبالجملة فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال اذا توقف على شيء منها كان ذلك الشيء واجباً وجوب الوسائل • ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان فليس لذلك حد مقدر والله أعلم

(الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة) ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها قال يارب أى عبادك أتقى قال الذى يذكر ولا ينسى قال فأي عبادك أهدى قال الذى يتبع الهدى قال فأي عبادك أحكم قال الذى يحكم للناس مايحكم لنفسه قال أي عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس الى علمه قال فأي عبادك أعز قال الذي اذا قدر عفا قال فأي عبادك أغنى قال الذى

يرضى بما أوتي قال فأي عبادك أفقر قال صاحب منقوص فأخبر في هذا الحديث ان أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس الى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله وهذا هو الذي حمل موسى على الرحلة الى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله • هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله في زمانه وأعلم الخلق فحمله حرصه ونهمته في العلم على الرحلة الى العالم الذي وصف له فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة الى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة وعن مقاسات النصب والتعب في رحلته وتلطفه للخضر في قوله (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) فلم ير اتباعه حتى استأذنه في ذلك وأخبره انه جاء متعلماً مستفيداً فهذا النبي الكريم كان عالماً بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه (الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة) ان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته وايثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ونصب للعباد علماً لا كمال لهم إلا به وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته ولذلك أرسل رسله وانزل كتبه وشرع شرائعه فكمال العبد الذي لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا على محبته • قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته واذا فعل فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ولا يزال هذا الأمر يقوي عنده حتى تنقلب مباحاته كلها طاعات فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده وهو دائماً بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها فهو سائر الى الله دائماً في نومه ويقظته • قال بعض العلماء الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى والحمقى عباداتهم عادات وقال بعض السلف حبذا نوم الأكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحمقى وصومهم فالمحب الصادق ان نطق نطق لله وبالله وان سكت سكت لله وان تحرك فبأمر الله وان سكن فسكونه استعانة على مرضات الله فهو لله وبالله ومع الله ومعلوم ان صاحب هذا المقام أحوج خلق الله الى العلم فانه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ولا السكون المحبوب له من غيره الا بالعلم فليست حاجته الى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولأنه في نفسه صفة كمال بل حاجته اليه كحاجته الى ما به قوام نفسه وذاته ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه وانه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة • قال ذو النون وقد سئل من السفلة فقال من لا

يعرف الطريق الي الله تعالي ولا يتعرفه وقال ابو يزيد لو نظر تم الي الرجل وقد اعطي من الكرامات حتى يتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة • وقال ابوحمزة البزاز من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى اقواله وافعاله واحواله • وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد ذهاب الاسلام على يدي أربعة اصناف من الناس صنف لا يعملون بما يعلمون وصنف يعملون بما لا يعلمون وصنف لا يعملون ولا يعلمون وصنف يمنعون الناس من التعلم قلت • الصنف الاول من له علم بلا عمل فهو أضر شئ على العامة فانه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة • والصنف الثانى العابد الجاهل فان الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فان الناس انما يقتدون بعلمائهم وعبادهم فاذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة • والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وانما هم كالانعام السائمة • والصنف الرابع نواب ابليس فى الارض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن فانهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه فهؤلاء الاربعة اصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهلكة وما يلقى العالم الداعى الي الله ورسوله ما يلقاه من الاذى والمحاربة الا على ايديهم والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب في مرضاته انه بعباده خبير بصير ولا ينكشف سرّ هذه الطوائف وطريقتهم الا بالعلم فعاد الخير بحذافيره الي العلم وموجبه والشرّ بحذافيره الي الجهل وموجبه ﴿الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة﴾ ان الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة • قال تعالي (ذلك هدي الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) وقد قيل ان هؤلاء القوم هم الانبياء وقيل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن هذه امهات الاقوال بعد اقوال متفرعة عن هذه كقول من قال هم الانصار أو المهاجرون والانصار وقوم من أبناء فارس وقال آخرون هم الملائكة • قال ابن جرير وأولى هذه الاقوال بالصواب نهم الانبياء الثمانية عشر الذين سماهم فى الآيات قبل هذه الآية • قال وذلك ان الخبر

في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر فاليها بان يكون خبراعنهم أولى واحق بان يكون خبراً عن غيرهم فالتأويل فان يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وانبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بها بصحتها. قلت السورة مكية والاشارة بقوله هؤلاء الى من كفر به من قومه اصلاً ومن عداهم تبعا فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الامة والقوم الموكلون بها هم الانبياء اصلا والمؤمنون بهم تبعا فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة اليها ولاريب ان هذا للانبياء اصلا وللمؤمنين بهم تبعاً واحق من دخل فيها من اتباع الرسول خلفاؤه في امته وورثته فهم الموكلون بها وهذا ينتظم في الاقوال التي قيلت في الآية. واما قول من قال انهم الملائكة فضعيف جداً لايدل عليه السياق وتأباه لفظة قوما إذ الغالب في القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة. واما قول ابراهيم لهم قوم منكرون فانما قاله لما ظنهم من الانس وايضاً فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده ولهذا لو أظهر ذلك وقيل فان يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة فانهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها وبيان عدم تأهلهم لها والانعام عليهم وايثار غيرهم من أهل الايمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها واهلها والله اعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء وايضاً فان تحت هذه الآية اشارة وبشارة بحفظها وانه لا ضيعة عليها وان هؤلاء وان ضيعوها ولم يقبلوها فان لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا فان لها اهلا ومستحقا سواهم فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة اليها والمسارعة الى قبولها وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وايثاره اياهم بهذه النعمة على اعدائه الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وانكم وان لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير كما قال تعالى . (قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) واذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا امره ولم يلتفتوا الى عهده وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لامره فنظر اليهم وقال ان يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا امرى ويضيعوا عهدى فان لى عبيداً سواهم وهم انتم تضيعون امرى وتحفظون عهدى وتودون حقى فان عبيده المطيعين يجدون فى نفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام

يحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم وما لكهم وهذا امر يشهد به الحس والعيان • واما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للايمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه وبها الاولى متعلقة بوكلنا وبها الثانية متعلقة بكافرين والباء فى بكافرين لتأكيد النفي • فان قلت فهل يصح ان يقال لاحد هؤلاء الموكلين انه وكيل الله بهذا المعني كما يقال ولي الله • قلت لا يلزم من اطلاق فعل التوكل المقيد بامر ما ان يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما انه لا يلزم من اطلاق فعل الاستخلاف المقيد ان يقال خليفة الله لموله (ويستخلفكم فى الارض) •وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم) فلا يوجب هذا الاستخلاف ان يقال لكل منهم انه خليفة الله لأنه استخلاف مقيد ولما قيل للصديق يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك ولكن يسوغ أن يقال هو وكيل بذلك كما قال تعالى (فقد وكلنا بها قوماً) والمقصود ان هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملاً وجهاداً لاعدائها وذباعنها ونفياً لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين • وايضاً فهو توكيل رحمة واحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة اليه • ولهذا قال بعض السلف (فقد وكلنا بها قوماً) يقول رزقناها قوما فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها انه وكيل لله وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة فانها المحبة والقرب فكما يقال عبد الله وحبيبه يقال وليه والله تعالى يوالي عبده احساناً اليه وجبراً له ورحمة بخلاف المخلوق فانه يوالي المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته واما العزيز الغني فلا يوالي احداً من ذل ولا حاجة • قال تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) فلم ينف الولي نفيا عاما مطلقا بل نفى أن يكون له ولي من الذل واثبت فى موضع آخران له اولياء بقوله (ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وقوله (الله ولي الذين آمنوا) فهذا موالاة رحمة واحسان وجبر والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل *يوضح هذا (الوجه السادس والثلاثون بعد المائة) وهو ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة انه قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فهذا الحمل المشار اليه فى هذا الحديث هو التوكل المذكور فى الآية فاخبر صلى الله عليه وسلم ان العلم الذي جاء به يحمله عدول امته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب وهذا

يتضمن تعديله صلى الله عليه وسلم لحملة العلم الذي بعث به وهو المشار اليه في قوله هذا العلم فكل من حمل العلم المشار اليه لابد وان يكون عدلا ولهذا اشتهر عند الامة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء ولاريب ان من عدّله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع فيه جرح فالأئمة الذين اشتهروا عند الامة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض وهذا بخلاف من اشتهر عند الامة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين فى الدين فانهم ليسوا عند الامة من حملة العلم فما حمل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعدل ولكن قد يغلط فى مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل من لاذنب له وليس كذلك بل هو عدل مؤتمن على الدين وان كان منه ما يتوب الى الله منه فان هذا لاينا فى العدالة كما لاينا في الايمان والولاية

﴿فصل﴾ وهذا الحديث له طرق عديدة منها ما رواه ابن عدي عن موسى بن اسمعيل بن موسى بن جعفر عن ابيه عن جده جعفر بن محمد عن ابيه عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم • ومنها ما رواه العوّام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكره الخطيب وغيره • ومنها ما رواه ابن عدي من حديث الليث بن سعد عن يزيد بن ابى حبيب عن سالم عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم • ومنها مارواه محمد بن جرير الطبرى من حديث ابن ابى كريمة عن معاذ بن رفاعة السلامي عن ابي عثمان النهدي عن اسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم • ومنها ما رواه حماد بن يزيد عن بقية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال الدارقطني حدثنا احمد بن الحسن بن زيد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا مثنى بن بكر ومبشر وغيرهما من أهل العلم كلهم يقولون حدثنا معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن عن النبي صلى الله عليه وسلم يعنى أن المحفوظ من هذا الطريق مرسل لأن ابراهيم هذا لاصحبة له • وقال الخلال فى كتاب العلل قرأت على زهير بن صالح بن احمد حدثنا مهنا قال سالت احمد عن حديث معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فقلت لاحمد كانه موضوع قال لا هو صحيح فقلت ممن سمعته انت فقال من غير واحد قلت من هم قال حدثني به مسكين الا انه يقول عن معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن قال احمد • معاذ بن رفاعة لا بأس به • ومنها ما رواه ابو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحيي بن

سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يرث هذا العلم من كل خلف عدوله • ومنها ما رواه أبو احمد بن عدي من حديث زريق بن عبد الله الالهانى عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابي امامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه عنه بقية •ومنهاما رواه ابن عدي أيضاً من طريق مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابي حازم عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم • ومنها ما رواه تمام فى فوائده من حديث الليث عن يزيد بن ابى حبيب عن ابي الخير عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو وابي هريرة رواه عنه خالد ابن عمرو•ومنها ما رواه القاضي اسماعيل من حديث علي بن مسلم البلوي عن ابى صالح الاشعري عن ابى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (الوجه السابع والثلاثون بعد المائة) ان بقاء الدين والدنيا فى بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين فقوام الدين والدنيا انما هو بالعلم قال الاوزاعى قال ابن شهاب الزهرى الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعا فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله •وقال ابن وهب أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال بلغنا عن رجال من أهل العلم انهم كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله (الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة) ان العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولاغيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفاً ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك كما ثبت فى الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة فقال له عمر من استخلفت على أهل الوادى قال استخلفت عليهم ابن ابزى فقال من ابن أبزى فقال رجل من موالينا فقال عمر استخلفت عليهم مولى فقال انه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض فقال عمر أما ان نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين قال أبو العالية كنت آتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ بيدى فيجلسنى معه على السرير فتغامز بى قريش ففطن لهم ابن عباس فقال كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة وقال ابراهيم الحربى كان عطاء بن أبي رباح عبداً أسود لامرأة من مكة وكان أنفه كأنه باقلاة قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين الى عطاء هو وابناه فجلسوا اليه وهو يصلى فلما صلى انفتل اليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه اليهم ثم قال سليمان لابنيه قوما فقاما فقال يابني لاتنيا في طلب العلم فاني لا أنسى ذلنا بين

يدي هذا العبد الاسود قال الحربي وكان محمد بن عبد الرحمن الا وقص عنقه داخل في بدنه وكان منكباه خارجين كأنهما زجان فقالت أمه يابني لاتكون في مجلس قوم الا كنت المضحوك منه المسخور به فعايك بطلب العلم فانه يرفعك فولي قضاء مكة عشرين سنة قال وكان الخصم اذا جلس اليه بين يديه يرعد حتى يقوم قال ومرت به امرأة وهو يقول اللهم اعتق رقبتي من النار فقالت له يابن أخي وأي رقبة لك وقال يحيي بن أكثم قال الرشيد ماأنبل المراتب قلت ما أنت فيه ياأمير المؤمنين قال فتعرف أجل مني قلت لا قال لكني أعرفه رجل في حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي عهد المؤمنين قال نعم ويلك هذا خير مني لان اسمه مقترن باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبداً ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقي الدهر وقال خيثمة بن سليمان سمعت ابن أبي الحناجر يقول كنا في مجلس يزيد ابن هارون والناس قد اجتمعوا اليه فمر أمير المؤمنين فوقف علينا في المجلس وفي المجلس ألوف فالتفت الى أصحابه وقال هذا الملك وفي تاريخ بغداد للخطيب حدثني أبو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد قال سمعت الحسن بن عليّ المقرى يقول سمعت أبا الحسين بن فارس يقول سمعت الأستاذ ابن العميد يقول ما كنت أظن ان في الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التي أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان ابن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وزكا أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابي عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي فقال هاته فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث فقال الطبراني أنا سليمان بن أيوب ومني سمع أبو خليفة فاسمع مني حتى يعلو اسنادك فانك تروى عن أبي خليفة عني فخجل الجعابي وغلبه الطبراني قال ابن العميد فوددت في مكاني أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لي وكنت الطبراني وفرحت مثل الفرح الذي فرح الطبراني لاجل الحديث أو كما قال • وقال المزني سمعت الشافعي يقول من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر في الفقه نبل مقداره ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن كتب الحديث قويت حجته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه وقد روى هذا الكلام عن الشافعي من وجوه متعددة وقال سفيان الثوري من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم • وقال عبد الله بن داود سمعت سفيان الثوري يقول

ان هذا الحديث عز فمن أراد به الدنيا وجدها ومن أراد به الآخرة وجدها وقال النضر بن شميل من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عباده وقال حمزة بن سعيد المصري لما حدث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدث قال لابنه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا قال ثلاثمائة دينار قال فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكراً ان أباك اليوم شهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت شهادته وفى كتاب الجليس والأنيس لابي الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى حدثنا محمد بن الحسين بن دريد حدثنا أبو حاتم عن العتبي عن أبيه قال ابتنى معاوية بالابطح مجلساً فجلس عليه ومعه ابنه قرظة فاذا هو بجماعة على رحال لهم واذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى

من يساجلنى يساجل ماجداً   يملأ الدلو الى عقد الكرب

قال من هذا قالوا عبد الله بن جعفر قال خلوا له الطريق ثم اذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنى

بينما يذكرننى أبصرننى   عند قيد الميل يسعى بى الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم   قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال من هذا قالوا عمر بن أبي ربيعة قال خلوا له الطريق فيذهب قال ثم اذا هو بجماعة واذا فيهم رجل يسئل فيقال له رميت قبل ان أحلق وحلقت قبل ان أرمى في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج فقال من هذا قالوا عبد الله بن عمر فالتفت الى ابنه قرظة وقال هذا وأبيك الشرف هذا والله شرف الدنيا والآخرة • وقال سفيان بن عيينة أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء وقال سهل التسترى من أراد أن ينظر الى مجالس الأنبياء فلينظر الى مجالس العلماء يجيء الرجل فيقول يافلان ايش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا فيقول طلقت امرأته ويجيء آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول ليس يحنث بهذا القول وليس هذا الا لنبي أو عالم فاعرفوا لهم ذلك ﴿ الوجه التاسع والثلاثون بعد المائة ﴾ ان النفوس الجاهلة التى لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والازراء عليها والتنقص بها أسرع منه الى غيرها وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام قال الأعمش اني لارى الشيخ لا يروي شيئاً من الحديث فاشتهى ان ألطمه وقال ابو معاوية سمعت الأعمش يقول من لم يطلب الحديث أشتهى أن أصفعه بنعلي وقال هشام بن علي سمعت الأعمش يقول اذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له فانه من شيوخ القمراء قال أبو صالح قلت لأبي

جعفر ما شيوخ القمراء قال شيوخ دهريون يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام الناس ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة وقال المزني كان الشافعي اذا رأى شيخاً سأله عن الحديث والفقه فان كان عنده شي والا قال له لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الاسلام قد ضيعت نفسك وضيعت الاسلام وكان بعض خلفاء بني العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمه فأذن له وغطى الرقعة فلما جلس قال له يا عم هل قرأت القرآن قال لا قال هل كتبت شيئاً من السنة قال لا قال فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس قال لا قال فهل نظرت في العربية وأيام الناس قال لا قال فقال الخليفة اكشف الرقعة ثم أتم اللعب وزال احتشامه وحياؤه منه وقال له ملاعبه يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه قال اسكت فما معنا أحد • وهذا لأن الانسان انما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم فاذا عدم ذلك لم يبق فيه الا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهي الحيوانية البهيمية ومثل هذا لا يستحيي منه الناس ولا يتنعون بحضرته وشهوده مما يستحيا منه من أولي الفضل والعلم (الوجه الأربعون بعد المائة) ان كل صاحب بضاعة سوى العلم اذا علم ان غير بضاعته خير منها زهد في بضاعته ورغب في الأخرى وود أنها له عوض بضاعته الا صاحب بضاعة العلم فانه ليس يحب ان له بحظه منها حظ أصلا وكان سفيان الثوري اذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال لا جزاك الله عن الاسلام خير قال أبو جعفر الطحاوي كنت عند أحمد بن أبي عمران فمر بنا رجل من بني الدنيا فنظرت اليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لي كأني بك قد فكرت فيما أعطي هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة هل لك أن يحول الله اليك ما عنده من المال ويحول اليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنياً جاهلا ويعيش هو عالماً فقيراً فقلت ما أختار أن يحول الله ما عندي من العلم الى ما عنده فالعلم غنى بلا مال وعز بلا عشيرة وسلطان بلا رجال وفي ذلك قيل

العلم كنز وذخر لا نفاد له ... نعم القرين اذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالاً ثم يحرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً ... ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلن به دراً ولا ذهباً

(الوجه الحادي والأربعون بعد المائة) أن الله سبحانه أخبر أنه يجزي المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وأخبر سبحانه أنه يجزي على الاحسان بالعلم وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء أما المقام الأول ففي قوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق

به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ وهـذا يتناول الجزاءين الدنيوى والأخروى وأما المقام الثانى ففي قوله تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ قال الحسن من أحسن عبادة الله فى شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله ﴿ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ومن هذا قال بعض العلماء تقول الحكمة من التمس فلم يجدنى فليعمل باحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم فاذا فعل ذلك فانا معه وإن لم يعرفني ﴿ الوجه الثانى والاربعون بعد المائة ﴾ إن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالمطر للأرض فكما أنه لاحياة للارض الا بالمطر فكذلك لا حياه للقلب الا بالعلم • وفى الموطأ قال لقمان لابنه يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله تعالى يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الارض بوابل المطر ولهذا الارض إنما تحتاج إلي المطر في بعض الاوقات فاذا تتابع عليها احتاجت إلي انقطاعه وأما العلم فيحتاج اليه بعدد الانفاس ولا تزيده كثرته الا صلاحا ونفعا ﴿ الوجه الثالث والاربعون بعد المائة ﴾ ان كثيرا من الاخلاق التى لا تحمد في الشخص بل يذم عليها تحمد فى طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها • قال ابن قتيبة جاء في الحديث ليس الملق من اخلاق المؤمنين الا في طلب العلم وهـذا أثر عن بعض السلف • وقال ابن عباس ذللت طالبا فعززت مطلوبا وقال وجدت عامة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحي من الانصار إن كنت لأ قيل عند باب احدهم ولو شئت أذن لى ولكن أبتغى بذلك طيب نفسه • وقال ابو اسحاق قال علي كلمات لو رحلتم المطي فيهن لا فنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستحي من لا يعلم ان يتعلم ولا يستحي اذا سئل عما لا يعلم ان يقول لا أعلم واعلموا ان منزلة الصبر من الايمان كمنزلة الرأس من الجسد فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد واذا ذهب الصبر ذهب الايمان • ومن كلام بعض العلماء لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره • وإنما حمدت هـذه الاخلاق فى طلب العلم لأنها طريق الى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية الي كماله • ومن كلام الحسن من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله فاقطعوا سرابيل الحياء فانه من رق وجهه رق علمه • وقال الخليل منزلة الجهل بين الحياء والانفة • ومن كلام علىّ رضي الله تعالي عنه قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان • وقال ابراهيم منصور سل مسألة الحمقى

واحفظ حفظ الاكياس • وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل وذلة تنافى المروءة الا فى العلم فانه عين كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم خير خصال الرجل السؤال عن العلم • وقيل اذا جلست الي عالم فسل تفقها لا تعنتا • وقال رؤبة ابن العجاج أتيت النسابة البكرى فقال من أنت قلت أنا ابن العجاج قال قصرت وعرفت لعلك كقوم ان سكت لم يسألوني وان تكلمت لم يعوا عني قلت أرجو أن لا أكون كذلك قال ما أعداء المروءة قلت تخبرني قال بنو عم السوء إن رأوا حسنا ستروه وان رأوا سيئا أذاعوه ثم قال ان للعلم آفة ونكدا وهجنة فآفته نسيانه ونكده الكذب فيه وهجنته نشره عند غير أهله • وانشد ابن الاعرابى

ما أقرب الاشياء حين يسوقها قدروا بعدها اذا لم تقدر
فسل الفقيه تكن فقيها مثله من يسع فى علم بذل يمهر
فتدبر العلم الذى تفتي به لا خير فى علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزين بعضهم بعضا ليدفع معور عن معور

وللعلم ست مراتب • أولها حسن السؤال • الثانية حسن الانصات والاستماع • الثالثة حسن الفهم • الرابعة الحفظ • الخامسة التعليم • السادسة وهي ثمرته وهي العمل به ومراعات حدوده فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله اما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم اليه منه كمن يسأل عن فضوله التى لا يضر جهله بها ويدع ما لا غني له عن معرفته وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين ومن الناس من يحرمه لسوء انصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب اليه من الانصات وهذه آفة كامنة فى أكثر النفوس الطالبة للعلم وهي تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم • ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال من كان حسن الفهم ردىء الاستماع لم يقم خيره بشره • وذكر عبد الله بن احمد فى كتاب العلل له قال كان عروة بن الزبير يحب ممارات ابن عباس فكان يخزن علمه عنه وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له فى السؤال فيعزه بالعلم عزا • وقال ابن جريج لم أستخرج العلم الذى استخرجت من عطاء الا برفقى به • وقال بعض السلف إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على ان تقول وقد قال الله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فتأمل ما تحت هذه الالفاظ من كنوز العلم وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينغلق باب العلم عنه من اهمالها

وعــدم مراعاتها فانه ســبحانه أمر عبده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان لهقلب فان من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليــه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له فاذا كان له قلب كان بمنزلة البصير اذا مرت به المــرئيات فانه يراها ولكن صــاحب القلب لا ينتفع بقلبــه الا بأمرين أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقى اليه فان كان غائباًعنه مسافراً فى الامانى والشهوات والخيالات لا ينتفع به فاذا احضره وأشهده لم ينتفع إلا بان يلقى سمعه ويصغى بكليته الى ما يوعظ به ويرشد اليه * وها هنا ثلاثة أمور • أحــدها سلامة القلب وصحته وقبوله • الثانى احضاره وجمعــه ومنعه من الشرود والتفرق • الثالث القاء السمع وإصغاؤه والاقبال على الذكر فذكر الله تعالى الامور الثلاثة فى هذه الآية • قال ابن عطية القلب هنا عبارة عن العــقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب واع ينتفع به • قال وقال الشبلى قلب حاضر مــع الله لا يغفل عنــه طرفة عين وقوله ﴿ أو القى السمع وهو شهيد ﴾ معناه صرف سمعه الي هــذه الأنباء الواعظة وأثبته فى سمعه فذلك القاء له عليها ومنه قوله ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾ اي اثبتها عليك وقوله وهو شهيد قال بعض المتأولين معناه وهو شاهد مقبل على الامر غير معرض عنــه ولا مفكر فى غير ما يسمع • قال وقال قتادة هي إشارة الى أهــل الكتاب فكأنه قال إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر أو لمن ســمعها من أهل الكتاب فشــهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بنى إسرائيل قال فشهيد على التأويل الاول من المشاهدة وعلى التأويل الثانى من الشــهادة • وقال الزجاج معنى من كان له قلب من صرف قلبــه الى التفهم ألا ترى ان قوله صم بكم عمي أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر * أصم عما ساءه سميع * ومعنى أو القى السمع استمع ولم يشغل قلبه بغيرما يستمع والعرب تقول الق الى سمعك أى استمع منى وهو شهيد أى قلبه فيما يسمع وجاء فى التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي صلى الله عليه وسلم فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أشاهد أن صفة النبي صلي الله عليه وسلم فى كتابه وهذا هو الذى حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أي مخبر • وقال صاحب الكشاف لمن كان له قلب واع لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له والقاء السمع الاصغاء وهو شهيد أي حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكانه غائب أوهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله وهو بعض الشهداء في قوله لتكونوا شهداء على الناس وعن

قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده فلم يختلف في أن المراد بالقلب القلب الواعى وان المراد بالقاء السمع اصغاؤه واقباله على المذكر وتفريغ سمعه له • واختلف فى الشهيد على أربعة أقوال احدها أنه من المشاهدة وهى الحضور وهذا اصح الاقوال ولا يليق بالآية غيره • الثاني انه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال • احدها أنه شاهد على صحة ما معه من الايقان • الثاني أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة الثالث أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علمه من الكتب المنزلة والصواب القول الاول فان قوله ﴿وهو شهيد﴾ جملة حالية والواو فيها واو الحال أى ألقي السمع فى هذه الحال وهذا يقتضى أن يكون حال القائه السمع شهيدا وهذا هو من المشاهدة والحضور ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لما كان لتقييدها بالقاء السمع معنى إذ يصير الكلام ان فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهدا بما معه في التوراة أو حال كونه شاهدا يوم القيامة ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية • وأيضاً فالآية عامة في كل من له قلب وألقى السمع فكيف يدعي تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي صلى الله عليه وسلم • وأيضاً فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز ان يختص بأهل الكتاب ولا سيا مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي والقاء السمع فكيف يقال هي فى أهل الكتاب * فان قيل المختص بهم قوله ﴿وهو شهيد﴾ فهذا أفسد وأفسد لان قوله وهو شهيد يرجع الضمير فيه الى جملة من تقدم وهو من له قلب أو القى السمع فكيف يدعي عوده الى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً ولا دلالة فى اللفظ عليه • وأيضاً فان المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه وهذا بخلاف ما اذا جعل من الشهود وهو الحضور فانه لا يقتضى مفعولا مشهودا به ليتم الكلام بذكره وحده • وأيضاً فان الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين أحدهما من كان له قلب والثانى من القى السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه وهذا والله أعلم سر الاتيان بأو دون الواو لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان • أحدهما ذو القلب الواعي الزكي الذى يكتفى بهدايته بادنى تنبيه ولا يحتاج الى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج الا الى وصول الهدى اليه فقط لكمال استعداده وصحة فطرته فاذا جاءه الهدى سارع قلبه الى قبوله كأنه كان مكتوبا فيه فهو قد أدركه مجملا ثم جاءه

الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الاكبر رضي الله عنه • والنوع الثاني من ليس له هذا الاستعداد والقبول فاذا ورد عليه الهدى أصغى اليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلا له وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الامثال واقامة الحجج وذكر المعارضات والاجوبة عنها والاولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين • وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتى هي أحسن فان استجابوا والا فالمجالدة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الاقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى (ادع الي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن) فهؤلاء المدعوون بالكلام. وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله * وأما من فسر الآية بان المراد بمن كان له قلب هو المستغني بفطرته عن علم المنطق وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الاوسط بسرعة فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعات أوضاع المنطق والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج الي تعلم المنطق ليوجب له مراعاته واصغاؤه اليه أن لا يزيغ فى فكره وفسر قوله أدع الي سبيل ربك بالحكمة أنها القياس البرهانى والموعظة الحسنة القياس الخطابى وجادلهم بالتى هي أحسن القياس الجدلي فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالي وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والايمان وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الاسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة والقرآن بريء من ذلك كله منزه عن هذه الاباطيل والهذيانات وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التى نحن فيها والآية الاخرى في موضع آخر من وجوه متعددة وبينا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا وأنه يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق • والمقصود بيان حرمان العلم من هذه لوجوه الستة • أحدها ترك السؤال • الثانى سوء الانصات وعدم القاء السمع • الثالث سوء لفهم • الرابع عدم الحفظ • الخامس عدم نشره وتعليمه فان من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله وهذا أمر يشهد به الحس والوجود • السادس عدم العمل به فان العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فاذا أهمل العمل به نسيه • قال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به

• وقال بعض السلف أيضاً العلم يهتف بالعمل فان أجابه حل والا ارتحل فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته وترك العمل به إضاعة له فما استدر العلم ولا استجاب بمثل العمل • قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ وأما قوله تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ فليس من هذا الباب بل هما جملتان مستقلتان طلبية وهي الامر بالتقوى وخبرية وهي قوله تعالى ويعلمكم الله أي والله يعلمكم ما تتقون وليست جوابا للامر بالتقوى ولو اريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول واتقوا الله يعلمكم أو إن تتقوه يعلمكم كما قال ﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ فتدبره • ﴿ الوجه الرابع والاربعون بعد المائة ﴾ إن الله سبحانه نفى التسوية بين العالم وغيره كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب وبين الاعمى والبصير وبين النور والظلمة وبين الظل والحرور وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار وبين الابكم العاجز الذي لا يقدر على شيء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وبين المؤمنين والكفار وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الارض وبين المتقين والفجار فهذه عشرة مواضع فى القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الاصناف وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة والظل من الحرور والطيب من الخبيث ومنزلة كل واحد من هذه الاصناف مع مقابله وهذا كاف فى شرف العلم وأهله بل إذا تأملت هذه الاصناف كلها ووجدت نفي التسوية بينها راجعا الى العلم وموجبه فبه وقع التفضيل وانتفت المساواة • ﴿ الوجه الخامس والاربعون بعد المائة ﴾ أن سليمان لما توعد الهدهد بان يعذبه عذابا شديداً أو يذبحه انما نجا منه بالعلم واقدم عليه فى خطابه له بقوله أحطت بما لم تحط به خبرا وهذا الخطاب انما جرأه عليه العلم والا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم • ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها فقال أحد تلامذته أنا أعلم هذه المسألة فغضب الاستاذ وهم به فقال له أيها الاستاذ لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت ولست أنا أجهل من الهدهد وقد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به فلم يعتب عليه ولم يعنفه • ﴿ الوجه السادس والاربعون بعد المائة ﴾ ان من نال شيئا من شرف الدنيا والآخرة فانما ناله بالعلم وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الاسماء كلها ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بما تلقى الكلمات التى تلقاها من ربه وما حصل ليوسف من التمكين فى الارض

والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من اخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الامر الى ما آل اليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل اليها بالعلم كما أشار اليها سبحانه فى قوله (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) جاء فى تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته بالعلم وقال فى إبراهيم صلى الله عليه وسلم (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فهذه رفعة بعلم الحجة والأول رفعة بعلم السياسة وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه فى السؤال حتى قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا • وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل الي ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته * ولذلك قال (يأيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين) وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الاعداء وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل مارفعه الله به اليه وفضله وكرمه وكذلك ماحصل لسيد ولد آدم من العلم الذى ذكره الله به نعمة عليه فقال وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) • (الوجه السابع والاربعون بعد المائة • إن الله سبحانه أثني على ابراهيم خليله بقوله تعالى إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه) فهذه اربع انواع من الثناء افتتحها بانه امة والامة هو القدوة الذي يؤتم به • قال ابن مسعود والامة المعلم للخير وهى فُعْلة من الائتمام كقدوة وهو الذي يقتدى به والفرق بين الامة والامام من وجهين احدهما أن الامام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أولا ومنه سمي الطريق اماما كقوله تعالى (وإن كان اصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين) أي بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق امة • الثاني أن الامة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره ولفظ الامة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها وكذلك ضم أوله فان الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ومنه

الحديث ان زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده فالضم والاجتماع لازم لمعنى الامة ومنه سميت الامة التي هي آحاد الامم لانهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد • الثاني قوله قانتا لله قال ابن مسعود القانت المطيع والقنوت يفسر باشياء كلها ترجع الى دوام الطاعة • الثالث قوله حنيفا والحنيف المقبل على الله ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة • الرابع قوله شاكرا لانعمه والشكر للنعم • بني على ثلاثة اركان الاقرار بالنعمة واضافتها الى المنعم بها وصرفها فى مرضاته والعمل فيها بما يجب فلا يكون العبد شاكرا الا بهذه الاشياء الثلاثة والمقصود أنه مدح خليله باربع صفات كلها ترجع الى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد الكمال كله الى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق اليه • (الوجه الثامن والاربعون بعد المائة) قوله سبحانه عن المسيح انه قال (اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت) قال سفيان بن عيينة جعلني مباركا اينما كنت قال معلما للخير وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه فان البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه وهذا فى الحقيقة ليس الا فى العلم الموروث عن الانبياء وتعليمه ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك انزلناه) وقال (كتاب انزلناه اليك مبارك) ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح (وجعلني مباركا أينما كنت) فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة الي الله • (الوجه التاسع والاربعون بعد المائة) مافي الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه مسلم فى الصحيح وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته فان ثوابه يصل الى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به فكأنه حي لم ينقطع عمله مع ماله من حياة الذكر والثناء فجريان أجره عليه اذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية وخص النبي صلى الله عليه وسلم هذه الاشياء الثلاثة بوصول الثواب الى الميت لأنه سبب لحصولها والعبد اذا باشر السبب الذى يتعلق به الامر والنهي يترتب عليه مسببه وان كان خارجا عن سعيه وكسبه فلما كان هو السبب فى حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه واجره لتسببه فيه فالعبد انما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه وقد ذكر تعالي هذين الاصلين فى كتابه فى سورة براءة فقال (ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح

إن الله لا يضيع اجر المحسنين فهذه الامور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم وانما المقدور لهم أسبابها التي باشروها ثم قال ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون فالنفقة وقطع الوادى افعال مقدورة لهم وقال فى القسم الاول كتب لهم به عمل صالح الا أن المتولد حاصل عن شيئين افعالهم وغيرها فليست افعالهم سبباً مستقلا فى حصول المتولد بل هي جزء من أجزاء السبب فيكتب لهم من ذلك ما كان مقابلا لافعالهم • وأيضاً فان الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح وأما القسم الآخر وهو الافعال المقدورة نفسها كالانفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه اذ هو مقدور لهم حاصل بارادتهم وقدرتهم فعاد الثواب الي الافعال المقدورة والمتولد عنها وبالله التوفيق (الوجه الخمسون بعد المائة) ما ذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال اذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالي العلماء عن الحساب فيقول ادخلوا الجنة على ما كان فيكم اني لم أجعل علمي فيكم الالخير أردته بكم قال ابن عبد البر وزاد غيره فى هذا الخبر ان الله يحبس العلماء يوم القيامة فى زمرة واحدة حتى يقضي بين الناس ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يدعو العلماء فيقول يامعشر العلماء انى لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريد ان أعذبكم قدعلمت انكم تخلطون من المعاصى مايخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم وانما كنت أعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ادخلوا الجنة بغير حساب ثم قال لامعطي لما منع ولا مانع لما أعطى قال وروي نحو هذا المعنى باسناد متصل مرفوع وقد روى حرب الكرماني في مسائله نحوه مرفوعا وقال ابراهيم بلغني انه اذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل فى كفة وسيئاته فى الكفة الاخرى فتشيل حسناته فاذا يئس فظن انها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع مع حسناته فتشيل سيئاته قال فيقال له أتعرف هذا من عملك فيقول لا فيقال هذا ماعلمت الناس من الخير فعمل به من بعدك (فان قيل) فقواعد الشرع تقتضى ان يسامح الجاهل بما لايسامح به العالم وانه يغفر له مالا يغفر للعالم فان حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل وقد دلت الشريعة وحكم الله على ان من حبي بالانعام وخص بالفضل والاكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فارتعها فى مراتع الهلكات وتجرأ على انتهاك الحرمات ـــ بالتبعات والسيئات انه يقابل من الانتقام والعتب بما لايقابل به من ليس فى مرتبته وعلى

هذا جاء قوله تعالى ﴿ يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد فى الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحرّ ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبته أبو نعيم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه • وقال بعض السلف يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل ان يغفر للعالم ذنب وقال بعضهم أيضا ان الله يعافى الجهال مالايعافى العلماء ؛ فالجواب ان هذا الذى ذكرتموه) حق لاريب فيه ولكن من قواعد الشرع والحكمة ايضا ان من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الاسلام تأثير ظاهر فانه يحتمل له مالايحتمل لغيره ويعفى عنه مالايعفى عن غيره فان المعصية خبث والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فانه لا يحمل أدنى خبث ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم وهذا هو المانع له صلى الله عليه وسلم من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم فأخبر صلى الله عليه وسلم انه شهد بدراً فدل على ان مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة فى جنب ماله من الحسنات ولما حض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة فأخرج عثمان رضى الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال ماضر عثمان ماعمل بعدها وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد على ظهره الى الصخرة أوجب طلحة وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل القى الالواح التى فيها كلام الله الذي كتبه له القاها على الارض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقأها وعاتب ربه ليلة الاسرى في النبي صلى الله عليه وسلم وقال شاب بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي وأخذ بلحية هارون وجره اليه وهو نبي الله وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه وربه تعالى يكرمه ويحبه فان الأمر الذى قام به موسى والعدوّ الذى برزله والصبر الذى صبره والاذى الذى أوذيه فى الله أمر لاتؤثر فيه امثال هذه الامور ولاتغير فى وجهه ولا تخفض منزلته وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر فى فطرهم ان من له الوف من الحسنات فانه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها حتى انه ليختلج داعى عقوبته على اساءته وداعي شكره على احسانه فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة كما قيل

واذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر

فان يكن الفعل الذى ساء واحداً فافعاله اللاتى سررن كثير

(والله سبحانه) يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلب كان التأثير له فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعى طبعهم احياناً من العفو والمسامحة مالا يفعله مع غيرهم *وأيضا فان العالم اذا زل فانه يحسن اسراع الفيئة وتدارك الفارط ومداواة الجرح فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه فان زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل* وايضاً فان معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه وازرائه على نفسه بارتكابه وايمانه بأن الله حرمه وان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به الى غير ذلك من الامور المحبوبة للرب مايغمر الذنب ويضعف اقتضاءه ويزيل أثره بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره فانه ليس معه الا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية فلايستوى هذا وهذا • وهذا فصل الخطاب فى هذا الموضع وبه يتبين ان الأمرين حق وانه لا منافاة بينهما وان كل واحد من العالم والجاهل انما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها ويزيل أثرها فعاد القبح في الموضعين الى الجهل وما يستلزمه وقاته وضعفه الى العلم وما يستلزمه وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق • (الوجه الحادى والخمسون بعد المائة) ان العالم مشتغل بالعلم والتعليم لا يزال فى عبادة فنفس تعلمه وتعليمه عبادة قال ابن مسعود لا يزال الفقيه يصلى قالوا وكيف يصلى قال ذكر الله على قلبه ولسانه ذكره ابن عبد البر وفى حديث معاذ مرفوعا وموقوفا تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح وقد تقدم والصواب انه موقوف وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعا لان تغدو فتتعلم بابا من أبواب العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة وهذا لا يثبت رفعه وقال ابن وهب كنت عند مالك بن أنس فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وانظر فى العلم بين يديه فجمعت كتبي وقمت لاركع فقال لى مالك ماهذا فقلت أقوم الى الصلاة فقال ان هذا لعجب ماالذى قمت اليه أفضل من الذى كنت فيه اذا صحت فيه النية وقال الربيع سمعت الشافعى يقول طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة وقال سفيان الثورى مامن عمل أفضل من طلب العلم اذا صحت فيه النية وقال رجل للمعافى بن عمران أيما أحب اليك أقوم الليل أصلي كله أو أكتب الحديث فقال حديث تكتبه أحب الى من قيامك من أول الليل الى آخره وقال أيضاً كتابة حديث واحد أحب الى من قيام ليلة وقال ابن عباس تذاكر العلم بعض ليلة أحب الى من إحيائها

وفي مسائل اسحاق بن منصور قلت لاحمد بن حنبل قوله تذاكر العلم بعض ليلة أحب الي من أحيائها أى علم أراد قال هو العلم الذى ينتفع به الناس فى أمر دينهم قلت في الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا قال نعم قال اسحاق وقال لي اسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد وقال أبو هريرة لأن أجلس ساعة فأتفقه فى دينى أحب الي من أحياء ليلة الى الصباح وذكر ابن عبد البر من حديث أبي هريرة يرفعه لكل شئ عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين الحديث وقد تقدم وقال محمد بن علي الباقر عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد وقال أيضاً رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الاعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الاخلاص والتوكل والمحبة والانابة والخشية والرضا ونحوها من الاعمال الظاهرة فان قيل فالعلم انما هو وسيلة الى العمل ومراد له والعمل هو الغاية ومعلوم ان الغاية أشرف من الوسيلة فكيف تفضل الوسائل على غايتها قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين منه ما يكون وسيلة ومنه مايكون غاية فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها فان العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الاطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال الله تعالى ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً ﴾ فقد أخبر سبحانه انه خلق السموات والارض ونزل الامر بينهن ليعلم عباده انه بكل شئ عليم وعلى كل شئ قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال تعالى ﴿ فاعلم انه لا اله الا الله ﴾ فالعلم بوحدانيته تعالى وانه لا اله الا هو مطلوب لذاته وان كان لا يكتفى به وحده بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما أمران مطلوبان لانفسهما أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها فكما ان عبدته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته وأيضاً فان العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره فهو متضمن للغاية والوسيلة (وقولكم) ان العمل غاية أما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط فان أريد الاول فهو حق وهو يدل على ان العلم غاية مطلوبة لانه من أعمال القلب كما تقدم وأن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح فان أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها بل فى الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فان الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلا وللجوارح تبعاً وكذلك الاعمال المقصود

بها أولا صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة وان كان كثير منها مراداً لاجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاه وطهارته واستقامته فعلم أن الاعمال منها غاية ومنها وسيلة وان العلم كذلك وأيضاً فالعلم الذي هو وسيلة الى العمل فقط اذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه فالعمل أشرف منه • وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال ان العمل المجرد أشرف منه فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه فى خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التى تفسد الاعمال وتمنع وصولها من القلب الى الله والمسافات التى بين الاعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى وبما تقطع تلك المسافات الى غير ذلك من علم الايمان وما يقويه وما يضعفه فكيف يقال ان مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم بل من قام بالأمرين فهو أكمل واذا كان فى أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة فاذا كان فى العبد فضلة عن الواجب كان صرفها الى العلم الموروث عن الانبياء أفضل من صرفها الى مجرد العبادة فهذا فصل الخطاب فى هذه المسئلة والله أعلم (الوجه الثانى والخمسون بعد المائة) مارواه الامام أحمد والترمذي من حديث أبى كبشة الانمارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الدنيا لاربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فى ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخبط فى ماله ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذ بأسوء المنازل عند الله ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء حديث صحيح صححه الترمذى والحاكم وغيرهما * فقسم النبي صلى الله عليه وسلم أهل الدنيا أربعة أقسام •• خيرهم من أوتى علماً ومالا فهو محسن الى الناس والى نفسه بعلمه وماله •• ويليه فى المرتبة من أوتي علماً ولم يؤت مالا وان كان أجرهما سواء فذلك انما كان بالنية والا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الانفاق والصدقة والعالم الذى لا مال له انما ساواه فى الاجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد •• الثالث من أوتى مالا ولم يؤت علماً فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لان ماله طريق الى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً له فانه أعطى مايتزود به الى الجنة فجعله زاداله الى النار •• الرابع من لم يؤت مالا ولا علماً ومن نيته انه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله فهذا يلى الغني الجاهل فى المرتبه

ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول الذى لم يقدر على غيره فقسم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما وقسم الاشقياء قسمين وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما فعادت السعادة بجملتها الى العلم وموجبه والشقاوة بجملتها الى الجهل وثمرته • (الوجه الثالث والخمسون بعد المائة) ماثبت عن بعض السلف انه قال تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته فقالت كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر وقال الحسن تفكر ساعة خير من قيام ليلة وقال الفضل التفكر مرآت تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم انك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان كثيراً مايتمثل

اذا المرء كانت له فكرة * ففي كل شيء له عبره

وقال الحسن فى قوله تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق﴾ قال أمنعهم التفكر فيها وقال بعض العارفين لو طالعت قلوب المتقين بفكرها الى ماقدر فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فيها عين وقال الحسن طول الوحدة أتم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب ماطالت فكرة أحد قط الاعلم وما علم امرؤ قط الاعمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو فكر الناس فى عظمة الله ماعصوه وقال ابن عباس ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب وقال أبو سليمان الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لاهل الولاية والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلوب وقال ابن عباس التفكر فى الخير يدعو الى العمل به وقال الحسن ان أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة ومن كلام الشافعي استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة وهذا لأن الفكر عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح • وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الايمان على مالا يوقعه عليه العمل المجرد فان التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الامور وظهورها له وتميز مراتبها فى الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة اليها وما يقاوم تلك الاسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ماينبغى السعي فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه والفرق بين الوهم والخيال المانع لاكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد امكانها وبين السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الاول فما قطع

العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذى هو مركبها بل بحرها الذي لاتنفك سابحة فيه وانما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة وكذلك اذا فكر فى عواقب الامور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها وعلم مراتبها فاذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به الى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الالم والحزن الذى لايقاوم تلك اللذة والفرحة ومن فكر فى ذلك فانه لايكاد يقدم عليه وكذلك اذا وردعلى قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره الي مايترتب عليها من اللذات والخيرات والافراح التى تغمر تلك الآلام التى فى مباديها بالنسبة الى كمال عواقبها وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة وكذلك اذا فكر في منتهى مايستعبده من المال والجاه والصور ونظر الي غاية ذلك بعين فكره استحي من عقله ونفسه ان يكون عبداً لذلك كما قيل

لوفكر العاشق في منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

وكذلك اذا فكرفي آخر الاطعمة المفتخرة التى تفانت عليها نفوس اشباه الانعام وما يصير أمرها اليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها الى الاعتناء بها وجعلها معبود قلبه الذي اليه يتوجه وله يرضى ويغضب ويسعى ويكدح ويوالي ويعادى كما جاء في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وإن قزحه وملحه فانه يعلم الي مايصير أوكما قال صلى الله عليه وسلم فاذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره وكانت نفسه حرّة أبية ربأ بها أن يجعلها عبداً لما آخره أنتن سيء وأخبثه وأفحشه

(فصل) اذا عرف هذا فالفكر هو احضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثال ذلك اذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين أثمر له ذلك علما ثالثاً وهو ان الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المقطعة المنغصة ثم له في معرفة الآخرة حالتان أحدهما أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير ان يباشر قلبه برد اليقين به ولم يفض قلبه الى مكافحة حقيقة الآخرة وهذا حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان أحدهما داعي العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده لأنه مشاهد له محسوس وداعي الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لانه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين

به ولا كاشفه حقيقته العلمية فاذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بانه قد ترك معلوما للمظنون أو متحققاً لموهوم فلسان الحال ينادي عليه لا أدع ذرة منقودة لدرة موعودة وهذه الآفة هي التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وان يسعي لها سعيها وهي من ضعف العلم بها وتيقنها والا فمع الجزم التام الذى لايخالج القلب فيه شك لايقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ولهذا لوقدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة اليه ثم قيل له انه مسموم فانه لايقدم عليه لعلمه بأن سوءما يجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرة على لذة أكله فما بال الايمان بالآخرة لايكون في قلبه بهذه المنزلة ماذاك الا لضعف شجرة العلم والايمان بها فى القلب وعدم استقرارها فيه وكذلك اذا كان سائراً فى طريق فقيل له أن بها قطاعا ولصوصاً يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه فانه لايسلكها الا على أحد وجهين اما أن لا يصدق المخبر واما ان يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم والا فمع تصديقه للخبر تصديقا لايتمارى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فانه لايسلكها ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من ايثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فعلم أن ايثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة لايكون قط مع كمال تصديقه وايمانه أبداً (الحالة الثانية) ان يتيقن ويجزم جزما لاشك فيه بأن له دارا غير هذه الدار ومعاداله خلق وأن هذه الدار طريق الي ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين اليه ويعلم مع ذلك انها باقية ونعيمها وعذابها لايزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل اليه الا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة الي الآخرة فيثمر له هذا العلم ايثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وان يسعي لها سعيها وهذا يسمي تفكرا وتذكرا ونظرا وتأملا واعتبارا وتدبرا واستبصارا وهذه معان متقاربة تجتمع فى شيء وتتفرق في آخر ويسمي تفكرا لانه استعمال الفكرة في ذلك واحضاره عنده ويسمي تذكراً لانه احضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعالي (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) ويسمي نظرا لانه التفات بالقلب الى المنظور فيه ويسمي تأملا لانه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمي اعتبارا وهو افتعال من العبور لانه يعبر منه الى غيره فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه الى معرفة ثالثة وهى المقصود من الاعتبار ولهذا يسمي عبرة وهي على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة ايذانا بان هذا العلم والمعرفة قد صار حالا لصاحبه يعبر منه الي المقصود به وقال الله تعالي ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى وقال ان فى ذلك لعبرة لأولي الابصار

ويسمى تدبراً) لانه نظر في ادبار الامور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول وقال تعالى أفلم يدبروا القول أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً وتدبر الكلام ان ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين (وسمي استبصارا) وهو استفعال من التبصر وهو تبين الامر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ماعلمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ماليس حاصلا عند القلب فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه ولهذا قال الحسن مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكر والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقيحه كما قال بعض السلف ملاقاة الرجال تلقيح لالبابها فالمذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر فانه لابد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فان كل من علم شيئاً من المحبوب أوالمكروه لابد ان يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه وتلك الحال توجب له ارادة وتلك الارادة توجب وقوع العمل فهاهنا خمسة أمور الفكر وثمرته العلم وثمرتهما الحالة التي تحدث للقلب وثمرة ذلك الارادة وثمرتها العمل فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه وانه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة الى حياة اليقظة ومن المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل الي سعة العلم ورحبه ومن مرض الشهوة والاخلاد الى هذه الدار الى شفاء الانابة الى الله والتجافي عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والبكم الى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن امراض الشبهات الى برد اليقين وثلج الصدور (وبالجملة) فاصل كل طاعة انما هي الفكر وكذلك أصل كل معصية انما يحدث من جانب الفكرة فان الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الافكار الردية فيتولد منه الارادات والعزوم فيتولد منها العمل فاذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الافكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هيء له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الاليم لم يجد لبذره موضعا وهذا كما قيل

أتاني هواها قبل ان أعرف الهوى ... فصادف قلبا فارغاً فتمكنا

(فان قيل) فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي ينبغي أن يوقع عليه ويجري فيه فانه لايتم المقصود منه الا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه والا ففكر بغير متفكر فيه محال (قيل مجرى الفكر) ومتعلقه أربعة أمور (أحدها) غاية محبوبة مراد الحصول (الثاني) طريق موصلة الى تلك الغاية (الثالث) مضرة مطلوبة الاعدام مكروهة الحصول (الرابع) الطريق المفضي اليها الموقع عليها فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الامور الاربعة وأي فكر تخطاها فهو من الافكار الردية والخيالات والاماني الباطلة كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر وهو يأخذ ويعطي وينعم ويحرم وكما يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرف في البلاد والرعية ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية التي من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل فالافكار الردية هي قوت الانفس الخسيسة التي هي في غاية الدناءة فانها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ثم لاتزال هذه الافكار تقوى بها وتتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ووساوس وأمراضا بطيئة الزوال واذا كان الفكر النافع لايخرج عن الاقسام الاربعة التي ذكرناها فله أيضا محلان ومنزلان (أحدهما) هذه الدار والآخر دار القرار فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الاقسام الاربعة في هذه الدار فأثمرت لهم افكارهم فيها ما أثمرت ولكن اذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابح من المغبون وخسر هنالك المبطلون وأبناء الآخرة الذى خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على تلك الاقسام الاربعة فيها (ونحن نفصل ذلك) بعون الله وفضله فنقول كل طالب لشيء فهو محب له مؤثر لقربه ساع في طريق تحصيله متوصل اليه بجهده وهذا يوجب له تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التي يحب لاجلها وتمتعها بما يناله به من الخير والفرح والسرور ففكره في حال محبوبه دائر بين الجمال والاجمال والحسن والاحسان فكلما ازداد محبة ازداد هذا الفكر وقوي وتضاعف حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله في حضرة محبوبه فان كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة الا له ولا يحب غيره الا تبعا لمحبته فقد سعد محبه بوضع الحب موضعه وتهيأت نفسه لكمالها الذي خلقت له والذي لا كمال لها بدونه بوجه وان كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية التي تفنى وتبقى حسرات القلوب بها على حالها فقد وضع المحبة في غير موضعها وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها (واذ عرف هذا عرف) أن تعلق المحبة بغير الاله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه

فافكاره المتعلقة بها كلها باطلة وهي مضرة عليه في حياته وبعد موته والمحب الذى قد ملك المحبوب أفكار قلبه لايخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين • أحداهما فكرته في جماله وأوصافه والثانية فكرته في أفعاله واحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته وان تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضاً عن حالتين • اما ان يفكر في أوصافه المسخوطة التي يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويسقطه من عينه فهو دائماً يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها • والثانية ان يفكر في الصفات والاخلاق والافعال التي تقربه منه وتحببه اليه حتي يتصف بها فالفكرتان الاولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوبه له واقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وايثاره على غيره فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الافكار الاربعة • فالفكرة الاولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الاله المعبود سبحانه وأفعاله • والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة اليه وقواطعها وآفاتها وما يمنع من السير فيها اليه فتفكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور أحدها ان هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا الثاني هل العبد متصف به أم لا والثالث اذا كان متصفاً به فما طريق دفعه والعافية منه وان لم يكن متصفاً به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور أحدها ان هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا الثاني هل العبد متصف بها أم لا • الثالث انه اذا كان متصفاً بها فما طريق حفظها ودوامها وان لم يكن متصفاً بها فما طريق اكتسابها والتخلق بها ثم فكرته في الافعال على هذين الوجهين أيضاً ومجارى هذه الافكار ومواقعها كثيرة جداً لا تكاد تنضبط (وانما يحصرها ستة أجناس • الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصي الظاهرة والباطنة والصفات والاخلاق الحميدة • والاخلاق والصفات الذميمة (فهذه مجاري) الفكرة في صفات نفسه وأفعالها وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الايمان والكفر والتوحيد والشرك والاقرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والاكرام (ومجارى هذه الفكرة) تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه الي عباده على السنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها على عباده وأشهدهم اياها ليستدلوا بها على انه الههم الحق المبين الذى لا تنبغي العبادة الا له ويستدلوا بها على انه على كل شيء قدير وانه بكل شيء عليم وانه شديد

العقاب وانه غفور رحيم وانه العزيز الحكيم وانه الفعال لما يريد وانه الذى وسع كل شيء رحمة وعلماً وان أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لايخرج شيء منها عن ذلك وهذه الثمرة لاسبيل الي تحصيلها الا بتدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله ﴿ والي هذين الاصلين ﴾ ندب عباده في القرآن فقال فى الاصل الاول ﴿ أفلا يتدبرون القرآن • أفلم يدبروا القول • كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته • انا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون • كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ﴾ وقال في الاصل الثانى ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والارض ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض • ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون • واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيابه الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون • أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم • قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل • ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون الى قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ﴾ • ونوّع سبحانه الآيات في هذه السور فجعل خلق السموات والارض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم فى العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته وجعل خلق الأزواج التى تسكن اليها الرجال والقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون فان سكون الرجل الي امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة فمتي نظر بهذه العين الى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على انه الاله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته والاهيته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف فى معاشهم فهذه الآية انما ينتفع بها من سمع ماجاءت به الرسل وأصغى اليه واستدل بهذه الآية عليه وجعل إراءتهم البرق وانزال الماء من السماء وإحياء الارض به آيات لقوم يعقلون فان هذه أمور مرئية بالابصار مشاهدة بالحس فاذا نظر فيها ببصر

قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وامكان ماأخبر به من احياء الخلائق بعد موتهم كما أحيي هذه الارض بعدموتها وهذه أمور لاتدرك الا ببصر القلب وهو العقل فان الحس دل على الآية والعقل دل على ماجعلت آية له فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ فتبارك الذى جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما فى الصدور • وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فانه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذى يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والانابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الاحوال التى بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن جميع الصفات والافعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس مافي قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ماسواها فاذا قرأه بتفكر حتي مر بآية وهو محتاج اليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وادعى الي حصول الايمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية الى الصباح وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قام بآية يرددها حتي الصباح وهي قوله ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود لاتهذوا القرآن هذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لايكن هم أحدكم آخر السورة وروي أبو أيوب عن أبي جمرة قال قلت لابن عباس انى سريع القراءة انى أقرأ القرآن في ثلاث قال لان أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب الي من ان أقرأ القرآن كما تقرأ ﴿ والتفكر في القرآن نوعان تفكر ﴾ فيه ليقع على مراد الرب تعالي منه وتفكر فى معانى مادعا عباده الي التفكر فيه فالاول تفكر فى الدليل القرآنى والثانى تفكر في الدليل العيانى الاول تفكر فى آياته المسموعة والثانى تفكر فى آياته المشهودة ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لالمجرد تلاوته مع الاعراض عنه قال الحسن البصري أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا

﴿ فصل ﴾ واذا تأملت مادعى الله سبحانه فى كتابه عباده الى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالي وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته واحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا

تعرّف الي عباده وندبهم الي التفكر في آياته • ونذكر لذلك أمثلة مماذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها (فمن ذلك خلق الانسان وقد ندب سبحانه) الى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالي (فلينظر الانسان مم خلق) وقوله تعالي (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وقال تعالي (ياأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام مانشاء الي أجل مسمي ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الي أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) وقال تعالي (أيحسب الانسان أن يترك سدي ألم يك نطفة من مني يمني ثم كان علقة فخلق فسوي فجعل منه الزوجين الذكر والانثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) وقال تعالي (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) وقال (أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين) وقال (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا كثير في القرآن يدعو العبد الي [illegible] والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره اذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء الي الانسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر في نفسه لزجره مايعلم من عجائب خلقها عن كفره قال الله تعالي (قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره) فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا [illegible] النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب واليه [illegible] الآن الي [illegible] بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف [illegible] وانظر كيف استخرجها رب [illegible] من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد [illegible] مختلف مجاريها الي ان ساقها الي مستقرها ومجمعها وكيف جمع [illegible] بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة الي الاجتماع [illegible] وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين [illegible] من أعماق العروق والاعضاء وجمعهما في

موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لايناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل اليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب الى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها (وانظر) كيف قسم تلك الاجزاء المتشابهة المتساوية الي الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوي رباط وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحماً ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤسهما بالأصابع ثم قسم الاصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة في تركيب العظام قواماً للبدن وعماداً له وكيف قدرها ربها وخلقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحني والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الانثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالاضراس فانها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الاسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجاً الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظماً واحداً بل عظاماً متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار وربطت أحدها من أحد طرفي العظم والصق بأحد طرفي العظم الطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفى الآخر نقراً غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد لتدخل فيها وينطبق عليها فإن أراد العبد أن يحرك جزءاً من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق رأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل انه خمسة وخمسون عظماً مختلفة الأشكال المدير والمثلث وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عالياً لو"[illegible] على ما يكون [illegible] عالياً على البدن [illegible] فيه الحواس الخمس وآلات الادراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع

طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجيباً وهو انسان العين بقدر العدسة يبصر به مابين المشرق والمغرب والارض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والاجفان والاهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين (فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثم جملهما بالاجفان غطاء لهما وستراً وحفظاً وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار ويكنانهما من البارد المؤذى والحار المؤذي ثم غرس فى أطراف تلك الاجفان الاهداب جمالا وزينة ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذى يخرق ما بين السماء والارض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب فى هذا المقدار الصغير بحيث ينطبع فيه صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه الى الصماخ وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر الى إخراجه وجعل فيها غضوناً وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه الى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل الى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لامساكه وفيه أيضاً حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الاذن مرًّا فى غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا الى باطن الاذن بل اذا وصل اليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين مالحاً ليحفظها فانها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظاً وجعل ماء الفم عذباً حلوا ليدرك به طعوم الاشياء على ماهي عليه اذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها الى طبيعته كما ان من عرض لفمه المرارة استمرّ طعم الاشياء التى ليست بمرة كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرًّا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قصبة الانف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله الى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل فى داخله من الاعوجاجات والغضون ماجعل فى الاذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصباً تحدر اليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم

تخرج منــه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لان أسفله اذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولانه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتي يصل الى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فانه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل فى وسطه حاجز لئلا يفسد بما يجري فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمــد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الآخر للتنفس واما أن يجرى فيهما فينقسم فلا ينسد الانف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضاً فانه لما كان عضواً واحداً وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالاذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددها فانه ربما أصيبت احداهما أوعرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الاخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين فى الوجه شيناً ظاهراً فنصب فيــه أنفاً واحداً وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجري مجرى تعدد العينين والاذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجماناً لملك الاعضاء مبيناً مؤدياً عنه كما جعل الاذن رسولا مؤدياً مبلغاً اليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي اليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد (واقتضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصوناً محفوظاً مستوراً غير بارز مكشوف كالاذن والعين والأنف لان تلك الاعضاء لما كانت تؤدى من الخارج اليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤدياً منه الى الخارج جعل له ستراً مصوناً لعدم الفائدة فى ابرازه لانه لا يأخذ من الخارج الى القلب (وأيضاً) فلانه لما كان أشرف الاعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر وأيضاً فانه من ألطف الاعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لا يتصرف الا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التي هن جماله وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما

وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقاً له وجعلهما اتماماً لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطاً ولهذا كان أكثر العمل فيها له اذ هو الواسطة واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحماً صرفاً لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لان تحريك الاخف أحسن ولانه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الاصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان الا نادراً ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الاشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الاصوات كالاشتباه العارض بين الصور ﴿وزين سبحانه﴾ الرأس بالشعر وجعله لباساً له لاحتياجه اليه وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الاشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يحدر من بشرة الرأس الى العينين وقوّسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالاهداب وزين الوجه أيضاً باللحية وجعلها كمالاً ووقاراً ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة ﴿وكذلك خلقه سبحانه﴾ لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه فطوّلهما بحيث يصلان الى ماشاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والابهام باثنتين ووضع الاصابع الاربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الاعمال ولو اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعاً آخر للاصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا اليه سبيلاً فتبارك من لو شاء لسوّاها وجعلها طبقاً واحداً كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وانواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فان بسط أصابعه كانت طبقاً يضع عليه ما يريدوان ضمها وقبضها كانت دبوساً وآلة للضرب وان جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها ويمسك فيها مايتناوله وركب الاظفار على رؤسها زينة لها وعماداً ووقاية وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لاينالها جسم الاصابع وجعلها سلاحاً لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الانسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أقل الاشياء وأحقرها لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكة لاشتدّت حاجته اليه ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر

على موضع الحك الا بعد تعب ومشقة ثم انظر الى الحكمة البالغة فى جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لانها أساس له وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة لانها محمولة (ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقناً حتي صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها فى بعض هي مجمع أضلاعه والتي تمسكها أن تحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والاصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالاصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الانسان يحتاج الي قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج فى جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين (ثم انه سبحانه ربط تلك) الاعضاء والاجزاء بالرباطات فشدبها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها الى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهي مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الاعضاء رباطات هن له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم فى قطرة ماء مهين فويل للمكذبين و بعداً للجاحدين (ومن عجائب خلقه) انه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضها الى بعض خزانة فى مقدمه وخزانة فى وسطه وخزانة فى آخره وأودع تلك الخزائن من أسراره ماأودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) مافيه من الامور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والامعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فاما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر فى الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية وهو معدن

العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الاعضاء الظاهرة والباطنة وقواها انما هي جند من أجناد القلب فان العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات فان رأت شيئا أدته اليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه اذا استقر فيه شيء ظهر فيها فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما ان اللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ولهذا كثيرا مايقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث كقوله ﴿ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا﴾ وقوله ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ وقوله ﴿صم بكم عمي﴾ وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ وقوله في حق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ثم قال ﴿مازاغ البصر وما طغى﴾ ﴿ وكذلك الاذن هي رسوله ﴾ المؤدى اليه ﴿وكذلك﴾ اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الاعضاء خدمه وجنوده وقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب ﴿ وقال أبو هريرة ﴾ القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت جنوده وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائماً لانه أشد الاعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة ﴿ واما الدماغ ﴾ وهو المخ فانه جعل بارداً واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة انما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التى في القلب ليردها عن الافراط الي الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيداً عن القلب بل كان ينبغي ان يحيط به كالرئة أو يكون قريباً منه فى الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الاولى بعد الدماغ من القلب لايمنع ماذكرناه من الحكمة لانه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فانها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فانه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج الى موضع ساكن قار صاف عن الاقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا فى ذلك صالحا له ولذلك تجود هذه الأفعال فى الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية ﴿وهذا بحث متصل بقاعدة

أخرى) وهي ان الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة مبدؤها كلها القلب وهى مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الاعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الاعصاب تخرج من القلب الى ان تأتي الى كل واحد من هذه الاجسام التى فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) اذا ابصرت شيئاً أدته بالآلة التي فيها الى القلب لان هذه الآلة متصلة منها الى القلب والسمع اذا أحس صوتاً أداه الى القلب وكذلك كل حاسة ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا (ان قيل كيف) يجوز ان يكون عضو واحد على ضروب من من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة واجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الاخرى . وأجابوا عن ذلك ؛ بان جميع العروق التى في البدن كلها متصلة بالقلب اما بنفسها واما بواسطة فما من عرق ولاعضو الا وله اتصال بالقلب اتصالا قريباً أو بعيداً قالوا وينبعث منه فى تلك العروق والمجاري الى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه الى العينين ما يكون منه حس البصر والى الاذنين ما يدرك به المسموعات والى اللحم مايكون منه حس اللمس والي الانف ما يكون به حس الشم والى اللسان ما يكون به حس الذوق والي كل ذى قوة مايمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الاعضاء والحواس والقوى ولهذا كان الرأي الصحيح انه أول الاعضاء تكويناً قالوا ولا ريب ان مبدأ القوة العاقلة منه وان كان قد خالف فى ذلك آخرون وقالوا بل العقل في الرأس (فالصواب ان مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته فى الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله (أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد مافيه من العقل واللب ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس انما هو الدماغ وانكروا ان يكون بين القلب والعين والاذن والانف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو ان القلب تنبعث منه قوة الى هذه الحواس وهي قوة معنوية لاتحتاج في وصولها اليه الى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فان وصول القوى الى هذه الحواس والاعضاء لايتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لاعلى مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التي فى خلق الانسان والامر اضعاف اضعاف مايخطر بالبال أو يجرى فيه المقال وانما

فائدة ذكر هذه الشذوة التى هي كلا شيء بالنسبة الى ماوراءها التنبيه واذا نظر العبد الي غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغاراً ثم طاحون يطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا الى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله الى المعدة فهى خزانته وموضع اجتماعه ولها بابان باب أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه ثفله والباب الاعلى أوسع من الاسفل اذ الاعلى مدخل للحاصل والاسفل مصرف للضار منه والاسفل منطبق دائماً ليستقر الطعام فى موضعه فاذا انتهى الهضم فان ذلك الباب ينفتح الى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والاعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل الى المعدة متكيساً فاذا استقر فيها انماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام فى القدر بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالحصا وغيره حتي يتركه مائعاً فاذا أذابته علا صفوه الى فوق ورسى كدره الي أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف مافى ذلك والطفه وأخفه الي الارواح فيبعث الي البصر بصراً والى السمع سمعاً والي الشم شما والي كل حاسة بحسبها فهذا ألطف مايتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه الي الدماغ ما يناسبه فى اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقى الي الاعضاء فى تلك المجاري بحسبها وينبعث منه الى العظام والشعر والاظفار مايغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلا الي المعدة من طرق ومجار وخارجا منها الى الاعضاء من طرق ومجار هذا وارد اليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة ولما كان الغذاء اذا استحال فى المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى ان جعل لكل واحد من هذه الاخلاط مصرفا ينصب اليه ويجتمع فيه ولا ينبعث الي الاعضاء الشريفة الا أكمله فوضع المرارة مصبا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقراً للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف مافي ذلك وهو الدم ثم تبعثه الى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل الى كل واحد من الشعور والاعصاب والعظام والعروق مايكون به قوامه ثم اذا نظرت الى مافيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة في أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجاب كقوة سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والارادة وكذلك القوى المتصرفة فى غذائه كالقوة المنضجة

له وكالقوة الماسكة له والدافعة له الى الاعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الاعضاء حاجتها منه الى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة

(فصل) فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانياً وانه لو اجتمع الانس والجن على ان يخلقوا لها سمعاً أوبصراً أوعقلا أو قدرة أو علماً أو روحا بل عظما واحداً من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذى أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين فمن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلاذرة فيها تنفك عن حكمة بل هى أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع العجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع مافي الارض الى عجائب السموات قال الله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال تعالى لان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون) فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب) وهذا كثير فى القرآن فالارض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة الى السموات كقطرة فى بحر ولهذا قل ان تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها اما إخبارا عن عظمها وسعتها واما إقساما بها واما دعاء الى النظر فيها واما ارشادا للعباد ان يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها واما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيمة واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وانه الله الذي لااله لا هو واما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك مافيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التى تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم فى القرآن بها كقوله (والسماء ذات البروج • والسماء والطارق • والسماء ومابناها • والسماء ذات الرجع • والشمس وضحاها • والنجم اذا هوى • والنجم الثاقب • فلا أقسم بالخنس) وهي الكواكب التى تكون خنسا عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فأقسم بها فى أحوالها الثلاثة ولم يقسم فى كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ فى الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه

لقسم لو تعلمون عظيم) وأظهر القولين انه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فان اسم النجوم عند الاطلاق انما ينصرف اليها وأيضا فانه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن ولافي موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن وأيضاً فان نظير الاقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوي النجم فى قوله (والنجم اذا هوى) وأيضاً فان هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضاً فانه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله الي عباده هذه طريقة القرآن قال الله تعالى (ص والقرآن ذى الذكر • يس والقرآن الحكيم • ق والقرآن المجيد • حم والكتاب المبين) ونظائره (والمقصود انه سبحانه) انما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه فى كتابه على المتفكرين في خلق السموات والارض وذم المعرضين عن ذلك فقال (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) وتأمل خلق هذا السقف الاعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالي (وبنينا فوقكم سبعاً شدادا) وقال تعالى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) فانظر الى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذى رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف الي خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة وان الله لسميع عليم فارجع البصر الي السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ولا تغير فى سيرها بل تجرى فى منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لايزيد ولاينقص الي ان يطويها فاطرها وبديعها وانظر الى كثرة كواكبها واختلاف الوانها ومقاديرها فبعضها يميل الي الحمرة وبعضها الي البياض وبعضها الى اللون الرصاصي (ثم انظر) الي مسير الشمس في فلكها فى مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لاتتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة وكيف قدر لها العزيز العليم سفرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة الي أوجها والثانى سفرها هابطة الى حضيضها تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه

فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع فاذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء واذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ واذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الاربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها (وانظر) الى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي الى إبداره وكماله وتمامه ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود الى حالته الاولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنين وقام حساب العالم مع مافى ذلك من الحكم والآيات والعبر التى لا يحصيها الا الله (وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) الا وللرب تبارك وتعالى فى خلقه حكم كثيرة ثم في مقداره ثم فى شكله ولونه ثم فى موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه واذا أردت معرفة ذلك على سبيل الاجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له وأين نسبة ذلك الى عظم السموات وكواكبها وآياتها ٭ وقد اتفق أرباب الهيئة على ان الشمس بقدر الارض مائة مرة ونيفاً وستين مرة والكواكب التي نراها كثير منها أصغرها بقدر الارض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبى هريرة الذى رواه الترمذي ان بين الارض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك وأنت ترى الكوكب كانه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه الى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الارض مئة مرة أو أكثر وذلك بقدر لحظة واحدة لان الكوكب اذا كان بقدر الارض مائة مرة مثلا ثم سار فى اللحظة من موضع الى موضع فقد قطع بقدر مسافة الارض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل عنه وعن آياته وقال بعضهم اذا تلفظت بقولك لا نعم فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ثم انه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها (الله الذى خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الارض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين)

(فصل والنظر فى هذه الآيات) وأمثالها نوعان نظر اليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا

زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالامر والثاني أن يتجاوز هذا الى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب الى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السموات السبع والارضين السبع بالنسبة اليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والامر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها الا ربها ومليكها فينزل الامر باحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل الى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف لعدوان فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ فى أقطار العوالم لا يشغله سمع شئ منها عن سمع غيره ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا اله الا هو العزيز الحكيم فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته خاشعاً لعظمته عانٍ لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الارواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والالباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب

﴿ فصل ﴾ واذا نظرت الى الارض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتاً للاحياء تضمهم على ظهرها ماداموا أحياء وكفاتاً للاموات تضمهم في بطنها اذا ماتوا فظهرها وطن للاحياء وبطنها وطن للاموات وقد أكثر تعالى من ذكر الارض فى كتابه ودعا عباده الى النظر اليها والتفكر فى خلقها فقال تعالى ﴿ والارض فرشناها فنعم الماهدون • الله الذي جعل لكم الارض قراراً • الذي جعل لكم الارض فراشاً • أفلا

ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت • ان فى خلق السموات والارض لآيات للمؤمنين} وهذا كثير فى القرآن فانظر اليها وهي ميتة هامدة خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخبر بهيج للناظرين كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية ومراعي الدواب والطير (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحداً فتنبت الازواج المختلفة المتباينة فى اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والام واحدة كما قال تعالى{ وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون } فكيف كانت هذه الاجنة المختلفة مودعة فى بطن هذه الام وكيف كان حملها من لقاح واحد صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله الا هو ولولا ان هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده وهداهم الى التفكر فيه • قال الله تعالى {وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من القبور}فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلاً على هذه النتائج الخمس مستلزماً للعلم بها ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الارض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الامطار والارياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس الى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلي والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم الى ذلك لما كان لهم علم شيء منه ولا قدرة عليه (ومن آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والارض يدرك بحس اللمس عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجري بين السماء والارض والطير محتلقة فيه سابحة بأجنحتها فى أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فاذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ولاقحاً للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل • وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء

واللواقح • ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما فى البحر والعقيم والصرصر وهما فى البر وان شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً وأودعه عذاباً أليماً وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً ونحساً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه وهي مختلفة فى مهابها فنها صبا ودبور وجنوب وشمال وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه • ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها • فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحمله على متونها وريح تغذي النبات • ولما كانت الرياح مختلفة فى مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحاً مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ويبقى لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فانه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لاهلاك ما ترسل باهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتي عليه • وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا فى البر وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى (هو الذي يسيركم فى البر والبحر حتي اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان) فان السفن انما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد فاذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها فى البحر خلاف المقصود منها فى البر إذ المقصود فى البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت فى البر • ثم انه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذى يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه فانظر اليه مع لطافته وخفته اذا دخل في الزق مثلا وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه فى الماء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فانه لا يرسب فيه لان الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق وهذا كالذى يهوى فى قليب فيتعلق بذيل رجل قوي شديد يمتنع عن السقوط فى القليب فينجو بتعلقه به فسبحان من علق هذا

المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة نشاهد (ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض) كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسفاً ثم يؤلف بينه ويضم بعضه الي بعض ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح ثم يسوقه على متونها الي الأرض المحتاجة اليه فاذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى اذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح • وفى الترمذى وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال هذه روايا الأرض يسوقها الله الي قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التي عليها ميرتهم • وكان الحسن اذا رأى السحاب قال فى هذا والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم • وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتاً في سحابة إسق حديقة فلان فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فاذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها فقال ما اسمك ياعبد الله قل فلان للاسم الذي سمعه فى السحابة (وبالجملة) فاذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء واذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض الى ان يأذن له ربه وخالقه فى ارسال ما معه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعاً بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشاً ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمتزج بها بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتي تصيب الأرض قطرة قطرة قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه الى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه • فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقاً للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقاً للحيوان الفلاني فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل اليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا • ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات فهذا النبات يغذى وهذا يصلح الغذاء وهذا يفسده وهذا يضعف وهذا سم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا اذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال،

اليها وهذا يدفع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليهما وهذا يهيج الدم وهذا يسكنه وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يجلب الغم الى غير ذلك من عجائب النبات التي لاتكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الاحاطة بها وتفصيلها • وانظر الى مجارى الماء في تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها الا بعد تحديقه كيف يقوي قسره واجتذابه من مقره ومركزه الى فوق ثم ينصرف فى تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق الى غاية لا ينالها البصر • ثم انظر الي تكون حمل الشجرة ونقلته من حال الى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجاب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين بينا تراها حطباً قائماً عارياً لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هى أثبت من الأولى ثم اطلع فيها حملها ضعيفاً ضئيلا بعد ان أخرج ورقها صيانة وثوباً لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ثم ساق الى تلك الثمار رزقها وغذاها في تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه ثم رباها ونماها شيئاً فشيئاً حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء هذا وكم لله من آية فى كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الاحاطة بها وبجميع تفاصيلها

﴿ فصــل ﴾ ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن ويبديه كقوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار) وقوله (وهو الذى جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا) وقوله عزوجل (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وقوله عزوجل (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وهذا كثير في القرآن فانظر الى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات الى بيوتها والطير الى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعي والتعب حتى اذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت الى معايشها وتصرفها جاء فالق الأصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فاذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره

ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية واحياء الخلق بعد موتهم ولا ضعف فى قدرة القادر التام القدرة ولا قصور فى حكمته ولا فى علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ولا يبصرها لمن هو واقف فى الماء الى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عزوجل ويشكر ويحمد ويتضرع اليه ويسأل

﴿ فصل ﴾ ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتي ان المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة الى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا امساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء ولهذا حار عقلاء الطبيعيين فى سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة المـاء للعلو عليه وان يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك الا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الالهية التى اقتضت ذلك ليعيش الحيوان الأرضي فى الأرض وهذا حق ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وارادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا محيص عنه • وفي مسند الامام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم • وهذا أحـد الأقوال فى قوله عزوجل ﴿ والبحر المسجور ﴾ انه المحبوس حكاه ابن عطية وغيره • قالوا ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التى تمسكه وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض واذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى ان فيها حيواناً أمثال الجبال لا يقوم له شيء وحتى ان فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن انها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار اذا أوقدت فتتحرك فيعلم انه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر الا وفي البحر أمثاله حتى الانسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذى في صدفه لم تمسه الايدي وتأمل كيف نبت المرجان فى قعره فى الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه

وتمخره بلا قائد يقودها ولاسائق يسوقها وانما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لاجرائها فاذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء قال الله تعالى (ومن آياته الجوارى في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) وقال الله تعالى (الله الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيراً وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من ان يحصيها الا الله سبحانه وقال الله تعالى (انا لما طغى الماء حملنا كم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)

﴿فصل﴾ ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه والوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على أربع ومنه ماجعل سلاحه فى رجليه وهو ذو المخالب ومنه ماجعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب ومنه ماسلاحه الاسنان ومنه ماسلاحه الصياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج الى سلاح كالاسد فان سلاحه قوته ومنه ماسلاحه في ذرقه وهو نوع من الطير اذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ونحن نذكر هنا فصولا منثورة من هذا الباب مختصرة وان تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الاول ولهذا يكرر فى القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبديها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن قال الله تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والارض) وقال تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) وقال تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) وقال الله تعالي (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شيء) وقال تعالى (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأني تؤفكون فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا

أثمر وينعه) فأمر سبحانه بالنظر اليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وادراكه يقال أينعت الثمار اذا نضجت وطابت لأن فى خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ثم فى خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة الى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهي لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس ان يخرجوا وقت ادراك الثمار وينعها فينظروا اليها ثم تلى انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ولو أردنا نستوعب مافي آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بانه الله الذى لااله الا هو الذى ليس كمثله شيء وانه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا الطف لعجزنا نحن والاولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ولكن مالايدرك جميعه لاينبغي ترك التنبيه على بعض مايستدل به على ذلك وهذا حين الشروع في الفصول

(فصل) تأمل العبرة فى وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه فانك اذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل مايحتاج اليه فالسماء سقفه المرفوع عليه والارض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن والشمس والقمر سراجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمتنقل في طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذى يصلح له وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والامتعة والآلات ومنها الحرس الذى وكل بحرس الانسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لاهلاكه وأذاه فلولا ماسلط عليه من ضده لم يقر للانسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ففى هذا أعظم دلالة وأوضحها على ان العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وان الخالق له يستحيل ان يكون اثنين بل الاله واحد لااله لا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً وانه لو كان في السموات والارض اله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما واذا كان البدن يستحيل ان يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان ان يكون تحت قهر ثالث هذا من ابين في أوائل العقول وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض

سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الاولون والآخرون ان يقدحوا فيهما بقدح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما الا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الاطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ماتضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد ان شاء الله كتابا مستقلا لادلة التوحيد

(فصل) فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لاتصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالاجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والارض ان تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الالوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى ان من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بادمان النظر الى الخضرة وما قرب منها الى السواد وقال الاطباء ان من كل بصره فانه من دوائه ان يديم الاطلاع الى اجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الابصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه اضعاف ذلك

(فصل) ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لاقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة فى غروبهما فانه لولا غروبهما لم يكن للناس هدو ولا قرار مع فرط الحاجة الى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء ثم لولا الغروب لكانت الارض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لاهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم وقد أشار تعالى الى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عزوجل (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) خص سبحانه النهار بذكر البصر لانه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لان

سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات مالاتسمع في النهار لانه وقت هدوّ الاصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع الى قوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم به وقوله أفلا تبصرون راجع الى قوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة وقال تعالى﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر أوأراد شكورا ﴾ فذكر تعالى خلق الليل والنهار وانهما خلفة أي يخلف أحدهما الآخر لايجتمع معه ولواجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخالف الآخر لايجامعه ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه

﴿ فصل﴾ ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لاقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الاجواف وبطون الارض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكثف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الارض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ماحللته حرارة الصيف من الابدان وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جداً فتنضج الثمار وتنحل فضلات الابدان والاخلاط التي انعقدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب الى الاجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الاطعمة الغليظة لانها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة الى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد الى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره فاذا انتقل اليه بتدريج وترتيب لايصعب عليه فانه عند

كل جزء يستعد لقبول ماهو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدريج وترتيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين

(فصل) ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والاضاءة وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لاقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذى لاغناء لهم في مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والاجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وقال تعالي ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾

(فصل) ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه فانها لو كانت تطلع فى موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الارض يحجبها عن الجانب الآخر وكان يكون الليل دائماً سرمداً على من لم تطلع عليهم والنهار سرمداً على من هي طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقتضت الحكمة الالهية والعناية الربانية ان قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ماقابلها من الافق الغربي ثم لاتزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتي تنتهي الى المغرب فتشرق على ماانستتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم

(فصل) ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمه وان مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك بل جعل مكيا لهما أربعة وعشرين ساعة وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار في الليل ﴾ وفيه قولان أحدهما ان المعنى يدخل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك وضياء هذا فى مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما فى موضع صاحبه وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار والقول الثانى انه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لايذهب جملة وعلى هذا

فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفى مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الاقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فاذا زاد على ذلك انحرف ذلك الاقليم في الحرارة أو البرودة الى أن ينتهي الى حد لا يسكنه الانسان ولا يتكوّن فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه والمواضع التى يعيش فيها الحيوان والنبات هي التى تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التى تتعاقب عليها الفصول الاربعة ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين

(فصل) ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك فان الله تعالي اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوّ الحيوان وبرد الهواء على الابدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الانوار ولم يجعله ظلمة داجية حندساً لاضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الاعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج فى الليل الى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان جعل فى الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوي الليل والنهار فتفوت حكمة لاختلاف بينهما والتفاوت الذي قدره العزيز العليم فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذى اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفاً بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه واحسانا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه

(فصل) ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدى بها فى طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث تمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ثم تأمل تسخيرها مقادة بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد قضت حكمته وعلمه أن لا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبير والصغير والمتوسط والأبيض الأزهر والابيض الاحمر ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل

منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديراً واحداً ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها مايقطعهافي عام ومنها ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسباباً لما يحدثه سبحانه في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا اذا طلعت وغروبها اذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقربها من المركز ولما فى ذلك من الحكمة الالهيـة وانها بمنزلة الاعلام التي يهتدى بها الناس فى الطرق المجهولة في البر والبحر فهم ينظرون اليها والى الجدي والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاؤا

(فصل) ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير الا مع رفقته ولا يفرد عنهم سيره أبداً بل لا يسيرون الا جميعاً وبعضها يسير سيراً مطلقاً غير مقيـد برفيق ولا صاحب بل اذا اتفق له مصاحبته فى منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الاخرى فبينا تراه ورفيقه وقرينه اذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها فى سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام يسير بها فلكها وسير خاص تسيره هي فى فلكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان الى جهتين متباينتين احداهما بنفسها والاخرى مكرهة عليها تبعاً للرحى تجذبها الى غير جهة مقصدها وبذلك يحصل التقديم فيها كل منزلة الى جهة الشرق ثم بسير فلكها وبمنزلتها الى جهة الغرب فسل الزنادقة والمعطلة أي طبيعة اقتضت هذا وأي فلك أوجبه وهلا كانت كلها راتبة أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد وهل هذا الا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بانه الخالق البارئ المصور الذى ليس كمثله شئ أحسن كل شئ خلقه وأتقن كل ما صنعه وانه العليم الحكيم الذى خلق فسوّى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للافكار اذا سافرت فيها اليه وانه خلق مسخر مربوب مدبر (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) • فان قلت فما الحكمة فى كون بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلا • قيل انها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التى نشأت من تنقلها فى منازلها ومسيرها

في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لانه انما يقاس مسير المنتقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الارض بالمنازل التي يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته

(فصل) ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم الى آخر الاجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الارض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذي بصيرة ان هذا ابداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطب الرسل أممهم مخاطبة من لا شك عنده في الله وانما دعوهم الى عبادته وحده لا الى الاقرار به فقالت لهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الاطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده فما ينكره الا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه • قال تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الارض قطع متجاورات ' الآية • وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من من دابة . الى قوله (وآياته يؤمنون) وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة الى قوله في ضلال مبين • وقال تعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) الى قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب الى آخرها وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الذي أنزله من السماء فاخرج به كلما ذكره من الارض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته • وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه

المخلوقات التى ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه الى نظر القلب في حكمه ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى فى الآية التى بعدها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون فجمع الآيات لانها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفياتها فان إظلام الجو لغروب الشمس ومجيء الليل الذى يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرى ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى وفي القمر الذى هو آية الليل آية أخرى وفي النجوم آيات أخركما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات باهل العقل لانها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر والأولي كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولان منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الاولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها الى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمله . فاما قوله في الآية الثالثة ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكتوحيد الاولى سواء فان ماذرأ فى الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وان تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها باهل التذكر فطريقة القرآن فى ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى فى سورة ق : والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ فالتبصرة التعقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فاذا فكر تبصر واذا تبصر تذكر فجيء التذكير فى الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر اذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل . فان قلت فما الفرق بين التذكر والتفكر فاذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام في التفكير فى هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة اليه قال الحسن ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فاذا لها أسماع وأبصار . فاعلم ان التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل

منها هذا حقيقته فانه لو لم يكن ثمّ مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر لان الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هى الامور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنـده لم يتفكر فيه فاذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادى التي عنده الى المطلوب الذي يريده فاذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فاذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فا تخرج ما لم يكن حاصلا عنـده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره مادام عاقلا لان العلم والارادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والارادة (واذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته فان المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة الى شئ من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحـدة من آياته على التمام ولكن مالا يدرك جملة لا يترك جلة وأحسن ماأنفقت فيه الأنفاس التفكر فى آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها الى تعلق القلب والهمة به دون شئ من مخـلوقاته فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الاصلين إذ هما أفضل مايكتسبه العبد فى هذه الدار

(فصل) فسل المعطل الجاحد ماتقول فى دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبدعه بحيث لا يرى الناظر فيه خللاً فى مادته ولا فى صورته وقـد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفى تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شئ ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام أترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر أفترى مايقول لك عقلك في ذلك لو كان وما الذي يفتيك به وما الذي يرشدك اليه ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوباً عمياً لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة الا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق أعيناً لا أبصار لها والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهي لا تراها فما ذنبها ان أنكرتها وجحدتها فهى تقول فى ضوء النهار هـذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئاً ولقد أحسن القائل

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمي العالمون عن الضياء

(فصل) ثم تأمل الممسك للسموات والأرض الحافظ لهما ان تزولا أو تقعا أو يتعطل بعضهما فيهما افترى من الممسك لذلك ومن القيم بأمره ومن المقيم له فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه وما ذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذى كان يسيرها ويأتيهم بالليل ولو ان السماء والأرض زالتا فمن ذا الذي كان يمسكهما من بعده

(فصل) ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة الى مكان مفرط في البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والاحسان لما كان ذلك • فان قلت هذا التدريج والمهلة انما كان لابطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها • قيل لك فما السبب فى ذلك الانخفاض والارتفاع فان قلت السبب في ذلك بُعد المسافة من مشارقها ومغاربها قيل لك فما السبب فى بُعد المسافة ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سبباً حتى تفضي بك الى أحد أمرين إما مكابرة ظاهرة ودعوى ان ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع وإما الاعتراف برب العالمين والاقرار بقيوم السموات والارضين والدخول في زمرة أولي العقل من العالمين ولن تجد بين القسمين واسطة أبداً فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين فانها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين واذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس فى أول المنهزمين والله متم نوره ولو كره الكافرون

(فصل) ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ماهي عليه من الكمون والظهور فانها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم ان جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته اليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج الى بقائها فاذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت باذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع

والسلامة من الضرر قال تعالى (أفرأيتم النار التي تورون) الى قوله (فسبح باسم ربك العظيم) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف الينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه انه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب اليه منها ومتاعاً للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج الى الانتفاع بالنار للاضاءة والطبخ والخبز والتدفي والانس وغير ذلك

(فصل) ثم تأمل حكمته تعالى فى كونه خصها الانسان دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان اليها بخلاف الانسان فانه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهي هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ماشاؤا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا فى ظلمة الليل الداجي وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج الى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ثم انظر الى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حوله كله فترى به القريب والبعيد ثم نظر الى انه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف وأما منافع النار فى انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع الا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع الا بتحليله وعقد ما لا ينتفع الا بعقده وتركيبه فأكثر من ان يحصى ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها الى العلو فلولا الماسك لها لذهبت صاعدة كما ان الجسم الثقيل لولا الماسك يمسكه لذهب نازلا فمن أعطي هذا القوة التى يطلب بها الهبوط الى مستقره وأعطى هذه القوة التى تطلب بها الصعود الى مستقرها وهل ذلك الا بتقدير العزيز العليم

(فصل) ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فانه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهراً وباطناً وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذى شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع الى موضع فتأتى العبد الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك تأتيه الأصوات وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات وتأمل منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة

التي تحمله على متنها كالجمل الذى يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها الي بعض فيصير طبقاً واحداً ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الانثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لاماء فيه ثم سخرت له المزجية التى تزجيه وتسوقه الى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التى تبثه وتفرقه فى الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطراً وكذلك الرياح التى تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيماً وكذلك الرياح التى تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ومن منافعها انها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد اضرامها وتجفف الاشياء التي يحتاج الى جفافها • وبالجملة فحياة ماعلى الأرض من نبات وحيوان بالرياح فانه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد ألا ترى اذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذى لو دام لأتلف النفوس وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء فى الجو فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتى بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الرياح انها من روح الله تأتى بالرحمة • وتنبه لطيفة فى هذا الهواء وهي ان الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الاجرام وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه الى مسامع الناس فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس الى محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم الى استبدال الكتاب المملوء كتابة فان مايلقى من الكلام فى الهواء اضعاف مايودع في القرطاس فاقتضت حكمة العزيز الحكيم ان جعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحي باذن ربه فيعود جديداً نقياً لا شئ فيه فيحمل ما حمل كل وقت

(فصل) ثم تأمل خلق الأرض على ماهي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهاداً ومستقراً للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها فى مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوهم والتمكن من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من

تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم الى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) وقوله تعالى (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً) وقوله (الله الذي جعل لكم الأرض مهداً) وفي القراءة الأخرى مهاداً • وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها فانها لو أفرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الاستمتاع بها ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلاحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ماجاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح

(فصل) ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تحدر المياه على وجه الارض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب في البحر فكما أن الباني اذا رفع سطحاً رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فأفسده كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء واقفا على وجه الارض فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء

(فصل) ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الارض لاحاجة اليها وفيها من المنافع مالا يحصيه الا خالقها وناصبها وفي حديث اسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي صلى الله عليه وسلم بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع آلله أمرك بكذا وكذا قال اللهم نعم فمن منافعها ان الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلا لشراب الناس الى حين نفده وجعل فيها ليذوب أولا فأولا فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الانهار والاودية فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والادوية التي لايكون مثلها في السهل والرمل فلولا الجبال لسقط الثلج على

وجه الارض فانحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة اليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه فيضر بالناس ضرراً لايمكن تلافيه ولا دفعه لاذيته ﴿ ومن منافعها ﴾ مايكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان • ومن منافعها ماينحت من أحجارها للابنية على اختلاف أصنافها والارحية وغيرها • ومن منافعها مايوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد واضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى ان فيهاما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب باضعاف مضاعفة وفيها من المنافع مالايعلمه الا فاطرها ومبدعها سبحانه • ومن منافعها أيضاً انها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ماتحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية • ومن منافعها ايضاً انها ترد عنهم السيول اذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن • ومن منافعها انها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الادلة المنصوبة المرشدة الى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما فقال ﴿ومن آياته الجواري في البحر كالاعلام﴾ فالجوارى هي السفن والاعلام الجبال واحدها علم قالت الخنساء

وان صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور • ومن منافعها أيضاً ماينبت فيها من العقاقير والادوية التي لاتكون في السهول والرمال كما ان ماينبت في السهول والرمال لاينبت مثله في الجبال وفى كل من هذا وهذا منافع وحكم لايحيط به الا الخلاق العليم • ومن منافعها انها تكون حصونا من الاعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن • ومن منافعها ماذكره الله تعالى في كتابه ان جعلها للارض أوتاداً تثبتها ورواسى بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة هذا واذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فانها لوطالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الارض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والاكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام

اولى الاشكال والاوضاع بها واليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصبت عليه ولقد دعانا الله سبحانه فى كتابه الي النظر فيها وفى كيفية خلقها فقال ﴿ أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت﴾ فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع انها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الامانة اذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه • ومنها الجبل الذى تجلى له ربه فساخ وتدكدك • ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه •ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم• ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الاعظم والوفد الاكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوفاً لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته شعثاً غبرا حاسرين عن رؤسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام • ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو فى غاره فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم فانه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هي مغاطيس القلوب كأنها مركبة منه فهي تهوي اليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فاحبه وحببه الى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول فى الارض بينهم

واذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقي كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وانها لتعلم ان لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم الدرداء رضي الله عنها اذا سافرت

كالسعف والفخار وكانت تتعطل المصلحة التي وضعا لاجلها وكانت كثرتهما جداً سبب تعطل الانتفاع بهما فانه لايبقى لهما قيمة ويبطل كونهما قيما لنفائس الاموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض اذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها فى الصنائع التى لاقوام للعالم الا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الاحمر الذي لايوصل اليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأبثهما فى العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده • وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الانبارى قال أخبرني بعض من تداول المعادن انهم أوغلوا في طلبها الى بعض نواحي الجبل فانتهوا الى موضع واذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصاباً بماء غزير لايدرك ولا حيلة في عبوره- فانصرفوا الي حيث يعملون مايعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولاعرفوا الى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين وهذا أحد مايدل على بطلان صناعة الكيمياء وانها عند التحقيق زغل وصبغة لاغير وقد ذكرنا بطلانها وبينا فسادها من أربعين وجهاً في رسالة مفردة والمقصود ان حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة الي الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه اذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الامتعة كان نفيساً عزيزاً ما دام فيه قلة وهو مرغوب فيه فاذا فشى وكثر فى أيدى الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغبتهم فيه ومن هذا قول القائل نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه

(فصل) وتأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج اليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج اليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل واذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن داعاما ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها فاعتبر هذا بالاصول الاربعة التراب والماء والهواء والنار وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لان الحيوان مخلوق في البر لايمكنه الحياة الا به فهو معه أينما كان وحيث كان لانه لايستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في اقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك في ان سخر له الرياح فاذا تصاعد الى الجو احالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره وأذاه فسل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا ان يحيلوا ذلك ويقلبوه سحاباً أو ضبابا أو

يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الارض فأهلك ماعليها من الحيوان والناس

(فصل) ومن ذلك سعة الارض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم • فان قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة • فاعلم ان فيها معايش مالايحصيه الا الله من الوحوش والدواب وعليها أرزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومراعاهم ومصيفهم ومشتاهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب اذا احتاجوا الى الانتقال والبدو والاستبدال بالاوطان فكم من بيداء سملق صارت قصوراً وجنانا ومساكن ولولا سعة الارض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين فى أماكنهم لايجدون عنها انتقالا اذا فدحهم مايزعجهم عنها ويضطرهم الى النقلة منها وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه في الاودية والانهار لضاق عن حاجة الناس اليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان اليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة ان كان بهذه الكثرة والسعة فى كل وقت واما النار فقد تقدم ان الحكمة اقتضت كمونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهى وان لم تكن مبثوثة فى كل مكان فانها عتيدة حاصلة متي احتيج اليها واسعة لكل مايحتاج اليه منها غير انها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها للحكمة التى تقدمت

(فصل) ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الارض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وضرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى انما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة الا اذا اجتمع في السفلى وكثر وفى ذلك فساد فاقتضت حكمته ان سقاها من فوقها فينشئ سبحانه السحاب وهى روايا الارض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحه به كما يلقح الفحل الانثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الامطار واذا بعدت من البحر قل مطرها وفى هذا المعني يقول الشاعر يصف السحاب

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متي لجج خضر لهن نئيج

وفي الموطأ مرفوعا وهو أحد الاحاديث الاربعة المقطوعة اذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة فالله سبحانه ينشئ الماء فى السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الارض للحكم التي ذكرناها ولو انه ساقه من البحر الى الارض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقى

الا بتخريب كثير من الارض ولم يحصل عموم السقي لاجزائها فصاعده سبحانه الى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الارض بغاية من اللطف والحكمة التي لااقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فانزله ومعه رحمته على الارض

(فصل) ثم تأمل الحكمة البالغة في انزاله بقدر الحاجة حتى اذا أخذت الارض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساده فلو توالت الامطار لاهلكت ماعلي الارض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضراوات وأرخت الابدان وحثرت الهواء فحدثت ضروب من الامراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الابدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والانهار والاودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ماعلى الارض وجفت الابدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الامراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الامر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح

(فصل) ثم تأمل الحكمة الالهية فى اخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الارض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فان كل فصل وأوان يقتضي من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل فى فصله موافق للمصلحة لايليق به غير ما خلق فيه • ثم انه سبحانه خلق تلك الاقوات مقارنة لمنافع أخر من العصف والخشب والورق والنور والسعف والكرب وغيرهما من منافع النبات والشجر غير الاقوات كعلف البهائم وأداة الابنية والسفن والرحال والاوانى وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر وخلقها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف • ثم اذا تأملت اخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الاخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراد منها ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجمات الشجرة لها كالأم • فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف ابرازهذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الاصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك

وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً وسوق الغذاء اليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجاري الدقاق فمن الذي تولى ذلك كله ومن الذي أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فان الاشجار لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه الى أغصانها فتؤديه الاغصان الى الورق والثمر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل اليه في مجاري وطرق قد أحكمت غاية الاحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطي كل جزء منه بحسب ما يحتاج اليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته فسل الجاحد من أعطاها هذا ومن هداها اليه ووضعه فيها فلو اجتمع الاولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل الى تربية ثمرة واحدة منها هكذا باشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاولة وهل ذلك الا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته كما قيل

فواعجباً كيف يعصى الاله   أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة   وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل اذا نصبت خيمة أو فسطاطاً كيف تمده من كل جانب بالاطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة في الارض منتشرة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما تشمرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الريح العواصف وتأمل سبق الخلق الالهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لان عروقها أطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر تتخذ منها الفساطيط ثم يحاكي بها الشجرة

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل الحكمة في خلق الورق فانك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر فمنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجباً لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل ولاحتاجوا فيه الى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فيبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يملأ الارض

سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ان هي الا ارادته النافذة في كل شيء وقدرته التي لا يمتنع منها شيء (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فتأمل الحكمة فى تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل اليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة في الابدان التى توصل الغذاء الى كل جزء منه وتأمل ما فى العروق الغلاظ من إمساكها الورق بإصلابها ومتانتها لئلا تمزق وتضمحل فهي بمنزلة الاعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وستراً ولباساً للثمرة ووقاية لها من الآفات التى تمنع كمالها ولهذا اذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فاذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الافنان الضعيفة من الحر حتى اذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الافنان عراها من ورقها وسلبها اياه لتكتسي لباساً جديداً أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الاوراق ومنابتها فلا تخرج منها ورقة الا باذنه ولا تسقط الا بعلمه ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والافنان والاشجار لشاهدوا من جمالها أمراً آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ فالنجم ماليس له ساق من النبات والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿ وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفوراً ﴾ ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب الى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط فاعلم ان هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجها قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر وفى أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحاً وسجوداً وصلاة وتأويباً وهبوطاً من خشيته كما ذكر تعالى ذلك في كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى - والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه - أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحاً وفرق بينهما وعطف أحدهما على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله ياجبال أوبي معه وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشي والاشراق أفترى دلالتها على صانعها انما يكون فى هذين الوقتين . وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوى البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله

(فصل) ثم تأمل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم والفوائد التي منها انه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع اليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عز وجل العظام • ومنها ان في ذلك بقاء المادة وحفظها اذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلها • ومنها ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والادهان والادوية والاصباغ وضروب أخر من المصالح التي يتعلمها الناس وما خفي عليهم منها أكثر فتأمل الحكمة في إخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحماً لذيذاً شهياً يتفكه به ابن آدم ثم تأمل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه وأما مالا يفسد اذا كان بارزاً فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فاذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره

(فصل) ثم تأمل خلقة الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فانك ترى داخل الرمانة كأمثال التلال شحماً متراكماً في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفاً رصفاً ومنضوداً نضداً لا تمكن الايدي أن تنضده وترى الحب مقسوماً اقساماً وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفاً بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج وألطفه وأدقه على غير منوال الا منوال كن فيكون ثم ترى انوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه أحسن ضم فتأمل هذه الحكمة البديعة في الشحم المودع فيها فان الحب لا يمد بعضه بعضاً اذ لومد بعضه بعضاً لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه انك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فانه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حتى أختها بل يجرى الغذاء في ذلك العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه في مجاري الحبوب كلها فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين • ثم انه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظاً ومسكا له باذن الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولا غيرنا استقصاء ذلك ولو طالت الايام واتسع الفكر ولكن هذا منبه على ما وراءه والليب يكتفى ببعض ذلك • وأما من غلبت

عليه الشقاوة ﴿ وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ غافلون عن موضع الدلالة فيها

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل هذا الريع والنماء الذي وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعمائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لا يكون فى الغلة متسع لما يرد فى الارض من الحب وما يكفي الناس ويقوت الزارع الى ادراك زرعه فصار الزرع بريع هذا الريع ليفى بما يحتاج اليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الاشجار والنخيل وكذلك ما يخرج مع الاصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مآربهم خلفاً فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يبذرونه فيهم وما يقيتهم الى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا في قشور على رؤسها أمثال الاسنة فلا يتمكن جند الطير من افسادها والعبث فيها فانه لو صادف الحب بارزا لاصوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فافسد وعاب وعاث وأكب عليه أكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره الانسان فانه أولى به لانه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذي يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الاشجار كيف تراها في كل عام لها حمل ووضع فهى دائماً في حمل وولادة فاذا أذن لها ربها فى الحمل احتبست الحرارة الطبيعية في داخلها واختبأت فيها ليكون فيه حملها فى الوقت المقدر له فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطفة فتعمل المادة فى جوفها عملها وتهيئها للعلوق حتى اذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء فى افنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى اذا آن وقت الولادة كسيت من فاخر الملابس الفاخرة من النور والورق ما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم اذ ظهرت أولادها وبان للناظر حملها على حينئذ كرمها وضنها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولي غذاء الاجنة فى بطون أمهاتها وكساها الاوراق وصانها من الحر والبرد فاذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت اليك فدنت كأنها تناولك ثمرة درها

فاذا قابلتها رأيت الافنان كأنها تلقاك باولادها وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم اليك حتى كأن منا ولا يناولك اياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التى يتناولها المؤمن قائما وقاعداً ومضطجعاً وكذلك ترى الرياحين كأنها تحييك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا اكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصاً لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات أفيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها فكيف اذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها فى مساخطه فكيف اذا جحدته وأضفتها الي غيره كما قال (وتجعلون رزقكم انكم تكذبون) لجدير بمن له مسكة من عقل ان يسافر بفكره فى هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها ماهو ولأي شيء خلق ولما ذا هيئ وأي أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالي (واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لان ذلك لايزيده الا محبة لله وحمداً وشكراً وطاعة وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعي مع الهمل

(فصل) ثم تأمل الحكمة فى شجر اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة ان يكون حمله ثماراً كباراً جعل نباته منبسطاً على الارض اذ لو انتصب قائماً كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها فاقتضت حكمة مبدعها وخالقها ان بسطه ومده على الارض ليلقي عليها ثماره فتحملها عنه الارض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطاً على الارض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها أجراؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوبياء والباذنجان والباقلاء وغيرهامما يقوى على حمل ثمرته أنبته الله منتصباً قائماً على سوقه اذ لاياتي من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه

(فصل) ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الالهية موافاة أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف اعايوافى في الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالا بوروده مع ماكان فيه من المضرة للابدان والاذي لها وكذلك لو وافى مافي ربيعها فى الخريف أومافى خريفها فى الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن ان هذا لجريان العادة المجردة بذلك فان العادة انما

جرت به لانه وفق الحكمة والمصلحة التي لايخل بها الحكيم الخبير

(فصل) ثم تأمل هذه النخلة التي هي احدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب مايبهرك فانه لما قدر ان يكون فيه اناث تحتاج الى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان واناثه ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الاشجار بالانسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من وجوه كثيرة (أحدها) ثبات أصلها في الارض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار (الثاني) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره (الثالث) دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء كذلك المؤمن لايزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى (الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة الى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج الى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم (الخامس) أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فانه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسه يكون قوتا وأدما وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الادوية والاشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار • وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين • وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لاتقبل النخيل • وحضرت مرة في مجلس بمكة فيه من أكابر البلد فجرت هذه المسئلة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل وفوائده وقال في أثناء كلامه وبكفي في تفضيله انا نشترى بنواه العنب فكيف يفضل عليه ثمر يكون نواه ثمناً له وقال آخر من الجماعة قد فصل النبي صلى الله عليه وسلم النزاع في هذه المسئلة وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرما وقال الكرم قلب المؤمن فأي دليل أبين من هذا وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك • فقلت اما اولا ماذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل فان هذا له أسباب • أحدها حاجتكم الى النوى لعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته • الثاني أن نوى العنب لافائدة فيه ولا يجتمع • الثالث أن الاعناب عندكم قليلة جداً والتمر أكثر شيء عندكم فيكثر نواه فيشترى به الشيء اليسير من العنب وأما في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى

منه شيء ولا قيمة لنوى التمر فيها، وقلت لمن احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره فانه يؤكل رطباً ويابساً وحلواً وحامضاً وتجني منه أنواع الاشربة والحلوى والدبس وغير ذلك فسموه كرما لكثرة خيره فاخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ماأودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والاحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بان يسمى كرما من شجر العنب ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم إبطال ما في شجر العنب من المنافع والفوائد وان تسميته كرماً كذب وأنها لفظة لا معنى تحتها كتسمية الجاهل عالماً والفاجر براً والبخيل سخياً ألا ترى انه لم ينف فوائد شجر العنب وانما أخبر عنه ان قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها هذا الكلام أو قريب منه جرى في ذلك المجلس وأنت اذا تدبرت قول النبي صلى الله عليه وسلم الكرم قلب المؤمن وجدته مطابقاً لقوله في النخلة مثلها مثل المسلم فشبه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن وقد قال بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرماً لانه يقتنى منه أم الخبائث فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع في الألفاظ وهذا لابأس به لولا ان قوله فان الكرم قلب المؤمن كالتعليل لهذا النهي والاشارة الى انه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما أراد من كلامه فالذي قصده هو الحق • وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والاعناب فساقها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الاول أظهر من المعنى الآخر ان شاء الله وان أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما قال تعالى ﴿ ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا ﴾ وقال أنس نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شيء وانما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر فلو كان نهيه صلى الله عليه وسلم عن تسمية شجر العنب كرماً لاجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لان المسكر يتخذ منها والله أعلم ﴿ الوجه السادس ﴾ من وجوه التشبيه ان النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الريح • السابع ان النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للابنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان

القصب ويستر به الفرج والخلال وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بازائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (الثامن) انها كلما أطال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن اذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله (التاسع) ان قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب • العاشر انها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً بل ان تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لايخلو عن شئ من خصال الخير قط ان أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولا وشره مأموناً • وفي الترمذي مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة فى خلق النخلة وهيئتها فلنرجع اليه فتأمل خلقة الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والاواني وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها اذا تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتاً كالحجر الصلد بل ترى بعضه كانه داخل بعضاً طولا وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها فى بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه فإنه لو كان مصمتاً كالحجارة لم يمكن أن يستعمل فى الآلات والأبواب والاوانى والامتعة والاسرة والتوابيت وما أشبهها ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة اذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والامتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد الى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة فى نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم

(فصل) ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والادوية التى يخرجها الله من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج

الفضول الغليظة القاتلة لو احتبست وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعيده اذا أعوزه الانسان وهذا يخفف البدن اذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب اذا تراكمت عليه الغموم وهذا يجلو البلغم ويكشطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الادوية والاغذية وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتماوهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطي اللون اشراقا ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها الى أضعاف أضعاف ذلك مما لا يحصيه العباد فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوي في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن أعطي كلا منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان الى تناول ماينفع منه وترك مايضر ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وباي عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ماخلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا انعام الذى أعطي كل شيء خلقه ثم هدى وهب ان الانسان فطن لهذه الاشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذى فطن لها البهائم في أشياء كثيرة منها مالا يهتدى اليها الانسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذى جعله يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول اذا اعتل شيئاً من النبات فتعود صحته وقد ذكر الاطباء في مبادى الطب في كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من ألهمها ذلك ومن أرشدها اليه ومن دلها عليه أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بانه الله الذى لا اله الا هو الخالق البارئ المصور الذى لا تنبغي العبادة الا له وانه لو كان معه في سمواته وأرضه اله سواه لفسدت السموات والارض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً • ولعلك ان تقول ماحكمة هذا النبات المبثوث في الصحارى والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن وتظن انه فضلة لاحاجة اليه ولا فائدة في خلقه وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك فكم لباريه وخالقه فيه من حكمة وآية من طعم لوحش وطير ودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الارض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الوحوش والطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقي كما

يبقي الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغذاء التام وكثرة النعامه

(فصل) ثم تأمل الحكمة البالغة في اعطائه سبحانه بهيمة الانعام الاسماع والابصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الانسان بها اذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للانسان ليتم تسخيره اياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فأعطيت من التميز والادراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلت له وسلبت من الذهن والعقل ماميز به عليها الانسان وليظهر أيضاً فضيلة التميز والاختصاص • ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره قال الله تعالى (وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أي مطيقين ضابطين وقال تعالى (أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا منقاداً ولو أرسل عليه لسواه بالارض ولفصله عضواً عضواً فسل المعطل من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الانساني لمصالح معاشه ومعاده فانه لو كان يزاول من الاعمال والاحمال مايزاول الحيوان اشغل بذلك عن كثير من الاعمال لانه كان يحتاج مكان الجمل الواحد الي عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التي لايحصيها الا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والامتعة والآلات والاوتي والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال

(فصل) ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الانسان وغيره فالانسان لما خلق مهيئاً لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء الى مثله والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الاكف والاصابع بل لما قدر ان يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في آكلة اللحم من الحيوان وأما آكلة النبات فلما كانت لاتصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها اظلافا تقيها خشونة الارض اذا جالت في طلب المرعى وبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم تنطبق على الارض وتتهيأ للركوب والحمولة ولم يخلق لها براثن

ولاأنيابا لان غذاءها لايحتاج الى ذلك

(فصل) ثم تأمل الحكمة في خلقة الحيوان الذى يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له اسنان حداد وبراثن شداد وأشداق مهروتة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والاكل ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالكلاليب ولهذا حرّم النبي صلى الله عليه وسلم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير لضرره وعدوانه وشره والمغتذى شبيه بالغاذي فلو اغتذى بها الانسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها مايشابهها به فحرم على الامة أكلها ولم يحرم عليهم الضبع وان كان ذا ناب فانه ليس من السباع عند أحد من الامم والتحريم انما كان لما تضمن الوصفين ان يكون ذا ناب وان يكون من السباع ولايقال هذا ينتقض بالسبع اذا لم يكن له ناب لان هذا لم يوجد أبداً فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم فأوضح الاحكام وبين الحلال والحرام فانظر حكمة الله عز وجل فى خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التى لايختل نظامها ولا يخرم أبداً ولا يختل أصلا ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الامر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما أحكمه وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة واحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لايحصيها الا الله ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الامر وهم أكثر الاطباء الذين صرفوا أفكارهم الى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة وليس لهم نصيب فى حكمة الامر الا كما للفقهاء من حكمة الخلق بل أقل من ذلك ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والامر بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التى بهرت العقول في هذا وهذا فاذا نظر الى خلقه وما فيه من الحكم ازداد ايماناً ومعرفة وتصديقاً بما جاءت به الرسل واذا نظر الى أمره وما تضمنه من الحكم الباهرة ازداد ايماناً ويقيناً وتسليما لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فعمي بصره وغلظ عن الله حجابه ولو أعطي علمه حقه لكان من أقوى الناس ايماناً لانه اطلع من حكمة الله وبدائع آياته وعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ماخفى عن غيره ولكن من حكمة الله أيضا ان سلب كثيرا من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته ووقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدناءتها وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه

والفضل بيدالله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ماله نسبة الى الخافي عنهم منه أبداً بل علم الاولين والآخرين منه كنقرة العصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للاعراض عنه واليأس منه بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ماوراءه

(فصل) ثم تأمل أولا ذوات الاربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج الى الحمل والتربية كما يحتاج اليه أولاد الانس فمن أجل انه ليس عند أمهاتها ماعند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتح يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ماتمج به الطعم فى أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه في أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها الى أفواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتى ينهض الفرخ ويستقل بنفسه وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل اليها من الرحمة الواحدة من المائة فاذا استقل بنفسه وأمكنه الطيران لم يزل به الابوان يعالجانه ثم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردانه عن الوكر ولا يدعانه وأقواتهما وبينهما بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكراً وقوتاً فلا وكرلك عندنا ولا قوت فسل المعطل أهذا كله عن اهمال ومن الذي ألهمها ذلك ومن الذي عطفها على الفراخ وهى صغار أحوج ما كانت اليه ثم سلب ذلك عنها اذ استغنت الفراخ رحمة بالامهات تسعى فى مصالحها اذ لو دام لها ذلك لاضر بها وشغلها عن معاشها لاسيما مع كثرة ميحتاج اليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والايثار والحنان رحمة بالفراخ وسلبها اياها عند استغنائها رحمة بالامهات فيجوز ان يكون هذا كله بالاتدبير مدبر حكيم ولاعناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين الهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحوداً ان هي الا مكابرة باللسان من كل جحود كفور (فى الله شك فاطر السموات والارض) وانما يكون الشك فيما تخفى أدلته وتشكل براهينه فمامن له في كل شيء محسوس ومعقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بانه الله الذي لااله الاهو رب العالمين فكيف يكون فيه شك

(فصل) ثم تأمل الحكمة البالغة فى قوائم الحيوان كيف قتضت أن تكون زوجا لافرداً اما اثنين واما أربعاً ليتهيأ له المشي والسعي وتتم بذلك مصلحته اذ لو كانت فردا

لم يصلح لذلك لان الماشي ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الاربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الارض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقراً كنقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه لثقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا اذا مشى الانسان كذلك قليلا أجهده وشق عليه بخلاف مشيه الطبيعي الذى هو له فاقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه واقرار يسرى اليدين ويمنى الرجلين ثم نقل الأخريين كذلك وهـذا أسهل مايكون من المشي وأخفه على الحيوان

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل الحكمة البالغة فى ان جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة عليها ثم خولف هـذا في الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضـل القوة وعظم ماتحمله والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل ان عقد الأقباء انما أخذ من ظهور الابل. وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضاً طول عنقـه موازنا للحمل على ظهره اذا استقل به كما ترى طول قصـبة القبان حتى قيل ان القبان انما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل مايحمله ولهذا تراه يمد عنقه اذا اسـتقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة

﴿ فصـل ﴾ ثم تأمل الحكمة فى كون فرج الدابة جعل بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها ولو جعل فى أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها الا على الوجه الذي تجامع به المرأة وقد ذكر فى كتب الحيوان ان فروج الفيلة فى أسفل بطنها فاذا كان وقت الضراب ارتفع واشرز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فلما جعـل في انثيبة على خلاف ما هو في سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها ليتهيأ الأمر الذى به دوام النسل

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل كيف كسيت اجسام الحيوان البهيمى هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة والقوة كالسلحفاة وبعضها من نريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها الى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها فانها لما لم يكن لها سبيل الى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب اغنت بملابس وكسوة لاتفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعينت بالاظلاف والخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال فمنها

حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجري وجعل لها ذلك أيضاً سلاحاً عند انتصافها من خصمها عوضاً عن الصياصي والمخالب والأنياب والبراثن فتأمل هذا اللطف والحكمة فانها لما كانت بهائم خرساً لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ولا حظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج الى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التي أريدت بها ومنها وأما الانسان فانه ذو حيلة وكف مهيئة للعمل فهي تغزل وتنسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات عديدة • منها أن يستريح اذا خلع كسوته اذا شاء ويلبسها اذا شاء ليس كالمضطر الى حمل كسوة • ومنها انه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة للصيف وضروباً للشتاء فان كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه في كل فصل كسوة موافقة • ومنها انه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته • ومنها انه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه كذلك فهو يكتسي ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير والابريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هي في الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكمل وأجل وأبلغ في النعمة • ومنها ارادة تمييزه عن الحيوان في ملبسه كما ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه • ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحربه وسلمه وضعنه واقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق الا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل الى الاستبدال بها فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان

(فصل) ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلا فتخفى لقلتها بل قد قيل انها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه في الصحاري من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد ترى منها شيئاً ميتاً لا في كناسه ولا في أوكاره ولا في

مساقطه ولا فى مراعيه بطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه الا ما عدا عليه عاد اماافترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن احراز جسمه واخفاء جيفته فدل ذلك على انها اذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حيث لا يوصل الى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البين بها ولولا ذلك لامتلات الصحاري بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فماد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلا الى وقوع الوباء وقد دل على هذا قوله تعالى في قصة ابني آدم ﴿ فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين ﴾ وأما ماجعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب فلقدرة الانسان على نقله واحتياله فى دفع أذيته منع مما جعل في الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعاً فى البهائم وكيف تعلموه من الطير • وتأمل الحكمة في ارسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه وهو من الطيور التي تنفر منها الانس ومن نعيقها وتستوحش بها فارسل اليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم والمستند ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا بعثتم الى بريداً فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه وكان يسأل عن اسم الأرض اذا نزلها واسم الرسول اذا جاء اليه ولما جاءهم سهيل بن عمرو يوم الحديبية قال قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال لم يزل معني اسمه فيه وفى ذريته ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره انه جمرة بن شهاب وان داره بالحرقة وان مسكنه منها ذات لظى قال له أدرك بيتك فقد احترق فكان كما قال وشواهد هذا الباب أكبر من أن نذكرها هاهنا وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسميات وكثيراً ما أولع الناس قديماً وحديثاً بنعيق الغراب واستدلالهم به على البين والاغتراب وينسبونه الى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم فكان جديراً أن يرسل هذا الطائر الى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور فكأنه صورة طائره الذي ألزمه فى عنقه وطار عنه من عمله ولا تظن أن ارسال الغراب وقع اتفاقاً خالياً من الحكمة فانك اذا خفي عليك وجه الحكمة فلا تنكرها واعلم ان خفاءها من لطفها وشرفها ولله تعالى فيما يخفى وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة

﴿ فصل ﴾ ثم تأمل الحكمة الباهرة فى وجه الدابة كيف هو • فانك ترى العينين فيه

شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها ثم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها فتتقي أن تصدم حائطاً أو تتردى في حفرة فجعلت عيناها كعيني المنتصب القامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا في أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف اذ لو كان فوقها في مقدم الخطم كما انه من الانسان في مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئاً من الأرض ألا ترى الانسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقاً من أسفله لتضعه على العلف ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة وهي لها كالشفة للانسان لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد اليها وفيه منافع عديدة فمنها أنه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما ومنها ان بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذي الدابة فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد به ذلك ومنها ان الدابة تستريح الى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فانه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة وعسى أن يكون فيها حكم أخر تقصر عنها افهام الخلق ويزدريها السامع اذا عرضت عليه فانه لا يعرف موقعها الا في وقت الحاجة فمن ذلك ان الدابة تربض في الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها

(فصل) ثم تأمل شفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فانه يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وايرادها الى جوفه ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً من الأشياء من الأرض لانه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ليسدمسده وجعل قادراً على سد له ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمله ما أراد الى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به اذا شاء ويعطي ويتناول اذ أراد فسل المعطل من الذي عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذي منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرؤف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الاهمال وخلو العالم عن قيمه وبارئه ومبدعه وفاطره لا اله الا هو العزيز الحكيم (فان قلت) فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وما الحكمة في ذلك • قيل والله أعلم بحكمته في مصنوعاته لان رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ملصقاً بجسمه لئلا ينال منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير بحكمة

فى ذلك صغر رأسه بالنسبة الى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسبحان من فاتت حكمه عدّ العادين وحصر الحاصرين

(فصل) ثم تأمل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس ان لقاحها من فحول شتى وذكروا ان أصنافا من حيوان البر اذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المستوحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من أناس شتى وما أرى هذا القائل الا كاذباً عليها وعلى الخلقة اذ ليس فى الحيوان صنف يلقح صنفاً آخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقحهما ولا يلقحانه ولا الوحوش يلقح بعضها بعضاً ولا الطيور وانما يقع هذا نادراً فيما يتقارب كالبقر الوحشي والأهلي والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبع فيتولد من ذلك البغل والسِّمع والعسبار وقول الفقهاء هل تجب الزكاة في المتولد من الوحشي والأهلي فيه وجهان هذا انما يتصور في واحد واثنين وثلاثة يكمل بها النصاب فأما نصاب كله متولد من الوحشي والأهلي فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر فى الزكاة وجزاء الصيد والاضاحي والأحوط يتغلب في كل باب ففي الاضاحي يتغلب عدم الاجزاء وفي الاحرام والحرم يتغلب وجوب الجزاء وفي الأطعمة يتغلب جانب التحريم وفى الزكاة اختلاف مشهور • وسئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبلها فهل يكون لبن الفرس حلالا أوحراماً • فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل فى اللبن في هذا الموضع بخلاف الاناسي لأن لبن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم يسر وطء الفحل الي هذا اللبن فانه لاحرمة هناك تنتشر بخلاف لبن الفحل في الاناسي فانه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل الا الى الولد خاصة فانه يتكون منه ومن الأم فغلب عليه التحريم وأما اللبن فلم يتكون بوطئه وانما تكون من العلف فلم يكن حراماً هذا بسط كلامه وتقريره والمقصود ابطال زعم ان هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها بعضاً عند الموارد فتتكون الزرافة وانه كاذب عليها وعلى الابداع والذي يدل على كذبه انه ليس الخارج من بين ماذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والمعز عضو من كل واحد من أبيه وامه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كما نشاهده فى البغل فانك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسعفاً بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيجه كالممتزج من

صهيل الفرس ونهيق الحمار فهـذا يدل على ان الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية ودلالة على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء ليرى عباده انه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء • فنها المتشابه الخلقة المتناسب الأعضاء • ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الانسان على الأقسام الأربعـة الدالة على انه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها فنه ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الانساني • ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى وهي أمهم التى خلقت من ضلع آدم • ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم • ومنـه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الانسانى فيرى عباده آياته ويتعرف اليهم بآلائه وقدرته وأنه اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون • وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتنون بحالها ومساكنها فى غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا فاعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ما وصلت اليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه

(فصـل) ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة والحيلة فى جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فانك ترى في ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل اذا أرادت احراز القوت خرجت من اسرابها طالبة له فاذا ظفرت به أخـذت طريقاً من اسرابها اليـه وشرعت فى نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله الى بيوتها سرباً ذاهباً ورفقة خارجة من بيوتها اليـه لا تخالط تلك في طريقها بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين فى طريق والجماعة الراجعين من جنبهم فاذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه فاذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه الى بيتها وخلوا بينها وبينه وان كان الذى صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقسمنه على باب البيت • ولقـد أخبر بعض العارفين انه شهد منهن يوماً عجباً قال رأيت نملة جاءت الى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال فرفعت ذلك الشق من الأرض فلما وصلت النملة برفقتها الى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدنـ شيئاً فرجعن فوضعته ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيـد ثم جاءت بهن فرفعته فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئاً فذهبن فوضعته فعادت فجاءت بهن فرفعته فدرن حول المكان فلما لم يجدن

شيئاً تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة فى وسطها ثم تحامان عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا أنظر • ومن عجيب أمر الفطنة فيها اذا نقلت الحب الى مساكنها كسرته لئلا ينبت فان كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا فاذا أصابه ندأ وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده الى بيوتها ولهذا ترى في بعض الأحيان حباً كثيراً على أبواب مساكنها مكسراً ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ومن فطنتها انها لاتتخذ قريتها الا على نشز من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل فى بطن واد ولكن فى أعلاه وما ارتفع عن السيل منه ويكفي فى فطنتها مانص الله عزوجل فى كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب فى هذه النصيحة • النداء • والتنبيه • والتسمية • والأمر • والنص • والتحذير • والتخصيص • والتفهيم • والتعميم • والاعتذار • فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكا منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله اليه من أجل ان لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة

(فصل) ومن عجيب الفطنة في الحيوان ان الثعلب اذا أعوزه الطعام ولم يجد صيداً تماوت ونفخ بطنه حتي يحسبه الطير ميتاً فيقع عليه ليأكل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه • ومن عجيب الفطنة فى هذه الذبابة الكبيرة التى تسمي أسد الذباب فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه يسكن ملياً حتى كأنه موات لا حراك فيه فاذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيباً رفيقاً حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه • ومن عجيب حيل العنكبوت انه ينسج تلك الشبكة شركا للصيد ثم يكمن في جوفها فاذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه فهذا يحكى صيد الاشراك والشباك والأول يحكي صيد الكلاب والفهود ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فان المعني المفيس يقتبس من الشيء الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استكبرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأنزل الله تعالى (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) فما أغزر الحِكَم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على

الخالق ولطفه ورحمته وحكمته فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة فأغناها ما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير

(فصـل) ثم تأمل جسم الطائر وخلقته فانه حين قدر بان يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعاً ثم خلق ذا جؤجؤ محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيـه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسى جسـمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ولمـا قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقته الاسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ولما عدم الاسنان وكان يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الانسان صحيحاً وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لئلا يثقل عن الطيران فانه لو كان مما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو ألهم صبر نفسه أسبوعاً أو أسبوعين باختياره قاعـداً على بيضه حاضناً له ويحتمل مشقة الحبس ثم اذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ويزق فراخه وليس بذي روية ولا فكرة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الانسان في ولده من العون والرفد وبقاء الذكر فهذا من فعله يشهد بانه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه

(فصل) ثم تأمل خلقة البيضة وما فيها من المخ الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذى منه الى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فانه لما كان نشوء الفرخ في تلك البشرة المستحصفة التي لا نفاذ فيها لتوصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكتفي به الى خروجه

(فصل) وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر وما قدرت له فان في مسلك الطعام الى القابضة ضيق لا ينفذ فيه الطعام الا قليلا فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى

تصل الأولى الى جوفه لطال ذلك عليه فتى كان يستوفي طعامه وانما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعي فيها ما ازدرد من الطعم بسرعة ثم ينقل الى القابضة على مهل وفى الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فان من الطير ما يحتاج الى ان يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب ليسهل عليه

(فصل) ثم تأمل هذه الألوان والاصباغ والوشي التي تراها فى كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم فتأمل ريش الطاووس كيف هو فانك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رفاع جدا قد ألف بعضها الى بعض كتأليف الخيط الى الخيط بل الشعرة الى الشعرة ثم ترى النسج اذا مددته ينفتح قليلاً قليلاً ولا ينشق ليتداخله الهواء فينقل الطائر اذا طار فترى فى وسط الريشة عموداً غليظاً متينا قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي تكون فى وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر فأي طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللطف ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون لكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فانه لم يكن ذلك لها من نفسها بل انما هو لها ممن خالقها وأبدعها فما كذب به المعطل هو أحد البراهين والآيات التى على مثلها يزداد ايمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء

(فصل) تأمل هذا الطائر الطويل الساقين واعرف المنفعة في طول ساقيه فانه يرعى اكثر مرعاه فى ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه دست فوق مركب ويتأمل مادب في الماء فاذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطواً رفيقاً حتى يتناوله ولو كان قصير القائمتين كان اذا خطا نحو الصيد ليأخذه لصق بطنه بالماء فيثيره ويذعر الصيد منه فيفر فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطالبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق ليمكنه تناول الطعم من الارض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يمكنه ان يتناول شيئاً من الارض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وامكاناً ٠٠ ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً معداً بل تناله بالحركة والطلب فى الجهات والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها اذا التمسته ويفوتها اذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه فى كل

حين وأوان بكل أرض ومكان حتي من الجدران والاسطحة والسقوف تناوله بالهوينا من السعي فلا يشاركها فيه غير بني جنسها من الطير ولو كان ما تقتات به يوجد معداً مجموعا كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه وكذلك لو وجدته معدّا مجموعا لأكبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وان شبعت حتى تبشم وتهلك وكذلك الناس لو جعل طعامهم معداً لهم بغير سعي ولا تعب أدى ذلك الى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغى في الارض فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً (وانظر) في هذه الطير التى لاتخرج الا بالليل كالبوم والهام والخفاش فان أقواتها هيئت لها في الجوّ لامن الحب ولامن اللحم بل من البعوض والفراش وأشباههما مما تلقطه من الجوّ فتأخذ منه بقدر الحاجة ثم تأوى الى بيوتها فلا تخرج الى مثل ذلك الوقت بالليل وذلك ان هذه الضروب من البعوض والفراش وأشباههما مبثوثة في الجوّ لايكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن تضع سراجا بالليل فى سطح أوعرصةالدار فيجتمع عليه من هـذا الضرب شيءٌ كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس فى الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منـه فاذا أتى النهار انقطعت الى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليـل غيرها ومع ذلك فساق لهـا الذي تكفل بارزاق الخلق رزقها وخلقه لها فى الجوّ ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها وهـذه احدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكم فيها من رزق لامة تسـبح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر الى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول الى ان شهدت بربوبيته وقـدرته وعلمه وحكمتـه وان ذلك الذي تشاهـده ليس باتفاق ولا باهمال من سرّ وجوه الادلة التى لا تمكن الفطر من جحدها أصلا واذ قد جرى الكلام الى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلقـة بين خلقة الطيور وذوات الاربع وهو الى ذوات الاربع أقرب فانه ذواذنين ناشزتين واسنانودبر وهو يلد ولدا ويرضع ويمشي على أربع وكل هـذه صفة ذوات الاربع وله جناحان يطير بهـما مع الطيور ومـا كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غـيره فاذا ذهبت الشمس انتشر ومن ذلك سمي ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولـما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التى لا تطير الا بالليل • وقد زعم بعض من تكلم فى الحيوان انه ليس بطعم شيئاً وانما

غـذاؤه من النسيم البارد فقط وهـذا كذب عليه وعلى الخلقة لانه يبول وقد تكلم الفقهاء فى بوله هـل هو نجس لانه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قولين هما روايتان عن أحمد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا أقيس الاقوال اذ لانص فيـه ولا يصح قياسه على الابوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع استيفاء الحجج فى هذه المسئلة من الجانبين • والمقصود انه لو كان لايأكل شيئاً لم يكن له أسنان اذ لامعنى للاسنان في حق من لايأكل شيئاً ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الاكل لم يعط الاسنان فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالاسنان التى تقطعه والاضراس التي تطحنه وليس في الخليقة شئ مهمل ولاعن الحكمة بمعطل ولا شئ لامعنى له واما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الاطباء في كتبهم ما انتهت اليه معرفتهم حتى ان بوله يدخل فى بعض الاكحال فاذا كان بوله الذى لايخطر بالبال فيه منفعة البتة فما الظن بجماته ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقه انه رأي رخلا وهو طائر معروف قد عشش فى شجرة فنظر الى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه فاتحة فاها لتبتلعه فبينما هو يضطرب فى حيلة النجاة منها اذ وجد حسكة فى العش فحملها فألقاها في فم الحية فلم تزل تالتوي حتى ماتت

(فصل) ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات فانظر اليها والى اجتهادها في صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هى من أتم الاشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعاً فاذا انضم بعضها الى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار وتلك من أثر صنع الله والهامه اياها وايحائه اليها كما قال تعالى ﴿ وأوحي ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ﴾ الى قوله ﴿لآيات لقوم يتفكرون﴾ فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لامر ربها اتخذت بيوتها فى هذه الامكنة الثلاثة فى الجبال الشقفان وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون أي يبنون العروس وهي البيوت فلا يري للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة • وتأمل كيف أكثر بيوتها فى الجبال والشقفان وهو البيت المقدم فى الآية ثم في الاشجار وهى من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما فى الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جداً وتأمل كيف أداها حسن الامتثال الي ان اتخذت البيوت أولا فاذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت الى بيوتها لان ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا ثم بالاكل بعد ذلك ثم اذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لايستوعر عليها شئ ترعى ثم تعود • ومن عجيب شأنها ان لها

أميراً يسمي اليعسوب لايتم لها رواح ولا اياب ولا عمل ولا مرعى الا به فهي مؤتمرة لامره سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهي وهي رعية له منقادة لامره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى انها اذا آوت الى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الاخرى ولا تتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم كما يفعل الامير اذا انتهى بعسكره الى معبر ضيق لايجوزه الا واحد واحد ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل الى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم ان هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها فان هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام والاتقان فاذا نظرت الى العامل رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلاً عما يصدر عنه من الامور العجيبة • ومن عجيب أمرها ان فيها أميرين لايجتمعان في بيت واحد ولايتأمران على جمع واحد بل اذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الاميرين وقطعوه واتفقوا على الامير الواحد من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يداً واحدة وجنداً واحداً

(فصل) ومن أعجب أمرها ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه وهو النتاج الذي يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وانما نتاجها بأمر من أعجب العجيب فانها اذا ذهبت الى المرعى أخذت تلك الاجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهي الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم انها تكبس الاجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئاً منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة باذن الله عزوجل فتتحرك وتخرج طيوراً باذن الله وتلك احدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الالهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج فسل المعطل من الذي أوحى اليها أمرها وجعل مجعل في طبعها ومن الذي سهل لها سبله ذللا منقادة لاتستعصي عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها ومن الذي هداها لشأنها ومن الذي أنزل لها من الطل ما اذا جنته ردته عسلا صافياً مختلف ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه وجهه أعظم من رؤيته في المرآة ومنه لي من جاء به وقال هذا أنضر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فاذا طعمه ...

شيء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد واسود وأشقر وغير ذلك من الالوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها واذا تأملت مافيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الادوية حتى كان المتقدمون لايعرفون السكر ولا هو مذكور في كتبهم أصلا وانما كان الذي يستعملونه في الادوية هو العسل وهو المذكور في كتب القوم ولعمر الله انه لانفع من السكر وأجدى وأجلى للاخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحاً للنفس وتقوية للارواح وتنفيذاً للدواء واعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلا ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة اليه وانما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلموا ان من منافع العسل مافيه من الحدة والحرارة فاذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرد ان شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لاتمنع وبراهين كثيرة لاتدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغماً ويذيب خلطا أو يشفي من داء وانما غايته بعض التنفيذ للدواء الى العروق للطافته وحلاوته وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيرا من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته ولا ريب ان كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء وذكر الله والاقبال عليه شفاء أمر لايعم الطبائع والأنفس فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به بل لايزيد الطبائع الرديئة الا رداءة ولايزيد الظالمين الا خساراً وكذلك ذكر الله والاقبال عليه والانابة اليه والفزع الى الصلاة كم قد شفي به من عليل وكم قد عوفي به من مريض وكم قام مقام كثير من الادوية التي لاتبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لانصيب لهم من الشفاء بذلك أصلا ولقد رأيت في بعض كتب الاطباء المسلمين في ذكر الادوية المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب • وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب أضرما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال ألستم تزعمون أن النفس اذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فانه عدوها فاذا قويت عليه قهرته فقال له الطبيب بلى فقال اذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فاوجب ذلك

دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام • والمقصود ان ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لايخرجه عن كونه شفاء كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لايخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما فى الصدور وان لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى ﴿ ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفي به أو لم يستشف به ولم يصف الله فى كتابه بالشفاء الا القرآن والعسل فهما الشفاآن هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للابدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها • ولقد أصابني أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمراً عجيباً وتأمل اخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بانه نفسه شفاء وقال عن العسل (فيه شفاء للناس) وماكان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه

(فصل) ثم تأمل العبرة التى ذكرها الله عز وجل فى الانعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها الى المعدة فينقلب بعضه دما باذن الله وما يسرى فى عروقها وأعضائها وشعورها ولحومها فاذا أرسلته العروق فى مجاريها الى جملة الاجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر الى طبيعته ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له اذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثفله الى الكرش فيصير زبلا ثم ينقلب باقيه لبنا صافياً أبيض سائغاً للشاربين فيخرج من بين الفرث والدم حتى اذا أنهكت الشاة أوغيرها حلبا خرج الدم مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الالطف من الثفل بالطبخ الاول فانفصل الي الكبد وصار دما وكان مخلوطا بالاخلاط الاربعة فاذهب الله عز وجل كل خلط منها الى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة والطحال والكلية وباقى الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد فينصب من تلك العروق الى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه الى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم فسل المعطل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير

(فصل) ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته وانه خلق غير ذى قوائم لانه لايحتاج الى المشي اذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لان منفعة الرئة التنفس والسمك

لم يحتج اليه لانه ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسى جلده قشوراً متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لان بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر فى بعض كتب الحيوان أن من فيه الي صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بانفه ثم يرسله ليتروح به فان الماء للحيولن البحرى كالهواء للحيوان البرى فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره الي البحر الآخر مات فكما يختنق الحيوان البرى فى الماء يختنق الحيوان البحرى في الهواء فسبحان من لايحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل ان علموا فيها وجهاً جهلوا منها أوجهاً فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلا ولهذا ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة (وحكمة ذلك) ان يتسع لما يغتذى به من أصناف الحيوان فان أكثرها يأكل السمك حتى السباع لانها فى حافات الآجام جاثمة تعكف على الماء الصافى فاذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسماك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الاصناف اقتضت حكمته ان يكون بهذه الكثرة ولو رأى العبد ما فى البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والاصناف التي لايحصيها الا الله ولا يعرف الناس منها الا الشيء القليل الذى لا نسبة له أصلا الى ماغاب عنهم لرأي العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التى لا يعلمها الا هو (وهذا الجراد) نثرة حوت[1] من حيتان البحر ينثره من منخريه وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات فاذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جنداً لامرد له ولا يحصى منه عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده ما أمكنه ذلك فانظر كيف ينساب على الارض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتي يستر نور الشمس بكثرته ويسد

(١) — (قوله نثرة حوت الخ) فى هامش الاصل بخط بعض الفضلاء مانصه ليس كذلك بل المراد من كونه نثرة حوت اتحاد حكمها فى حل أكل ميتتهما كما صرح بذلك شراح الحديث اه وهو مقبول اه مصححه

وجه السماء بأجنحته ويبلغ من الجو الى حيث لايبلغ طائراً كبر جناحين منه فسل المعطل من الذى بعث هذا الجند الضعيف الذى لايستطيع ان يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقدرون باجمعهم على دفعه بل ينظرون اليه يستبد باقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الارض قفراً منها وهم لايستطيعون ان يردوه ولا يحولوا بينه وبينها وهذا من حكمته سبحانه ان يسلط الضعيف من خلقه الذى لامؤنة له على القوى فينتقم به منه وينزل به ماكان يحذره منه حتى لايستطيع لذلك رداً ولا صرفا قال الله تعالى ﴿ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ فواحسرتاه على استقامة مع الله وايثار لمرضاته فى كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه انه أولى بالله ورسوله منه ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم ان يأكل الظالم الباغى ويتمتع فى خفارة ذنوب المظلوم المبغى عليه فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة فى حق ظالمه كما ان المسؤل اذا رد السائل فهو في خفارة كذبه ولو صدق السائل لما أفلح من رده وكذلك السارق وقاطع الطريق فى خفارة منع أصحاب الاموال حقوق الله فيها ولو أدوا مالله عليهم فيها لحفظها الله عليهم وهذا أيضاً باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له فى كل شئ حكمة بالغة وآية باهرة حتى ان الحيوانات العادية على الناس فى أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش فى خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شئ ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة فانه اذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جداً والله الموفق • ويحكى ان بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على انه خالص فارسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فاتي في منامه فقيل له أتعجب من أخذ السيل غنمك انه تلك القطرات التى شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلا فقس على هذه الحكاية ماتراه في نفسك وفي غيرك تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وانه قائم على كل نفس بما كسبت وانه لايظلم مثقال ذرة • والأثر الاسرائيلى معروف ان رجلا كان يشوب الخمر ويبيعه على انه خالص فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرد له فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به الى أعلى المركب ثم فتحه فجعل يلقيه ديناراً فى الماء وديناراً في المركب كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار الى الماء ولم يظلمك • وتأمل حكمة الله عز وجل

في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط اذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ماللمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال لهم بلسان الحال منعتم الحق فمنعتم الغيث فهلا استنزلتموه ببذل مالله قبلكم • وتأمل حكمة الله تعالي في صرفه الهدى والايمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصدهم عنه كما صدوا عباده صداً بصد ومنعاً بمنع • وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا جوزوا اتلافا باتلاف فقل ان ترى مرابياً الا وآخرته الى محق وقلة وحاجة • وتأمل حكمته تعالى فى تسليط العدو على العباد اذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا الى أن تطوى الارض ويعيدها كما بدأها • وتأمل حكمته تعالى فى أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت فى صور ولاتهم وملوكهم فان استقاموا استقامت ملوكهم وان عدلوا عدلت عليهم وان جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وان ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وان منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم مالهم عندهم من الحق وبخلوا بهاعليهم وان أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه فى معاملتهم أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت فى صور أعمالهم وليس فى الحكمة الالهية أن يولي على الاشرار الفجار الا من يكون من جنسهم ولما كان الصدر الاول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شابت لهم الولاة فحكمة الله تأبى أن يولى علينا فى مثل هذه الازمان مثل معاوية وعمر ابن عبد العزيز فضلا عن مثل أبي بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم وكل من الامرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له فطنة اذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الالهية سائرة فى القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والامر سوء فاياك أن تظن بظنك الفاسد ان شيئاً من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أقضيته تعالى واقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن ادراكها كما أن الابصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف اذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما ان الخفاش اذا صادفه ظلام الليل طار وسار

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى فى عقوبات الامم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم * الى قوله يظلمون) وتأمل حكمته تعالى فى مسخ من مسخ من الامم فى صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم فانها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات واخلاقها واعمالها ثم ان كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وان كانت مستورة بصورة الانسانية فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لاعقول لهم بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكراً وخداعا وفسقاً فان لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين واقرأ نسخة الخنازير من صور اشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فان هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه فان الخنزير أخبث الحيوانات واردؤها طباعا ومن خاصيته انه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الانسان عن رجيعه فيبادر اليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لاعداء الصحابة كيف تجده منطبقاً عليهم فانهم عمدوا الي أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤا منهم ثم والوا كل عدولهم من النصارى واليهود والمشركين فاستعانوا فى كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير منهم فأى شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير فان لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين. واما الاخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيراً فأكثر من أن تذكر ههنا وقد أفرد لها الحافظ ابن عبد الواحد المقدسي كتاباً وتأمل حكمته تعالى فى عذابه الامم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعماراً وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسوله فلما تقاصرت الاعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدى المؤمنين فكانت الحكمة في كل واحد من الامرين ما اقتضته في وقته وتأمل حكمته تبارك وتعالى فى ارسال الرسل فى الامم واحداً بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها الى تتابع الرسل والانبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة الي محمد بن عبد الله

رسول الله ونبيه أرسله الى أكمل الامم عقولا ومعارف وأصحها أذهانا وأغزرها علوما وبعثه بأكمل شريعة ظهرت فى الارض منذ قامت الدنيا الى حين مبعثه فأغنى الله لأمة بكمال رسولها وكمال شريعته وكمال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلهم بها حتي يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها في قلوب اشباههم فلم يحتاجوا معه الي رسول آخر ولا نبي ولا محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم انه قد كان قبلكم فى الامم محدثون فان يكن في أمتي أحد فعمر فجزم بوجود المحدثين فى الامم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس هذا بنقصان فى الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فانها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لاتحتاج الي محدث بل ان وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد لا انه عمدة لانها فى غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو الهام أو تحديث وأما من قبلها فللحاجة الى ذلك جعل فيهم المحدثون • ولا تظن ان تخصيص عمر رضي الله عنه بهذا تفضيل له على أبى بكر الصديق بل هذا من أقوى مناقب الصديق فانه لكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدي الرسالة استغني بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره فالذى يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذى يتلقاه عمر من التحديث فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة وتأمل مافيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بانه الحكيم الخبير وان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل خلقه وأكملهم شريعة وان أمته أكمل الامم وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الاطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والامثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه الي الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة الا بالله العلي العظيم

﴿ فصل ﴾ فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذى دبرك بألطف التدبير وأنت جنين فى بطن أمك في موضع لايد تنالك ولا بصر يدركك ولا حيلة لك فى التماس الغذاء ولا فى دفع الضرر فمن الذي أجري اليك من دم الام مايغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى اذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الايدى والتقلب على الغبراء هاج الطلق بامك فازعجك الى الخروج أيما ازعاج الي عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيابعد مابين ذلك القبول والاشتمال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرد والاخراج وكان مبتهجا بحملك فصار

يستغيث ويعج الي ربك من ثقلك فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتي خرجت منه كلمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه فلو تأملت حالك فى دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب فمن الذى أوحي اليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتي لاتفسد هناك وأوحى اليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سالما الى ان خرجت فريداً وحيداً ضعيفاً لاقشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم فصرف ذلك اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك الى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك فى بطنها ثم ساقه الي ثينك الخزانتين ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفاً فى طرقه ومجاريه حتى تستوفي مافي الخزانة فيجرى وينساق اليك فهو بئر لاتنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها اليك في طرق لايهتدى اليها الطواف ولا يسلكها الرجال فمن رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه أعدل إحكام لابالحار المؤذى ولا بالبارد الردى ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه الي ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ماكان فى البطن فوافاك في أشد أوقات الحاجة اليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالاداوة قد تدلى اليك وأقبل بدره عليك ثم جعل في رأسه تلك الحلمة التى هي بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ولا تتعب بالتقامها ثم نقب لك فى رأسها نقباً لطيفا بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الام ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون فى أهنأ مايكون من شأنها وراحتها ومقيلها فاذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قمت اليك وآثرتك على نفسها على عدد الانفس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق الا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل مايؤلمك بجسمها وانه لم يطرقك منه شيء وان حياتها تزاد فى حياتك فمن الذى وضع ذلك فى قلبها حتى اذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت الى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك وضع في فيك آلة القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفا بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك واحسانا اليك ولطفا بك فلو انك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كان حال

أمك بك ولو انك منعتها وقت الحاجة اليها كيف كان حالك بهذه الاطعمة التي لاتسيغها الا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازددت قوة وحاجة الى الاسنان في أكل المطاعم المختلفة زيد لك في تلك الالات حتى تنتهي الى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ثم اذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهي الى الطواحين التي هي آخر الاضراس فمن الذى ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ثم انه اقتضت حكمته ان أخرجك من بطن أمك لاتعلم شيئاً بل غبيا لاعقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فانك على ضعفك لاتحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئاً فشيئاً فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيراً يسيراً حتى يتكامل فيك واعتبر ذلك بان الطفل اذا سبي صغيراً من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فانه لايؤلمه ذلك وكلما كان أقرب الى العقل كان شق عليه وأصعب حتى اذا كان عاقلا فلا تراه الا كالواله الحيران ثم لو ولدت عاقلا فهيما كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لانك ترى نفسك محمولا رضيعا معصباً بالخرق مربطا بالقمط مسجونا في المهد عاجزاً ضعيفاً عما يحاوله الكبير فكيف كان يكون عيشك مع تفلقك التام في هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك مايوجد للمولود الطفل بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولا وكان دخولك هذا العالم وأنت غبي لاتعقل شيئاً ولا تعلم مافيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلاقي الاشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لايزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئاً فشيئاً حتى تألف الاشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والاتقان لها وفى ذلك وجوه أخر من الحكمة غير ماذكرناه فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات في وقت حاجتك لايقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم انه أعطاك الاظفار وقت حاجتك اليها لمنافع شتى فانها تعين الاصابع وتقويها فان أكثر العمل لما كان برؤس الاصابع وعليها الاعتماد أعينت بالاظافر قوة لها مع مافيها من منفعة حك الجسم وقشط الاذى الذى لايخرج باللحم عنه الى غير ذلك من فوائدها ثم جملك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد اذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمره العقل تنتهي اليه ثم خص الذكر من جمال وجهه باللحية وتوابعها وقاراً وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا وفرقا بينه وبين الاناث وبقيت الانثى على

حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فتبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد فمن الذى أعطي الذكر الذكورية والانثى الانوثية ولا تلتفت الى مايقوله الجهلة من الطبائعيين فى سبب الاذكار والايناث واحالة ذلك على الامور الطبيعية التى لاتكاد تصدق في هذا الموضع الا اتفاقا وكذبها أكثر من صدقها وليس استناد الاذكار والايناث الا الى محض المرسوم الالهي الذي يلقيه الى ملك التصوير حين يقول يارب ذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق فما الاجل فيوحي ربك مايشاء ويكتب الملك فاذا كان للطبيعة تأثير في الاذكار والايناث فلها تأثير فى الرزق والاجل والشقاوة والسعادة والا فلا اذ مخرج الجميع مايوحيه الله الى الملك ونحن لاننكر ان لذلك أسبابا أخر ولكن تلك من الاسباب التي استأثر الله بها دون البشر قال الله تعالي ﴿ لله ملك السموات والارض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور﴾ الى قوله قدير فذكر أصناف النساء الاربعة مع الرجل • أحدها من تلد الاناث فقط • الثانية من تلد الذكور فقط • الثالثة من تلد الزوجين الذكر والانثي وهو معنى التزويج هنا ان يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى • الرابعة العقيم التى لاتلد أصلا • ومما يدل على ان سبب الاذكار والايناث لايعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وانما يعلم بالوحي ما روي مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال السلام عليك يامحمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعني فقلت ألا تقول يارسول الله فقال اليهودي انما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اسمي محمد الذى سماني به أهلي قال اليهودي جئت أسألك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أينفعك شيء ان حدثتك قال أسمع باذني فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال سل فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم فى الظلمة دون الجسر قال فمن أول الناس اجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد حوت قال فما غذاؤهم على أثرها قال ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين تسمى سلسبيلا قال صدقت وجئت أسألك عن شيء لايعلمه الا نبي أو رجل أو رجلان قال ينفعك ان حدثتك قال أسمع باذني قال جئت أسألك عن الولد قال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا باذن

الله وان علا منى المرأة منى الرجل أنثيَ باذن الله قال اليهودى لقد صدقت وانك لنبي ثم انصرف فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم لقد سألني عن هذا الذى سألنى عنه ومالى علم به حتي أتاني الله به والذى دل عليه العقل والنقل ان الجنين يخلق من الماءين جميعاً فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هى تنزل ماءها الى حيث ينتهي ماؤه فيلتقى الماآن على أمر قد قدره الله وشاءه فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه فقال انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي قال ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شئ ينزع الولد الى أبيه ومن أي شئ ينزع الى أخواله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنيبهن آنفاً جبريل فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله صلى اللهعليه وسلم أما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه في الولد فان الرجل اذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وان سبقت كان الشبه لها فقال أشهد أنك رسول الله وذكر الحديث وفى الصحيحين عن أم سلمة قالت يارسول الله ان الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل اذا هي احتلمت قال نعم اذا رأت الماء الاصفر فضحكت أم سلمة فقالت أو تحتلم المرأة فقال رسول اللهصلى الله عليه وسلم فبم يشبهها الولد فهذه الاحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين وأن الاذكار والايناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه وان الشبه يكون بالسبق فمن سبق ماؤه الى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم الا بالوحي وليس فى صناعتهم أيضاً ما ينافيها على ان فى النفس من حديث ثوبان ما فيها وانه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي وأن يكون السؤال انما وقع فيه عن الشبه لا عن الاذكار والايناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام ولذلك لم يخرجه البخارى وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر بن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله وكل بالرحم ملكاً فيقول يا رب نطفة يارب علقة يارب مضغة فاذا أراد أن يخلقها قال يارب أذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب كذلك فى بطن أمه أفلا ترى كيف أحال بالاذكار والايناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والاجل ولم يتعرض الملك لكتبه الذي للطبيعة فيه مدخل أولا ترى عبد الله ابن سلام لم يسأل الا عن الشبه الذى يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الاذكار والايناث

مع انه أبلغ من الشبه والله أعلم وان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقـدير فهو يبطل مازعمه بعض الطبائعيين من معرفه أسباب الاذكار والايناث والله أعلم

﴿ فصل ﴾ فانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والانثى جميعاً على وفق الحكمة فجعلت فى حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المني الى قعر الرحم بمـنزلة من يتناول غيره شيئاً فهو يمد يده اليه حتى يوصله اياه ولانه يحتاج الى أن يقذف ماءه في قعر الرحم وأما الانثى فجعل لها وعاء مجوف لانها تحتاج الى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ثم لما كان ماء الرجل يحدر من أجزاء الجسد رقيقاً ضعيفا لايخلق منه الولد جعل له الانثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلا لان يكون مبدأ للتخليق ولم تحتج المرأة الى ذلك لان رقة مائها ولطافتـه اذا مازج غلظ ماء الرجل وشدته قوى به واستحكم ولو كان لما آن رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحِكَم منها ان حرارته أقوى والانثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وانضاجه فيها ومنها ان ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها الى محله • ومنها انها لما كانت محلا للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لهـا اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه

﴿ فصل ﴾ فارجع الآن الى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للارب والمنفعة المهيأة لها فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والاعطاء والمحاربة والدفع والرجلان لحمل البدن والسعي والركوب وانتصاب القامة والعينان للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما فى السموات والارض وآياتهما وعجائبهما والفم للغذاء والكلام والجمال وغيرذلك والانف للنفس واخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه واللسان للبيان والترجمة عنك والاذنان صاحبتا الاخبار تؤديها اليك واللسان يبلغ عنك والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه اصلاحاً آخر وطبخاً آخر غيرالاصلاح والطبخ الذي توليته من خارج فأنت تعني بانضاجه وطبخه واصلاحه حتى تظن انه قد كمل وانه قد استغنى عن طبخ آخر وانضاج آخر وطبخه لدخل ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي اليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليـه نيراناً تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهي في أعصب موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهي أشد حرارة من النار والا فما يذيب هذه الاطعمة الغليظة الشديدة جداً حتى يجعلها

ماء ذائباً وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء وألطفه ثم رتب منها مجاري وطرقا يسوق بها الغذاء الى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنازل والابواب لادخال ما ينفعك واخراج ما يضرك وجعل الاوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك فهذه خزانة للطعام وهذه خزانة للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الاخر فجعل خزائن للمرة السوداء وأخرى للمرة الصفراء وأخرى للبول وأخرى للمني فتأمل حال الطعام فى وصوله الي المعدة وكيف يسري منها فى البدن فانه اذ استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه الى الكبد فى مجار دقاق وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاء رقيقا كالمصفاة الضيقة الابخاش تصفيه فلا يصل الى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها لان الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فاذا قبلته الكبد أنفذته الي البدن كله في مجار مهيأة له بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك فى الارض فيعمها بالسقي ثم يبعث ما بقي من الخبث والفضول الى مغايض ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به الى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به الي الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به الى المثانة فمن ذا الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت اخبريني عن هذه الطبيعة أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الافعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فان قالت لك بل هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والارادة والحكمة فقل لها هـذا هو الخالق البارئ المصور لم تسمينه طبيعة ويالله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت فى جملة العقلاء والسعداء فان هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى وان قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر الى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا ارادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا ما لا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الافعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا الا دخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم ان مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لها فمن ربها ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهي اذاً من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك

لصفاته وأفعاله الا خالفتك العقل والفطرة ولو حاكمناك الى الطبيعة لرأيناك أنك خارج عن موجبها فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الانسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا فان رجعت الى العقل وقلت لا يوجد حكمة الا من حكيم قادر عليم ولا تدبير متقن الا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده قيل لك فاذا أقررت ويحك بالخلاق العظيم الذي لا اله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أو عقلا فعالا أو موجباً بذاته وقل هذا هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين وقيوم السموات والارضين ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شئ خلقه وأتقن ما صنع فمالك جحدت أسماءه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه الى غيره وخلقه الي سواه مع انك مضطر الي الاقرار به واضافة الابداع والخلق والربوبية والتدبير اليه ولا بد والحمد لله رب العالمين على انك لو تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لدلك على الخالق البارئ لفظها كما دل العقول عليه معناها لان طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أي مطبوعة ولا يحتمل غير هذا البتة لانها على بناء الغرائز التي ركبت في الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهي التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على البارى تعالى كما دل معناها عليه والمسلمون يقولون ان الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهي سنته فى خليقته التي أجراها عليه ثم انه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تأثيرها اذا أراد ويقلب تأثيرها الى ضده اذا شاء ليري عباده أنه وحده الخالق البارئ المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء (وانما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وان الطبيعة التى انتهى نظر الخفافيش اليها انما هى خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف يحسن بمن له حظ من انسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والابداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها الى ضد ما جعلت له حتى يري عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره (ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين)

(فصل) فأعد النظر فى نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير فى تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر فى البدن فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة فى نميتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ولو ان صائغاً أخذ تمثالا من ذهب أو فضة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك الا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى والرب تعالى ينمي جسم الطفل وأعضاءه الظاهرة والباطنة وجميع

أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزايل ولا ينفك ولا ينقص • وأعجب من هذا كله تصويره في الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل اليه الآلات فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الاحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع الى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفي الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين وما كرر عليك في كتابه مبدأ خلقك واعادته ودعاك الى التفكر فيه الا لما بك من العبرة والمعرفة ولا تستطل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فان الحاجة اليه ماسة والمنفعة عظيمة فانظر الى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنتصب قائماً وتستوي جالساً وتستقبل الأشياء ببدنك وتقبل عليها بجملتك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجوهها لم يظهر لك فضيلة تميز واختصاص ولم يتهيأ منك ما تهيأ من هذه النسبة

﴿ فصل ﴾ قال الله تعالى ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم الآية ﴾ فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل في الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن (فتبارك الله أحسن الخالقين) فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والافلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته واصلاح رواتب أقواته والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل ما فيه كما قال تعالى ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ الى قوله يتفكرون وقال تعالى ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ الى قوله كفار فالساتر في معرفة آلاء الله وتأمل

حكمته وبديع صفاته أطول باعاً وأملأ صواعاً من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضياً بعيش بني جنسه لا يرضى لنفسه الا أن يكون واحداً منهم يقول لي اسوة بهم * وهل أنا الا من ربيعة أو مضر * وليست نفائس البضائع الا لمن امتطي غارب الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالآياب فاستلان مااستوعره البطالون وأنس بما استوحش منه الجاهلون

(فصل) فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر الى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ولم تجعل في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها فالرأس صومعة الحواس . ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقى خمسا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات واللمس في مقابلة الملموسات فأي محسوس بقي بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ما عداها انما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخماس التي جرت على ألسنة العامة والخاصة حيث يقولون المفكر المتأمل . ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته الست وأرادوا بذلك أنه جدبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره

(فصل) ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في احساسها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئاً . وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقيها الى الأذن فتحويه ثم تقلبه الى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئاً . وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها اليها فتدركها ولولا هو لم تشم شيئاً . وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف لانه كان يحيل تلك الطعوم الى طعمه ولا يحصل به مقصوده . وأعينت حاسة اللمس بقوة

جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج الى شئ من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لانها انما تدركها بالاجتماع والملامسة فلم تحتج الى واسطة

(فصل) ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل فى أموره فانه لايعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر فى عجائب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوي فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدوّ يهوي نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب ان طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فانه بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله ثوابه اذا صبر واحتسب الجنة ومن كمال لطفه ان عكس نور بصره الى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدساً وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن انه مغموم حزين متأسف هذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية الى البلية فالمحنة عليه شديدة لانه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائى والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر • وكذلك من عدم السمع فانه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحى كميت وقريب كبعيد • وقد اختلف النظار في أيهما أقرب الى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطروش وذكروا فى ذلك وجوهاً وهذا مبنى على أصل آخر وهو أى الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق فى ذلك فأى الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى • والذى يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضرراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضرراً في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة فانه اذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره فى دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن فى الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقل ان يبتلي الله أولياءه بالطرش ويبتلي كثيراً منهم بالعمى فهذا فصل الخطاب فى هذه المسئلة فمضرة الطرش

في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعافا من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه

(فصل) وأما من عدم البيانين بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمية بل هي أحسن حالا منه فان فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي تستعمل فيها وهذا يجهل كثيراً مما تهتدي اليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه وأن عدم بيان اللسان دون بيان القلب ومن عدم خاصة الانسان وهي النطق اشتدت المؤنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج اليه ولا تمتد اليه يده ولا رجله فكم لله على عبده من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه فهو لا يلتفت اليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئاً منها لتمنى أنه له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم انها معاوضة غبن (ان الانسان لظلوم كفور)

(فصل) ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحاداً ومثنى وثلاث ورباع وما في ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحداً فقط إذ لا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى انه لو أضيف الى الرأس رأس آخر لأثقلا بدنه من غير حاجة اليه لان جميع الحواس التي يحتاج اليها مجتمعة في رأس واحد ثم ان الانسان كان ينقسم برأسه قسمين فان تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقي الآخر معطلا لا أرب فيه وان تكلم وأبصر وسمع بهما معا كلاماً واحداً وسمعاً واحداً وبصراً واحداً كان الآخر فضلة لا فائدة فيه وان اختلف ادراكهما اختلفت عليه أحواله وادراكاته وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فان تكلم بهما كلاماً واحداً كان أحدهما ضائعاً وان تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وان تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأي الكلامين يأخذ وكذلك لو كان له هنوان وفمان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لا منفعة فيه وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فان الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية فلو كان الانسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان واما اليدان والرجلان والساقان والفخذان فتعددها ضروري الانسان لا تتم مصلحته الا بذلك ألا ترى من قطعت احدى يديه أو رجليه

كيف تبقى حاله وعجزه فلو ان النجار والخياط والحذاء والخباز والبناء وأصحاب الصنائع التي لاتتأتى الا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته فاقتضت الحكمة ان أعطي من هذا الضرب من الجوارح والاعضاء اثنين اثنين وكذلك اعطي شفتين لانه لا تكمل مصلحته الا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك وأما الاعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم واما الاعضاء الرباعية فالكعاب الاربعة التي هي مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين وكذلك أجفان العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الاعضاء على ماهي عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت أونقصت لكان نقصاً في الخلقة ولهذا يوجد في النوع الانساني من زائد في الخلقة وناقص منها مايدل على حكمة الرب تعالى وانه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وانه خلق خلقاً سويا معتدلا لم يزد في خلقه مالايحتاج اليه ولم ينقص منه مايحتاج اليه كما يراه في غيره فهو أجدر ان يزداد شكراً وحمداً لربه ويعلم ان ذلك ليس من صنع الطبيعة وانما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وانه يخلق مايشاء

(فصل) من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع الانساني بين صورهم فقل ان يرى اثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر مافي العالم بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فانك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم والذود من الابل والصوار من البقر تتشابه حتى لايفرق بين واحد منها وبين الآخر الا بعد طول تأمل أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقة واحدة بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة والحكمة البالغة في ذلك ان الناس يحتاجون الى ان يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجري بينهم من المعاملات فلولا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشتت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البائع من المشتري ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ولا هي تعرف بعلها من غيره وفي ذلك أعظم الفساد والخلل فمن الذي ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لاتنالها العبارة ولايدركها الوصف فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق في النوع وأين قول الطبائعيين ان فعلها

متشابه لانها واحدة فى نفسها لاتفعل بارادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أعمالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وربما وقع فى النوع الانسانى تشابه بين اثنين لايكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤنة فى معاملتهما وتشتد الحاجة الى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق واذا كان هذا يعرض في التشابه في الاسماء كثيراً ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك مايلقى فما الظن لو وضع التشابه فى الخلقة والصورة ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لايضرها هذا التشابه شيئاً لم تدع الحكمة الى الفرق بين كل زوجين منها فتبارك الله أحسن الخالقين الذي وسعت حكمته كل شئ

(فصل) ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل اذا أدركا اشتركا فى نبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية فان الله عزوجل لما جعل الرجل قيما على المرأة وجعلها كالخول له والعاني فى يديه ميزه عليها بما فيه له المهابة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته الى ذلك ومنعها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لايشينه الشعر واشتركا في سائر الشعور للحكمة والمنفعة التى فيها

(فصل) ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها واجراسها تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك فى أنبوبة الحنجرة حتي ينتهي الي الحلق واللسان والشفتين والاسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات واجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مباين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة حتى ينتهي الي مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفاً يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله فمنه المضحك ومنه المبكي ومنه المؤيس ومنه المطمع ومنه مخوف ومنه المرجي والمسلي والمحزن والقابض للنفس والجوارح والمنشط لها والذى يسقم الصحيح ويبرئ السقيم ومنه مايزيل النعم ويحل النقم ومنه مايستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالي به بين المتعديين ومنه ماهو بضد ذلك ومنه الكلمة التي لايلقى لها صاحبها بالاً يهوى بها في النار أبعد مابين المشرق والمغرب والكلمة التى لايلقى لها بالاً صاحبها يركض بها فى أعلا عليين فى جوار رب العالمين فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لايدرى مبرده ولا أين ينتهي ولا أين مستقره هذا الى ماقى ذلك من اختلاف الالسنة واللغات التى لايحصيها الا الله فيجتمع الجمع من

الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته فتسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفاً ولا يدرى كل منهم مايقول الآخر واللسان الذي هو جارحة واحد فى الشكل والمنظر وكذلك الحلق والاضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية في ذلك كالآية فى الارض التي تسقى بماء واحد وتخرج من ذلك من أنواع النبات والازهار والحبوب والثمار تلك الانواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن فى كل منهما آيات فقال ﴿ ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ﴾ وقال ﴿ وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ﴾ الآية فانظر الآن فى الحنجرة كيف هي كالانبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغمات ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والفضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التي تقبض على الزق حتى يخرج الهواء في القصب والشفتين والاسنان التى تصوغ الصوت حروفاً ونغماً بالاصابع التي تختلف على المزمار فتصوغه الحانا والمقاطع التى ينتهي اليها الصوت بالانجاش التى فى القصبة حتى قيل ان المزمار انما اتخذ على مثال ذلك من الانسان فاذا تعجبت من الصناعة التي تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الاصوات فما احراك بطول التعجب من الصناعة الالهية التى أخرجت تلك الحروف والاصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويا بعد ما بينهما ولكن المألوف المعتاد لايقع عند النفوس موقع التعجب فاذا رأت مالا نسبة له اليه أصلا الا انه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ماهو أعظم من ذلك مما لايدركه القياس ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الاصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والالسنة والشفاه والاسنان فمن الذي ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم

(فصل) وفى هذه الآلات ومآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي يروّح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وفي اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على اساغة الطعام وان يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق وفى

الاسنان من المنافع ماهو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها اسناد الشفتين وامساكهما عن الاسترخاء وتشويه الصورة ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخي شفتاه وفي الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه الي حلقه بقدر فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذي اليه ينتهي اليه مايخرج من الجوف ومنه يبتدي مايلج فيه فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما اذا شاء وهما أيضاً جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك وانظر الى من سقطت شفتاه ماأشوه منظره • وقد بان أن كل واحد من هذه الاعضاء يتصرف الى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الاداة الواحدة في أعمال شتى هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الاعراض وتحفظه عن الاضطراب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخودة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل اليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخودة التي على رأس المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وستراً من الحر والبرد والاذى وجمالا وزينة له فمن المعطل من الذي حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ماأودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والادراكات ومن الذي جعل الاجفان على العينين كالغشاء والاشفار كالاشراج والاهداب كالرفوف عليها اذا فتحت ومن الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعاً وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ومن شقهما في الوجه أحسن شق وأعطاهما أحسن شكل وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعة وحارسا للبدن ورائداً يرسله كالجند في مهماته فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ومن أودع النور الباصر فيه في قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات و الأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات وجعلهما في أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العلية وربيئة لبدن ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسي المملكة وأقام جند الجوارح والاعضاء والقوي الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له فهي مؤتمرة اذا أمرها منتهية اذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصاً ولا خروجاً عن أمره فمنها رسوله ومنها بريده ومنها

ترجمانه ومنها أعوانه وكل منها على عمل لايتعداه ولا يتصرف في غير عمله حتى اذا أراد الراحة أوعز اليها بالهدوّ والسكون ليأخذ الملك راحته فاذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لاتفتر فلو شاهدته فى محل ملكه والاشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر فى خدمته والبُرُد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأناً عجيباً فما ذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لايحتاج فيها الي طول الاسفار وركوب القفار قال تعالى ﴿ وفى الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ فدعا عباده الى التفكر فى أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم توسع الكلام في هذا الباب ولا أطلنا النفس الى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن ايماناً فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولا يشعر به ولله ماخلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أوالهوان والعذاب فاما على سرير الملك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر الى وجه ربه ويسمع خطابه واما أسير في السجن الاعظم بين أطباق النيران فى العذاب الاليم فلو عقل هذا السلطان ماهيأ له لضن بملكه ولسعي في الملك الذى لاينقطع ولا يبيد ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولا

﴿فصل﴾ ومن جعل فى الحلق منفذين* أحدهما للصوت والنفس الواصل الى الرئة *والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل الى المعدة وجعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس الي الرئة لأهلك الحيوان • ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لاتنى ولاتفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك • ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجاً تقدمها لكيلا تجرى جرياً دائماً فتفسد على الانسان عيشه ويمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضا • ومن جعل المعدة كأشد مايكون من العصب لانها هيئت لطبخ الأطعمة وانضاجها فلو كانت لحماً غضاً لانطبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوي على الطبخ والانضاج ولا تنهكها النار التى تحتها • ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لانها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة • ومن حصن المخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولا تذوب • ومن جعل الدم السيال محبوساً محصوراً فى العروق بمنزلة الماء فى الوعاء ليضبط فلا يجرى • ومن جعل الاظفار على أطراف الاصابع وقاية لها وصيانة من الاعمال والصناعات • ومن جعل

داخل الاذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي الى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه وليتعذر على الهوام النفوذ اليه قبل أن يمسك وليمسك ماعساه ان يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم • ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الاعضاء ليقيها من الارض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الارض حائل • ومن جعل ماء العينين مالحاً يحفظها من الذوبان وماء الاذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الاشياء فلا يخالطها طعم غيرها • ومن جعل باب الخلاء في الانسان في أستر موضع كما ان البنّاء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار وهكذا منفذ الخلاء من الانسان في أستر موضع ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزاً بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقي عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا فاذا جاء وقت الحاجة وجلس الانسان لها برز ذلك المخرج للارض • ومن جعل الاسنان حداداً لقطع الطعام وتفصيله والاضراس عراضا لرضه وطحنه • ومن سلب الاحساس الحيواني الشعور والاظفار التي في الآدمي لانها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة الى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ماشاء منها ولو كانت تحس لوقع الانسان منها في احدى البليتين اما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه واما مقاساة الألم والوجع عند أخذها • ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر لانه لو أشعر لتعذر على الانسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الاعمال التي تباشر بالكف • ولهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلا لانباته لانه يمنعه من الجماع • ولما كانت المادة تقتضي انباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة ولهذه الحكمة سلب عن الشفتين وكذا باطن الفم وكذا أيضاً القدم أخمصها وظاهرها لانها تلاقي التراب والوسخ والطين والشوك فلو كان هناك شعر لآذى الانسان جداً وحمل من الأرض كل وقت مايتأذى الانسان وليس هذا للانسان وحده بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة أفلا ترى الصنعة الالهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة وشعر باطن الانف وشعر الركبتين وقالوا أي حكمة فيها وأي فائدة • وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم وان الحكمة لايجب ان تكون بأسرها معلومة

للبشر ولا أكثرها بل لانسبة لما علموه الى ماجهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره الي ماخفى عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب ان يستدل بما عرف منها على مالم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق وما مثل هؤلاء الحمقى النوكى الا كمثل رجل لاعلم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة اذا رام الاعتراض بعقله الفاسد علي أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم فخفيت عليه فجعل كل ماخفى عليه منها شيء قال هذا لافائدة فيه وأي حكمة تقتضيه هذا مع ان أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه ان يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها. فما الظن بمن بهرت حكمته العقول الذى لايشاركه مشارك في حكمته كما لايشاركه في خاقه فلا سريك له بوجه فمن ظن ان يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عياراً عليها فما أدركه اقرّبه وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ماخفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولا تنكر • فاعلم الآن ان تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما قتضت الطبيعة اخراج هذه الشعور عليها ألا ترى ان العشب ينبت فى مستقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر وأهيأ فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات الى خارج فصارت شعراً ولو حبست فى داخل البدن لأضرته وآذت باطنه فخروجها عين مصلحة الحيوان واحتباسها انما يكون لنقص وآفة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فانه عين مصلحتها وكمالها ولهذا يكون احتباسه لفساد فى الطبيعة ونقص فيها• ألا ترى ان من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب فاذا شاهدت ذلك فى الشعر الذى عرف بعض حكمته فمالك لاتعتبره فى الشعر الذى خفيت عليك حكمته• ومن جعل الريق يجرى دائماً الى الفم لاينقطع عنه ليبل الحلق واللهوات ويسهل الكلام وسيغ الطعام • قال بقراط الرطوبة فى الفم مطية الغذاء فتأمل حالك عند مايجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التى لايستغنى عنه

(فصل) ثم تأمل حكمة الله تعالى فى كثرة بكاء الاطفال وما لهم فيه من المنفعة فان الاطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا في أدمغة الاطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لا حدثت أحداثا عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح •وأيضاً فان البكاء والعياط يوسع عليه مجاري النفس ويفتح العروق

ويصابها ويقوى الاعصاب وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه فاذا كانت هذه الحكمة فى البكاء الذى سببه ورود الالم المؤذى وأنت لاتعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا ايلام الاطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ماقد خفي على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام فى حكمه اضطراب الارشية وسلكوا فى هذا الباب مسالك • فقالت طائفة ليس الا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على انفسهم هذا الباب جملة وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وانما المراد بالآية افراده بالالهية والربوبية وانه لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لانه لايفعل شيئاً سدى ولا خاق شيئاً عبثاً وانما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ألا ترى الى قوله (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لايسأل عما يفعل وهم يسئلون) كيف ساق الآية فى الانكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسوّاها به مع أعظم الفرق فقوله لايسأل عما يفعل اثبات لحقيقة الالهية وافراد له بالربوبية والالهية وقوله وهم يسئلون نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للالهية فانها مسؤلة مربوبة مدبرة فكيف يسوّي بينها وبينه مع أعظم الفرقان فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا فى انكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب • وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام فقيل لهم قد كان يمكن ايصال الثواب اليهم بدون هذا الايلام فاجابوا بان توسط الايلام في حقهم كتوسط التكاليف فى حق المكلفين فقيل لهم فهذا ينتقض عليكم بايلام أطفال الكفار فاجابوا بانا لانقول انهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لايدخلها أحد الا بذنب وهؤلاء لاذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسئلة الاطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فاورد عليهم مالاجواب لهم عنه وهو ايلام أطفالهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر فان هذا لاتعويض فيه قطعاً ولا هو عقوبة على الكفر فان العقوبة لاتكون سابقة وتعجيلا فحاروا فى هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل • وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وان تكلف الجواب عنه التزام مالا يلزمه فان هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الانسانية التي لم يخلق منفكا عنها فهي كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز

الحاجة الى الاكل عند الجوع والحاجة الى الشرب عند الظمأ والى النوم والراحة عند التعب فان هذه الآلام هي من لوازم النشأة الانسانية التي لا ينفك عنها الانسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن انسانا بل كان ملكا أو خلقاً آخر وليست آلام الاطفال بأصعب من آلام البالغين لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين مايقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل وكل ذلك من مقتضى الانسانية وموجب الخلقة فلولم يخلق كذلك لكان خلقاً آخر فيرى ان الطفل اذا جاع أوعطش أو برد أو تعب قدخص من ذلك بمالم يمتحن به الكبير فايلامه بغير ذلك من الاوجاع والاسقام كايلامه بالجوع والعطش والبرد والحر دون ذلك أو فوقه وما خلق الانسان بل الحيوان الا على هذه النشأة • قالوا فان سأل سائل وقال فلم خلق كذلك وهلا خلق خلقة غير قابلة للالم فهذا سؤال فاسد فان الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهى عرضة الآفات وركبه تركيباً معرضاً للانواع من الآلام وجعل فيه الاخلاط الاربعة التي لاقوام له الا بها ولا يكون الا عليها وهى لا محالة توجب امتزاجا واختلاطاً وتفاعلاً يبغى بعضها على بعض بكيفيته تارة وبكميته تارة وبهما تارة وذلك موجب للآلام قطعاً ووجود الملزوم بدون لازمه محال ثم انه سبحانه ركب فيه من القوي والشهوة والارادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصالحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة فأحوج النوع بعضه الى بعض فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغي بعضهم على بعض فحدث من ذلك الآلام والشرور بنحو ما يحدث من امتزاج اخلاطه واختلاطها وبغي بعضها على بعض والآلام لا تختلف عن هذا الامتزاج أبداً الا فى دار البقاء والنعيم المقيم لا في دار الابتلاء والامتحان فمن ظن ان الحكمة فى ان تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن باطلا بل الحكمة التامة البالغة اقتضت ان تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها وراحتها بعنائها ولذتها آلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض كما قال القائل

أصبحت فى دار بليات   ادفع آفات بآفات

ولقد صدق فانك اذا فكرت فى الاكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر مايستلذ به رأيته يدفع بها ما يقابله من الآلام والبليات أفلا تراك تدفع بالاكل ألم الجوع وبالشرب ألم العطش وباللباس ألم الحر والبرد وكذا سائرها ومن هنا قال بعض العقلاء ان لذاتها انما هي دفع الآلام لاغير وما اللذات الحقيقية فانها دار أخرى ومحل آخر غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الادلة على المعاد وان

وجمازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مستندة إليه تعالى
كره خلقين وله تعيين خلقاً عاماً وخلقاً خاصاً وتعليماً خاصاً وتعليماً عاماً وذكر
لنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفاً ومنه كل
والأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم انما نشأ من كرمه
نه لا من حاجة دعته إلى ذلك وهو الغني الحميد وقوله تعالى (الرحمن علم
الانسان علمه البيان) دلت هذه الكلمات على اعطائه سبحانه مراتب الوجود
قوله خلق الانسان اخبار عن الايجاد الخارجي العيني وخص الانسان بالخلق لما
وقوله علم القرآن اخبار عن اعطائه الوجود العلمي الذهني فانما تعلم الانسان القرآن
كما أنه انما صار انساناً بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه * ثم قال علمه البيان والبيان
له مراتب ثلاثة كل منها يسمى بياناً * أحدها البيان الذهني الذي يميز فيه بين
المعلومات * الثاني البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره
ه الثالث البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين
السامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً
ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان
عنه مسؤلا) وقوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم
السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب
الهدى والعلم النافع كقوله (صم بكم عمي) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم
وعلى أبصارهم غشاوة) وقد تقدم بسط هذا الكلام

(تنبيه) ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطي الانسان علمه بما فيه صلاح معاشه
ومعاده ومنع عنه علم ما لا حاجة له به فجهله به لا يضره وعلمه به لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً ثم
يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم
كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والاقرار به ويسر عليه
طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ما هو أجلى منها ولا أظهر عند العقل والفطرة وليس
في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكل ما تراه
بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك
فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم
أجلى منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ولهذا قالت الرسل
لأممهم أفي الله شك فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه